زهور ونيسي

جسر للبوح وآخر للحنين

رواية

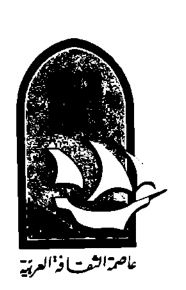




زهور ونيسي

جسر للبوح
وآخر للحنين

رواية





الإيداع القانوني : 2006 – 3369
ردمك : 5 - 47 – 715 – 9961 – 978

إهداء

إلى قسنطينة ... المدينة المستعصية

دوما على الإمتلاك

الكاتبة

عندما لفظ القطار كمال العطار مع الآخرين ، ومع بقايا وقود محترق، كانت عيناه تنظران في كل الاتجاهات ، كان تائها يبحث عن قريب أو صديق ينتظره ، في مدينة يبدو أنها أكلت كل الأصدقاء ، كان يريد أن يتأمل كل شيء ليس بعينيه فقط ، بل بقلبه وعقله ، يتأمل ويتفحص تماما كما نفعل مع حبيب اشتقنا له كثيرا ، أو نخاف عليه كثيرا أو عزيزا نريد التعرف عليه لأول مرة .

هاهو رصيف المحطة قد ضاق أكثر ، واغبر ، وتآكلت حجارته ، والساعة المعلقة أمام باب الخروج من المحطة قد انكسر زجاجها وتوقف عقربها الدال على الدقائق بقيت تحسب الساعات فقط ، وكأن الزمن قل نشاطه ، وركدت حركته الدؤوب .

مقاعد المحطة مشغولة بالمتعبين المنتظرين لشيء ما، والمتسكعين بسبب ما ، كل له غاية ، وكل لا غاية له .

توجه مع المسافرين الخارجين ، بدوا له كائنات هامشية أكثر منها أساسية ، كانت تبحث لنفسها عن مكان ما تحت الشمس بعد سبات عميق في أصقاع قطب متجمد ، ليبتلعه الباب المفتوح لداخل المدينة مع من ابتلعهم اليوم وقبل اليوم والذين سيبتلعهم حتما غدا .

هكذا لكل مكان باب للدخول وآخر للخروج ، بل لكل امر مدخل ومخرج ، سهل ومريح ، أو صعب وشاق ، قالوا قديما :

* إن الدخول لكل أمر أسهل من الخروج منه .

وفي نفسه هو قال ذلك ، وهو يدفع تذكرته الميتة لتتمزق مع التذاكر الميتة الأخرى ، بين إصابع مراقب المحطة الذي كان وجهه يحمل الكثير من ثقل السنوات ، حتى أصبحت قسماته لا تعبر عن شيء البتة .. لا عن الحزن ولا عن الفرح ، لا عن الرضا ولا عن الاستياء ، هكذا مثل بعض الوجوه التي تفقد قسماتها الأحاسيس ، فلا نستطيع لها تفسيرا ولا وصفا .

وعندما صدمه أحد الحمالين بحقيبة فوق رأسه ودون أن يعتذر، يبدو أنه تعود على إيذاء الغير دون اعتذار ، تساءل كمال العطار بانــزعاج :

* ما بال الناس يعشقون كثرة الأمتعة في السفر ؟

هاهو يهرب بتبريرات عقيمة ، ويرجع نية الأذى لكثرة الأمتعة ، إن ذلك غير صحيح ، الذي تعود الأذى ، تعود عليه حتى مع قلة الأمتعة أو بدونها ، وعن قصد ودون قصد .

حقيبته الصغيرة كان يحملها بنفسه، ولم يؤذ بها أحدا، كانت تحوي منامة وأدوات حلاقة وكتابا ودواء للصداع .

وداخله شعور مبهم لكنه مائل للفرح ، هاهي مدينته ، الحبيبة كما تركها منذ أربعين سنة لم تتغير تماما كما يراها اليوم وكل مرة في الأحلام .

قابله تمثال الرجل الروماني منتصبا ، والذي أطلق على المدينة اسمه نرجسية ، وفخرا ، مدعيا أنه غير اسم المدينة من «سيرتا» الى «قسطنطين» في إطار تطبيق سياسة المصالحة الوطنية الرومانية ، هاهو تمثاله وهو يحمل في يده مزهوا وثيقة امتلاك المدينة .

« قسطنطين » القائد الروماني ، واقف بتنورته القصيرة وفي خصره خنجر ، كان أهم سلاح يمتشقه فارس محارب ، ولا بأس من أن يحمل خصره الثاني فأسا، ذاك كل ما يمكن أن يتسلح به محارب في تلك العهود.

فما بالهم اليوم يهزأون من العرب وهم يحملون خناجرهم للزينة ، وكأن الأمر جديد عليهم ، بل ويرمز للتخلف والارهاب .

التمثال كما تركه لم يهدم كما هدم الكثير من أشياء التاريخ الجميلة، لعلهم بدأوا يعرفون قيمة التاريخ ؟ لقد ساح في كثير من البلاد والأقطار والقارات ، وشاهد بعض الشعوب تصنع لنفسها تاريخا ، وتبتكر شخصيات تاريخية من العدم ، من لا تاريخ ، وحتى تظهر بالمظهر الحضاري العريق ، أمام الشعوب والأمم الأخرى ، وفي بلاده رآهم يتلفون التاريخ بإهمالهم ، يختزلونه ، ويشوهونه عندما لا يرضى أمزجتهم أو قناعاتهم السياسية والفكرية ، يحرقون المعالم الحضارية فقط لأنها رمز لمرحلة أو زمن لا يلائمهم، ولا يستجيب لغاياتهم ، متجاهلين أن التاريخ كل لا يتجزأ ، له بداية ولا نهاية له ، ولا يمكن إهمال مابينهما ، وهو لا يعيد نفسه ابدا للذي يحسن قراءته .

إن الحضارة لا يمكن أن تنمو من طرف شعب واحد، أو ثقافة واحدة ، إنها ذلك التلاقح والتفاعل الإبداعي بينها ، مع اختلاف إنسانها أو مذهبها ، إنها هذا الأمر الجميل الذي يحصل للإنسان هنا وهناك ، وهنالك يفنى الإنسان وتمر الأجيال لتبقى تلك الحضارة تركة للعالم أجمع وثراء للإنسانية كلها.. هذه هي الحضارة ، ويبدو أن أهل مدينته يدركون ذلك ، ليس بهذا المعنى ، ولكن على الأقل بمعنى أن هذا ماضيهم ، تاريخهم مهما اختلف البشر الذين مروا على هذه الأرض عنهم اليوم ، عن قناعاتهم وتوجهاتهم وهوياتهم التي اختاروها ، أو تلك التي ورثوها أبا عن جد ، لكن عندما لا يعجبهم شيء يعدمونه من حياة التاريخ .

وتزحلقت قدماه ، إنه لا يريد أن يركب ، يريد فقط أن يسير ويسير ويسير ، حتى يتعب ، وليبدأ بأول الجسور ليقطعه للمدينة القديمة .

كان كأنه « سان جان » أحد فرسان « مالطا » ، وهم في طريقهم الى آخر المحطات، الى بيت لحم بالقدس، كان كأحد فرسانها يحمل نيـــة الفتـــح والحج ، صليبي يمر على « مالطا » للتدرب للحرب المقدسة، ينطلق نحو الشرق بسيف من خشب ، وبياض زين المفارق ، يزرع البحر ذهابا وإيابا ، ليحصل على شيء اسمه الحقيقة ، يبحث في سواحله وخلجانه ، صخوره ورماله ، ليصل الى الأعماق ، التي حتما تحاول أن تخفي حقيقة ما في اعتقاده .

هاهو اليوم يحاول أن يسرح بخياله مثلما كان يفعل وهو مع رفاقه على سواحل « روسيكادا » هم يمرحون ويتمتعون بالسباحة والشمس ، وهو يسبح في بحر من التأمل والخيال ، بحثا عن حقيقة لا يزال الى اليوم لم يعثر عليها ، أو يعرف كنهها ، أو لماذا هو يبحث عنها .

وعندما كان على الجسر، تذكر أنه لازال يحتفظ بصورة له مع والده على الجسر ، كان يبدو صغيرا جدا كنقطة وهمية في فضاء عامر بالأفلاك ... شاهد الناس يتحركون بتلقائية غريبة ، كل يعرف الى أين يقصد ، كانوا جميعا لا يشعرون أنهم معلقين مع الجسر ، كانت سحناتهم تحمل تلك الابتسامة الغامضة ، التي كانت تطبع أقنعة الفينيقيين الفخارية،

أو ابتسامة « الموناليزا » التي حار المحللون في تفسير فحواها ، وهل هي ابتسامة أسى أو ابتسامة سعادة ، بشرى أمل أو نذير شؤم .

أما هو فقد بدت خطواته مترددة وجلة ، وكأنه يقطع الجسر ويمشى عليه لأول مرة ، سحنته لم تكن تحمل أي نوع من أنواع الابتسامات لا الحقيقية ولا المقنعة ، قطع الجسر وكأنه يقطعه لأول مرة ، ولم يقطعه مئات المرات ، جاريا مرحا بل معلقا بين أركانه وتحت قواعده، عندما كان لا يعرف الخطر ، ويتباهي بذلك مع رفاقه وأنداده .

كان الطريق المقابل بعد انتهاء الجسر يبدو ضيقا ، كم تصور أنه أوسع طريق على الأرض ، إن السيارات الآن تسير في اتجاه واحد ، رفع رأسه دون وعي منه لنوافذ البيوت والشرفات وجدها قد عبث بها القدم ، لا تجديد ولا ترميم ، تراث عمراني يعود الى بداية القرن التاسع عشر ، لكنه لم يصنف في باب التراث الحضاري ، بل صنف في باب لاشيء مهما .

هاهي المطبعة ، كانت وقت الاستعمار تطبع جريدة باللغة الفرنسية « لادياش » ، واليوم كتبت على بابها كلمة « النصر » بالحرف العربي ، جريدة الجزائر المستقلة ، في هذه المدينة المتعددة الأصول والأبعاد، كان الحرف العربي سائدا ، حتى أيام الاستعمار، عبر صحافة رائدة وفكر راق، نابع عن حركة النهضة الإصلاحية ، وإمامها الفذ سليل صنهاجة « ابن باديس » .

كان أبو كمال وهو صغير عندما يعثر في الشارع على ورقة مكتوبة بالحرف العربي ، يمسح عنها الغبار ، ثم يضعها فوق جبينه بعد أن يقبلها ، ثم يطويها بعناية ، ويضعها في جيبه ، وعندما يرجع للبيت ينادي كمال بلهجة جادة ، ليجلس الابن قبالة والده ، الذي يخرج الورقة المطوية ، وكأنها المصحف الشريف ، ثم يطلب منه أن يقرأها بنظرة آمرة:

* إقرأ يا كمال ما في هذه الورقة ، لعلها آية كريمة أو حديث شريف ، إنه لم يهن علي أن اتركها مرمية على الأرض والناس تطأها بالأقدام .

ويقرأها كمال وهو يستعير جدية واهتمام والده، ثم يطمئنه أنها فقط فاتورة بقائمة أسماء بعض البقول ، ربما سقطت من أحدهم بعد أن دفع ثمنها عند البقال الشرقي ، الذي كان يستعمل الحرف العربي في معاملاته لأنه لم يكن يعرف غيره .

ويضحك الوالد في سره :

* إن ابنه لا يدري أنه يحسن القراءة ويفهم جيدا ما في الورقة ، فقط يريد بحركته أن يشرك ابنه الصغير في الاهتمام بالحرف وتمجيد اللغة العربية ، والتي حاربها المحتل مثلما حارب كل ناطق بها .

مدينته الحبيبة جميلة خطيرة كمومس ، حنون طيبة كأم ، ربما غادرها وهو لا يهاب شيئا ، ورجع إليها وقد عرف كل أنواع الخوف ، أصبح قادرا على شم الخوف من بعيد ، أربعين سنة عاشها ملآى

بالمفاجآت والأحداث ، والحلو والمر ، كان وهو صغير يسمع كل متذمر غاضب يهدد بالانتحار من على الجسور ، طريق الخلاص للأرواح المتعبة، خصوصا الفتيات والنساء الخطايا ، فأي بيت في هذه المدينة يرضى بعد ذلك بإيواء الخطايا حتى لو كن فلذات أكباد ؟

أحاسيس بعثت في جسده موجة برد مفاجئة ، هاهو يتخيل ، بل يتذكر كل ذلك مرة واحدة ، ويتعب من البداية ، الم يرجع الى مدينته لأنه أشتاق إليها ؟ فلماذا إذن يخلط بين الحنين والموت ، وصخور الوادي العميق ؟ اليس قدرهم أن يموتوا كذلك ؟

كان كمال يريد مدخلا بعينه من مداخل المدينة ، إن لها أبوابا سبعة فأي باب منها يريد ؟

وحاول هامسا بين شفتيه أن يختبر ذاكرته المتعبة ، ويتذكر أسماء الأبواب السبعة : « باب الجابية » « باب السـويقة » « باب الـواد » « باب القنطرة » « باب الروح » « باب الرحـبة » « باب المديـنة »...

وكاد يقفز من السعادة ، وهاهو يتذكر أسماء الأبواب السبعة ، إنه لم يفقد الذاكرة بعد ، وتذكر والده وهو يربت على كتف جارهم العجوز مواسيا : مازالت البركة عمي السعيد ...

* ما زالت البركة فيه هو أيضا ..

وأي بركة مع مدينة تقدس الرقم السابع .. أبوابها سبعة ، وجسورها سبعة ، ووصاياها ربما سبعة ، وأعراسها سبعة أيام وسبع ليال،

وكل أحداثها من « سان دونا » البربري المشاكس للحكم الروماني، الى مسك ختام الأحداث ثورة التحرير .

* ها أنت تطلع من رماد الذكرى ، تحمل عمرك في يد، واحباطاتك في اليد الأخرى ، وشوارع المدينة المواجهة منها والمخفية تفلت من ناظريك واحدا بعد الآخر ، لتختلط مع الأحلام والأوهام ، هاهي مدينتك اليوم ، جرب وخذها بين يديك ، الثمها بعينيك ، ألمسها بقلبك الأخضر برعما يفجر صخر جسور التاريخ ، هدهدها ، انظر ملاءهًا السوداء ذات الثقوب ، والألف حكاية وحكاية ، لتنتصر في لونها حكاية البعث الفاطمي ، ليس كمذهب فتنة لكن كدين صحيح ، يمتد ويمتد حتى يصل الى إقامة أكبر معلم ورمز للدين الأزهر ابدا ، تنسمها عبيرا فيه كبرياء الروح ، تنشق عطر تربتها الندية الحنون ، قلدها وساما للعطر وآخر للنغم لألف ألف ألف عام من الزمن ، أنصت الى لحنها الأهوج وهو يسرى أنفاسا في صدرك ، ووترا مكسورا في كبدك .

هاهي كما عودتك بقلبها الكبير كهدير واديها وأحجارها المدفونة حبات لؤلؤ نادرة ، تموجات الوادي تخفيها تارة لتبرزها تارات ، غضبا تارة وحنينا وشوقا أكثر من تارات .

« ماسينيسا » فارسها المغوار ، عشقها أما فاتنة في الزمان ، وربط حناء عرسه بأطراف ضواحيها المبعثرة ، وزرع قلبه عربون عشق دائم ووثيقة وحدة وانتصار .

« ماسـينيسا » « سـيزار » « سـيفاقس » وعشـاقها المقربون، و« ماكساس » عدوها وآسرها ومشوه وجهها الوسيم .

« قسطنطين » « بوربون » « كلوزيل » وهو يفيق من حلمه الأهوج على جدران تلالها وهضباتها الخضراء ، وهي تدفع بالزهر والعطر آلات احتلاله المدمرة ، شبقا وحقدا ، وهوسا يسحق الزهر والأقحوان والأعشاب الطرية، لينتصر العطر والشذى ، ويظل يعبق المكان ويأسر الزمان لتبقى شفافة كالروح ، موجودة كالأزل ، معجونة بالدموع ، موشومة بالجراح ، مزروعة بالأمل .

كل الحملات التي شنت لامتلاكها باءت بالفشل ، حتى تلك التي جاءت باسم الأخوة والدين ، و« حمودة باشا » فارس جارتها تونس ، يكاد يهلك وهو يحاول ان يحتل جبل منصورتها ، ليرجع مخذولا الى بلاده، لأنه نسي أنها المنصورة منذ « عقبة بن نافع » الى « كلوزيل » الذي يتصور أنه قد امتلكها ، فكان لطعم انتصاره مذاق العلقم على مدى ما بقي من عمره .

إنها أمك أيضا يا كمال ، أتذكر أمك ؟

إن كنت غاضبا منها فصب غضبك عليها ، غضب عمر كامل ، لكن تمسك بها ، إنها تبدو اليوم غير مستعصية على الامتلاك أكثر من أي وقت مضى ، وعند آخر هذا الدرب صح بأعلى صوتك :

* أنا هنا ، أنا ابن هذه المدينة ، أنا ابن تاريخها المشرف ، وأحلامها الجميلة ، ها أنا أعود إليها اليوم وفي حلقي مرارة الغربة وغصة الاغتراب .

أصعد الى مرتفعات « كدية عاتي » وصح بأعلى صوتك :

* أحبك أيتها الحسناء بأخاديدك وتجاعيدك وأدغال حناياك ، وهي تقطر ألما على شبابك الضائع ، هل يمكن أن تكوني بكل تلك الشجاعة وأكون اليوم بهذه الملامح الجبانة ؟ كيف يمكن أن تكون المدينة باسلة بدون أهلها ؟ أو كيف يمكن أن تكون باسلة وأهلها جبناء ؟



يالها من تركة فكرية صعبة لا أقدر على التمرد عليها ، ولا القفز عليها الى تركات فكرية أخرى جديدة ، هاهو عالمي خيالي تصنفه الحكايات والذكريات والأحلام التي تتحول فجأة الى خيبة أمل قوية شديدة الوطء .

قبل أربعين عاما حملت حلمي بين أضلعي ، وخرجت من باب جسورك العائمة في فضاء الأخيلة والأساطير ، دون أن أدير راسي الى الوراء خوفا من الضعف والتردد .

* حلمك أيها الغريب لم يتحقق، إنه لم يختمر بعد، حلم جنين أجهض قبل التكون، شوه في تكوينات مختلفة كثيرة، هجين من التكوينات لا علاقة لها بالتكوين الأول، بالحلم الذي كان قد بدأ يختمر

في ظلمات ، وظلمات رفاقك ، منذ تلك اللحظة الأزلية ، في ليلة يوم يقال عنها ليلة الصفر، الليلة التي هضمت كل الأعداد الأخرى من الليالي ، كانت ليلة عذراء فذة ، لرحم نظيف صاف من كل الشوائب ، مستعد لاستلام الحلم الجنين بنقاء دم وطهارة منبت وعراقة أرومة .

* قابلت بعدك ألف مدينة ومدينة ، لكنها كانت تختلف كل مرة، اختلفت معي ، مع خطواتي الحالمة ، إنها لا تحمل لا حلمي الصغير ولا حبي الكبير ، ولا هناء نفسي وأنا أتجول في الشوارع الرحبة للألف مدينة ومدينة ، والجمال يحضنني في كل مكان ، لقد كان أضيق زقاق من أزقتك في ذاكرتي يبدو لي أرحب وأجمل وأعطر ، هل هي عيناي التي تصنع الجمال ؟ أم هو فكري وأحلامي ، أم هي ذاكرتي ؟ أم هو الزمن الجميل ا لضائع ؟ .

العالم مسرح رحب ونحن شخوصه المبعثرون في أنحائه ، كل واحد يلعب دورا لائقا به أو غير لائق ... وما علينا سوى أن ننسى إذا أردنا أن نعيش .

أيها الزمن لماذا تغتصب براءتنا ؟ لماذا لم تتركنا أبرياء ، كما ولدنا؟ لماذا تقحم أحداثك ونواياك الشريرة في حياتنا ، فتنزع عنا ثوب البراءة وتستبدله بثوب الغش والخداع على النفس أولا ، ثم على الآخرين من حولنا .

ها أنا أعود إليك يا مدينة عشقتها العشق الأول ببراءة وجمال العشق الأول ، ها أنا أعود إليك وداخل حقيبتي السوداء ستون عنوانا ، وستون ذكرى ، وستون اسما ، وستون ربيعا أسست لشيخوخة مبكرة ونهاية أكثر تبكيرا .

هل أنا عائد لأحقق حلمي الكبير الذي أجهض وهو في الاختمار؟ فأضمك الى صدري الصغير فيخفق قلبي خفقة للتعب، وأخرى لعدم انتهاء التعب .

ها أنا أعود إليك وفي ذخيرتي كثير من الخوف قليل من الأمل .

ها أنا أعود لأبحث في عيون الناس ، ووراء الأبواب المغلقة والمشرعة ، أبواب تذهبت من الصدإ ، ليصدأ فيها الحلم الصغير ، بدل أن يتورد ، وينشر مواسم عطره على بقايا الرسوم والأطلال ، ليبدو قلبي وقد فاض بما ألقي فيه وأنا بعيد عنك .

الحديث مختلف معك ، وأنت المدينة الوحيدة في العالم التي تحسن الحديث والبكاء والأنين ، أليس كذلك يامدينة النسيج الحضاري المتناسق الألوان ، العميق الأبعاد، الموحد الآمال ؟

من ترك كل هذا التراب يتراكم على جوانحك، ويغمر قلبك الكبير، ليخفي تحته حقيقتك وحقيقتي معك ؟

هاجس الخوف المعجون بالدم ، المخلوط مع قطرات ماء يحتاجها لساننا لينتج لعابا نحرك الكلمات من خلاله هو الذي كان أهم اسباب صمتي الأبكم .

من ترك كل هذا التراب يتراكم ؟ وهذا الضجيج الذي يصم أذني ولا وجود له خارج أذني ، وهؤلاء الساكتون ، هل كلهم خائفون ؟ أم هنها المعادلة الصعبة بين الخوف والنفاق ؟

حكاية الانسان مع الخوف لا نهاية لها ، ويوما ما لابد أن يخسر كل واحد منا شيئا من روحه أو أيامه أو حياته .

شيء ما يسيرني بين الشوارع والأضواء ، والغائب الأكبر فيك هو الحاضر الأكبر .

إنني لا أراك كما كنت أراك سابقا ، هل شخت أنت أيضا مثلي؟ أم أصابك الوهن وداستك آلام اليأس قبل الشيخوخة ؟

الخوف من ظلام الغابة ليلا ترك آثاره في ملامحك الحالمة ، تجاعيد من القلق والرعب اللامنظور ، محا نور القمر الطالع فيك ، أطفأه ، حوله الى رماد ، تذروه عيون الوادي السحيق ، وقد حكت أحجاره الكريمة ألف أسطورة وأسطورة .

مالي لم أخف قبل اليوم ، وقد كان الزمن زمن خوف، من تعذيب وسجن ومقصلة ، وعدو عملاق كان لك ولي بالمرصاد ، ألسنا الشباب الذي أرق مضجع الاحتلال ودمر قواه ؟

الخوف أنواع ، وكان ذلك أسمى أنواع الخوف ، خوف اليوم لا سمو فيه ولا نبل ولا إنسانية ، إنه خوف من بطش جاهل وطغيان أكثر جهالة ، خوف من أن ينغرز في صدرك أو عنقك خنجر تعلوه صفرة الصدإ ، وخضرة الماء الآسن ، ليزيد من آيات العذاب آية أخرى أكثر غرابة وترسيخا لقيم الغدر والخيانة .

الخوف أنواع ، وأنبل الأنواع ذلك الذي أسترجعك به يا حلمي الصغير الكبير المجهض .

خوف اليوم هو ذلك المنحدر السحيق والمقبرة المنفية لكل معاني العقل والحق والحب والجمال ، ورغم ذلك درسوا لنا أن حلمنا مشروع ولا غرابة فيه وهو في مكان ما من العمر ، يولد دون إجهاض وينمو ويتحقق .

لقد زعموا أن أجمل الأزهار هي التي لم تتفتح بعد ، وأجمل الكلمات هي التي لم نقلها بعد ، وأجمل الأيام هي التي لم نعشها بعد ...

الرسوم تبحث عمن تعانقه ، ورسوم أخرى من شأنها أن تحدث الاقتران .

اقتران رسم برسم وبدر ببدر ، ومن دون اقتران وعناق لا نزرع الآمال ولا نحصد السعادة .

تلفظني الأنواء كبيرا يافعا ، لا درب لي للمرور على مرحلة الطفولة ، أولد هكذا رجلا ، دون المرور على عتبات الجبل الأزرق

الشاهق والموصل لما وصلت إليه ، أجبر منذ البدء على العيش بنضج الرجل ، ومسؤولية الرجل ، والتزامات الرجل ، وعذاب الرجل .

* لقد أغرقوك في بحر من الضباب واليأس ، بحر ليس فيه غير الدموع والدماء ، هكذا هم في كل مرة ، ورغم اختلاف المرات ، يعودون ليبذروا الأملاح في جراحنا ، ويشربوا من سيول أحزاننا ، ويتمايلوا رقصا نخب أنيننا وحنيننا الى الأمن والحب .

* أعلم ذلك لكن دعيني اسافر عبر سنابل الزمن ، ثم ستجدينني قد عدت إليك ، إنني لن أهرب منك أبدا بعد اليوم، وأنت حلمي الأول والأخير ، دعي جسمي يرحل عبر المسافات والأمكنة روحي ستعود إليك، أما قلبي فقد تركته من البداية عندك ، بنبضاته وتهويماته الولهى ، توسدي عليه ، إنه أكثر دفئا من نار مدفئة خشبية في سرايا التاريخ .

حتى عقلي معك ، ولولا خوف من جنون لما رافقني هو الآخر الى عتبات الزمن القادم أو عاد بي لمتاهات الزمن القديم ، عقلي مافتئ يعطيك أغلى أفكاره ، وأحب ذكرياته هكذا بشكل خفي ، خوفا عليك من غيرهم وحسدهم واستكثارهم عليك ذلك العطاء .

* ها أنت تلقى بنفسك مرة أخرى في أمواج الذكريات

* لا باس أتعلمين أنك العاشقة المعشوقة ، حتى ووجهك قد تحفرت فيه الندوب الضالة ، وتقاطعت فيه المسافات ، لتنقطع بك الأوصال ، وتختفي بداياتك ونهاياتك .

عشقي لك ليس محفورا عبر الشكل والقد والصورة ، إنه سار في الشرايين ، منذ وأنا جنين في أحشائك ، مبعثر مع ابتساماتي وأنا طفل غافل عن أحزان من حولي ، لقد كانت ابتسامتي تنسيهم وجود الحفر في وجه الأيام الصعبة الغاضبة .

ساعديني على أن تبقى نجمة متلألئة في سراديب قلبي ، وفكرة نيرة في طيات ذهني ، وحلما جميلا ممكن التحقيق في خبايا نفسي ، ولمسة حنونا في حالة العقم والاغتراب العاطفي ، ودعي الحياة تصنع نفسها ، تصنع بنا أحداثها ووقائعها وهمومها وأفراحها ، افعلي ذلك حتى أصفك وأشبهك .

ولست ادري بمن أشبهك ، بالحسناء الجميلة ، أم بجنية البحر المخادعة ، أم بكل نساء الأرض بدءا من حواء الى آخر النساء ؟

دعيني أسافر بعيدا عنك فقط بجسمي المعذب ، عندما أسررت لك بذلك يوما ، لم أكن ادري أن القدر كان يصنع مصائرنا ونحن بعد على درج الأمل ، لقد كنت اعتقد وقتها أنني سأفصل في أمري ، وأنني أملك زمام إرادتي ، ولم أكن ادري أننا مسيرون وغير مخيرين .

ما الذي خرج به المعتزلة وهم يشرحون ويحللون ويقارنون بين المسير والمخير ، بل يغرقون بياض الورق في المداد الأسود لنرث عنهم هذه التركة الفكرية الجاهزة ؟ إن ذلك لم يزدنا سوى ضبابية وغربة فكرية ، إنهم لم يصلوا الى شيء ، ويبدو أننا لن نصل بعدهم الى شيء ، علم كلام

وفلسفة دمر من العقل خلاياه السليمة ، وسرق من العمر أجمل لحظاته ، وقد كان من الأفضل أن يستثمر في إنتاج مواسم للفرح والسعادة ، في حياة عمرها قصير من عمر الزهور ... لقد توقف الفكر الفلسفي عندهم غاضبا من بلادتنا وجمودنا ، ثم ما الذي يجنيه جاهل بقصر الحياة ونهاياتها المفاجئة .

حبيبتي ، ثديك لم اشهد معه الجوع للحب رغم الجوع للخبز ، وحضنك كان أحن علي من كل الأحضان التي ضمتني فيما بعد رغم الخبز الوفير ، في داخلي اليوم فراغ مهول أتصور أنه لن يمتليء أبدا بما أحب أو لا أحب ، فيك أشعر بطفولتي طاهرة عذبة ، وبحياتي نقية سهلة غير معقدة ، أعيشها كاملة دون تقليص أو حذف ، إنها لا تهرب من بين أصابعي وأنا معك ، ولا توجعني بواقعها المرير كل مرة ، وكأنني وأنا معك نشكل كتلة تضامن للتغلب على الواقع المرير ، نحوله الى واقع سهل عذب يحتمل ويعاش ، تتحد فينا قوتان لتهزم قوة ووحشية الواقع المرير .

اتعرفين أنني لست مثل بعضهم ، ممن يتحسسون بأنوفهم بوادر الخطر ، ليسمحوا في كل شيء ويهربوا بأرواحهم وأموالهم بعيدا عنك وأنت جريحة ذبيحة ؟

إنه الهروب الثاني أو الثالث الذي يقومون به جيلا بعد جيل ، لقد كان الهروب الأول في ذلك الزمان البعيد الذي يميز بين حاكم كافر وحاكم مسلم ، الهروب بدينهم حيث الحاكم المسلم ، ولعله الهروب

الوحيد المبرر ، ذا النوايا الحسنة ، ثم يتكرر الهروب ، وأخطره ذلك الذي تتركين فيه أسيرة جريحة ، فئة شريفة نظيفة من مواليد ليلة الصفر فقط هي التي تتولى حمايتك بصبر وتحد وعبر الجراح العميقة .

واليوم يأتي الهروب المكرر ، وربما لن يكون الأخير، الهروب الى حضن العدو القديم ، المتسبب في كل المآسي ، الم يقولوا أن الاستعمار عندما يرحل يترك بدوره من عملاء وأفكار ، هي أشد شراسة منه كظاهرة استعمارية مباشرة ؟ .

ويبقى وجهك وحده ذو الندوب والجروح لعشاقك وحراس معبدك المقدس .

ها أنا أعود إليك وفي حقيبتي ألف سؤال وسؤال ، لم أجد لها جوابا رغم مرور ألف يوم ويوم على فراقك ، فهل أجد ذلك عندك اليوم؟

ها أنا أعود إليك لأبحث في عيون الناس ، وخلف متاريس الأبواب المغلقة والمشرعة ، فلا أجد إلا ترابا متراكما يخفي تحته حقيقة الأشياء وبدايات النهايات .

التراب تذروه الرياح الخريفية ، تبعثره ، تفك قيوده ، تحرره ، ليلامس وجهي الشاحب ، يحاول اختراق العين والأذن والأنف بكل وقاحة الانتقام ، ألم أخنك وفارقتك كل هذه المدة ؟

ما هذا الهجوم المستفز؟ حبال حسورك تحاول خنقي، تشد وتشد على عنقي بقوة ليالي الغياب الشتوية الطويلة ، وأزقتك الخلفية تقبض بضيقها ورطوبتها على صدري ، وبآثار المجد والردوم تضايق أنفاسي ، وأصوات كثيرة اسمعها وحدي دون الآخرين ، نهضت تهتف بعد أن كانت نائمة في ركن بعيد من طفولة وصبا ن وصبابة هوجاء دفينة تحفر لنفسها مكانا أمينا دون كل الصبابات التي عرفت فيما بعد .

أي الصبابات اصدق اليوم ؟ هل هي الضائعة في أروقة العمر الأول ؟ أم هذه التي لم تحفر لنفسها سوى بذور الخوف من الخيانة والأنفاس الكاذبة أبدا ؟ أم كلاهما واحد ، وأنا وحدي الذي أقول الصدق ؟

لقد عرفت معنى الخوف وفهمته ، إنه اليوم معجون مع الماء الذي نرتوي به كل ساعة ، خوفا من جفاف وتصحر يصيب الجسم في خريفه المتسابق نحو آخر الفصول .

هل أعيش في عالم ويعيش الآخرون في عالم آخر مختلف ؟ أم أن نفوس الناس تبلدت ، فأصبحت لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم ؟

أم أن سياسة الصمت هي أبلغ وأرشد السياسات ؟

عيون الوادي هائجة ، والطيور المهاجرة وهي تحج عندك كل مرة تعرف طريقها جيدا ، رحلاتها تتكرر ، ودروبها تحفظ عن ظهر قلب ،

إنها هي التي تتحرك تحت الأقدام الواهنة وليست الأقدام هي التي تتحرك عليها .

بعد هذا البوح ، نظراتك يا حبيبتي أراها ساهمة ، لكنها كافية لبعث الحنين ، وأنا أعود إليك طاهرا بلا ذنوب وبلا آثام ، سوى إثم واحد ، أنني رجعت إليك روحا نقية طاهرة ، بعد أن كانت روحا ملآى بالذنوب ، وأنت سبب كل الذنوب ، لأنك تركتني أفارقك كل هذا الزمن.



هاهــو كمال العطار لا يزال يملك غرفتين في مكان ما من المدينة ، رغم الأزمة السكنية التي يعاني منها الناس، لقد تصور وهو يدخل بيته أنه يملك المدينة كلها ، بفضائها وشوارعها العريضة وحاراتها الضيقة، ودروبها الحبلى بالكثير من الأسوار والخبايا والأساطير ، ويملك حتى جسورها المعلقة ، وقد تشابكت حبالها مع شرايين مخه ، فأثقلتها وأغنتها في آن واحد بإكسير الحياة المتجددة أبدا .

يملك بيتا بغرفتين يرجع إليه كل مرة ، وكأنه قطب الرحي في دوامة تحركاته الكثيرة والطويلة ، إنه لم يعد بيتا إنه اليوم أقرب الى المتحف الأثري ، لا تصل إليه يد الصيانة إلا فيما ندر ، الغبار أكل كل واجهة للأثاث العتيق المبعثر دون فن عبر أركانه ، وشوه الإهمال كل ألوانه ، ليجعلها لونا واحدا في رمادية غبار الأيام التي مرت على غربته .

وتحركت يده تلمس بحنان ، مجموعة من الاسطوانات القديمة النادرة ، « محمد الكرد » « الشيخ ريمون » « داليدا » « جاك برل » « محمد عبد الوهاب » إنها أسطوانات لم تعد صالحة لآجهزة الموسيقى الجديدة ، وحبات الغبار شرخت جزئياتها الدقيقة .

وتذكر ولعه بالموسيقى ، الموسيقى هذا اللسان الناطق لأكثر من لغة ، ورث هذا الولع عن أمه « عتيقة » ، فليس أحب الى نفسه أن يصغي الى أمـــه ، وهي تدندن قصائد « المالوف » كل مرة ، كان ينبهر بها وبالموسيقى ، وشب على ذلك وبرع في استعمال آلة الكمنجة مع رفيقه « مراد » أحب كل أنواع الموسيقى فيما بعد ، ولكن « المالوف » يأتي في صدارة ما يحب ، إنه يشعر وهو يستمع لقطعة من « المالوف » ، وكأنه أصبح ملاحا بجناحين يحلق ويحلق في عالم من المتعة واللذة ، وأن كل العالم ملك يديه ، وأن كل القضايا مهما كبرت تصبح تافهة ، وليست ذات بال ، وهـــو الى اليوم لا يزال كذلك ، يقتني كل جديد وقديم من طبع « المالوف » في مكتبته الموسيقية ..

في الماضي كان كمال العطار يتصور بيته هذا أجمل البيوت ، وأنظفها ، واليوم لا يدري لماذا يجده أشبه بوكر لا يليق برجل محترم مثله، رجل زادته الشعيرات الفضية التي تلون شعره وقارا وهيبة ، وأضفى عليه دوره في الحياة كإطار سام في دواليب الدولة غموضا لا هو بمشاعر الفخر ولا هو بمشاعر الخوف ، كم سمع وردد واقتنع أن المسؤولية تكليف

واعتبرت تشريفا ، إنه يراها اليوم خوفا ورهبة ، ليس بسبب عدم قيامه بدوره ، ولكن بسبب تجاوزات غيره .

كم من السنوات مرت عليه وهو هائم ، وكم من العمر قضاه بعيدا عن بيته الصغير داخل مدينة كان يعتقد أن ملكيتها تعود إليه وحده، إنه لا يدري سوى أن له بيتا يحج إليه كلما أحس بالحنين والحيرة ، ويشعر بالرغبة في التأمل والتوق الى امتلاك صك الغفران ، الغفران مما ذا ؟ ليس يدري ؟

في هذه المدينة كان له بيت كبير وأسرة رائعة ، لم يكن وحيدا ، كان له والد رائع ووالدة أروع ، وعائلة صغيرة وكبيرة ، وجيران وأصدقاء ، وأحبة ، عاش معهم طفولة عذبة مدللة ، وصبا جميلا آملا ، وصداقة لم تتحقق له فيما بعد أبدا ، ورغم كثرة من عرف من الناس اكتشف إن الصداقة الصحيحة عملة نادرة جدا .

وقتها زوجود وعمره لا يزيد عن العشرين ربيعا ، وفي رأيه هو أنه لم يتزوج ، لكنهم زوجوه ، زوجه والده ، ولم يكن ذلك غصبا عنه تماما، إن الإجبار لم يحصل وإلا لم يكن قد تزوج ، كان متفهما لرغبة والده المريض الذي يخاف أن يموت دون أن يرى ابنه مستقرا ، ويرى له حفيدا أو اثنين ، إنه لا يريد أن يتركه للزمن الصعب دون استقرار ، أو سند من شريكة ترعاه وتبني معه مستقبلا ، أولاد الحرام كثيرون ، وابنه كمال لا قدرة له على صد أهوال ومصاعب الزمن ، لقد رباه تربية خلقية

دينية بعيدا عن الحرام والفسق ، وحتى الشبهات ، إنه عندما فعل ذلك لم يكن يدري أن الذي ينشيء أبناءه خرفانا وسط غابة تسكنها الذئاب سيكون مصيرهم يوما غذاء للذئاب ، لكنه فعل ذلك وهو مطمئن أن الدنيا رغم كل ذلك ، لا تزال بخير ، مهما اشتدت أزماتها وكثر فيها الذئاب ، الخير دائما سينتصر على الشر ، هكذا أراد الله لخلقه .

زوجه والده ثم مات بعد عام ، دون أن يرى له لا استقرارا ولا حفيدا ولا نصف حفيد .

الفتاة التي زوجوها له ، ابنة عائلة كريمة من جيرانهم ، كانت جميلة رقيقة ، صغيرة على الزواج وعلى أي أمر آخر ، كانت كزهرة برية ملونة تقطر ندى وعطرا وخجلا ، اغتصبوا عمرها ومراحل طفولتها ، ليضعوها رهن شاب أكدوا له أنه سيحبها مع الأيام ، أما هي فحتما لا بد أن تحبه .

كمال العطار شاب وسيم مدلل ، وحيد أبويه ، لا إخوة له ولا أخوات ، وسيكون كل شيء له وملكه وهو الوحيد ، هدية من السماء لهذه الفتاة ابنة الجيران ، فكيف لا تحبه وتتمناه ، إن كل فتاة في سنها تتمنى شابا مثله ، إنه من العبث أن لا تفرح بهذه الهبة التي وهبها لها الله ، وحظها السعيد كذلك ، ولا بد أن للحظ دورا كبيرا وهاما في حياتنا .

لكن كمال العطار لم يكن يحبها ، رغم هذه المزايا التي تملكها ، ولم يكن ليرى شيئا من هذه المزايا ، وهذه الصفات المطلوبة في شريكة

الحياة ، لم يكن يرى فيها سوى أنها أخت صاحبه العزيز ، وبالتالي فهي أحته أيضا بتبعية الأشياء ومنطق الأمور .

ورغم ذلك لم يتزوج غصبا عنه ، إنه كان يتفهم جيدا رغبة والده، وإلحاح أمه ودعاءها له حتى لا يغضب أباه المريض ، وحتى لا يغادر الدنيا وهو غير راض عنه ، كارثة أن لا يرضى عنا آباؤنا ، إن ذلك معناه الندم طول الحياة .

لم يحبها لكنه كان يعيش معها ، وينام معها في سرير واحد ، ويتمتع بعناقها الى حد بلوغ درجة كبيرة من التلذذ والارتياح، لكنه لم يكن يحبها، كان يبدو بجانبها كقط أليف ، يرتاح ويتلذذ ويد حنون تربت على ظهره ، وتخربش عنقه، كان يهرب إليها من غول يسكن قلبه وذهنه ، جسمه فقط كان يشعر بذلك ويتحسسه حقيقة مفروضة ، أما قلبه فلم يكن لتكتمل خفقاته بهذا الشعور اللذيذ الممتع الذي يسمونه مشاعر بين قلبين وذوبانا بين جسدين .

ربما وهو يغمض عينيه في ظلام الغرفة ، كان يعتقد أنه في مكان آخر ، ومع فتاة أخرى ، لا تفارق قلبه وعقله ووجدانه ، لقد كان عاشقا الى درجة الهيام ، كان يحب فتاة أخرى تقطن أحد الأحياء اللصيقة بحيه « سيدي جليس » .

هل هي أجمل من هذه الفتاة ، التي اختارها له أبوه ، أو أعرق نسبا ؟ كلا ، لقد كانت فتاة عادية وأكبر منه سنا أيضا ، وكانت فوق

هذا وذاك يهودية ... نعم يهودية ... ورغم ذلك كان يراها أجمل الخلق جميعا وأعرق وأنبل الناس جميعا ، وكل ما فيها من عيوب أو محاسن يساوي كل محاسن الناس جميعا ، الحب صورها كذلك ، ولا اعتراض على سلطان القلوب .

لم يقل شيئا عندما فاجأه والده برغبته في أن يتزوج في حياته ، بل نظر الى أمه مستغيثا ، وهي تتأمل تقلصات وجهه ، منتظرة رد فعله عند سماع الخبر ، لم يقل شيئا ، نظرة أمه زادته حزنا وإصرارا على الصمت .

في بعض الحالات يصبح الصمت أبلغ حديث ، وأقدر على رد الفعل ، ماذا يفعل وماذا يقول ؟ هل يقول أنه يحب فتاة أخرى يهودية ، كلام غريب وخبر أكثر قسوة وإزعاجا وغرابة أيضا ، خبر سيقضي حتما على بقية الحياة التي تسرى في والده المريض .

* يهودية ، هكذا مرة واحدة ، إنك تقضي علي يابني، قبل الأجل..

تصور والده يقول ذلك ، وهو الرجل التقي الحافظ للقرآن ، المقيم لشعائر الدين ، والمحافظ على التقاليد ، والوطني المدافع عن الدين والعروبة ، بل إنه تصوره لا ينطق والى الأبد عندما يعلم أن أبنه الوحيد يحب يهودية ، تصور نفسه لحظة أنه اعترف بسره هذا ، وأن والده لفظ أنفاسه الأخيرة عندما سمع ذلك .

رجع بذاكرته ، وقد كان صبيا ، كان اليوم عيدا ، عيد الأضحى ، دخل البيت فوجد والده يرتب كومة ، بل جبلا من جلود أضحيات العيد ، وهي لا تزال ساخنة بدم الخرفان المذبوحة ، كانت كثيرة وقد جمعها من سكان الحي جميعا ، وكان يرتبها ويحسبها بعناية واهتمام كبيرين ، ليقول له كمال مندهشا :

* ماهذا يا أبي ، اشتريت كل هذه الجلود ولماذا ؟

ويضحك والده والعرق يتصبب من وجهه المشرق ويداه تعبثان بقايا آثار الذبح والسلخ :

* تريد أن تعرف يا كمال ؟ إنني أنفذ ما اتفقنا عليه في الإجتماع الذي عقدناه بجمعية ابن باديس ، جمع كل الجلود وبيعها لمصنع الجلود أو « الدباغة » وإرسال ريعها لإخواننا في فلسطين الذين احتل اليهود أرضهم ، يجب أن نفعل مع إخواننا العرب ، ما يفعله اليهود في الخارج مع إخوانهم ، ألا تراهم يفعلون ذلك بمختلف مستوياتهم ، الفقير منهم والغني ، تجار الذهب وتجار الخشب ، كلهم يفعلون ذلك بتضامن كبير ؟

ويأتي هو اليوم وينوي القضاء عليه بخبر حبه لليهودية ، هكذا مباشرة ، حب يجمع بين قلبين قلب مسلم ، وقلب يهودي ، فجأة هكذا دون حدود أو رسوم ، يبدو أن القلوب لا تعترف لا بالسياسة ولا بالدين ولا بالتاريخ .

كان كمال العطار وهو يتذكر ذلك يشعر وكأن خنجرا يغمد في قلبه ، بيده لا بيد والده ، بل بيد الناس جميعا ، وتذكر عندما دخل غرفته وجاءته والدته لتجس نبضه حول رغبة والده ، وجدته يبكي كطفل صغير فقد شيئا جميلا لا يمكن أن يعيش بدونه ،

قلب الأم دليلها على حال فلذة كبدها ، وجدته يبكي تماما كما كان وهو صغير ، لتحيطه بذراعيها وتذرف معه دمعا أحر من دمعه ، إن ولدها لا يبكي لو لم يكن هنالك سببا عظيما للبكاء ، إنه رجل عاقل وشجاع ، حتى وهو في هذه السن ، إنها تشبهه دائما بوالدها ، في رزانته وإرادته وحتى شكله .

* قل يا ولدي ما الذي يجعلك تحزن هكذا ، وأبوك لا يريد لك سوى الخير ؟

وتكرر السؤال بمختلف الأشكال ، لكن بحنان ورقة ، إنها تريد أن تعرف ، بل تريد أن يتنفس معها ، أن يفصح عما في نفسه ، لقد خافت عليه ، وهو وحيدها ، من الكمد والشجن واليأس .

ويقرر أن يجيبها، أن يقول الحقيقة ، وليكن ما يكون، ليفرغ ما بصدره ، هذا السر الخطير ، هذا الإثـــم القادم معه ، هذه الحقيقة المروعة.

* يهـــودية يا كمـــال ، ما الذي أصاب الدنيا ، ولماذا تختارني هذه المصيبة دون الأمهات جميعا ؟ إنها عين حاقدة حاسدة ، والله العظيم...

يهودية ؟ ولماذا لم تحب كل النساء جميعا ، وتنسى هذه اليهودية ؟ ولماذا لم تحب ...

وتسكت ثم تضيف :

* نصرانية ولا يهودية ، إن اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز ، أعداؤنا وأعداء نبينا وديننا منذ الأزل ، والى أبد الآبدين ، ما الذي تريد أن تفعله بوالدك يا كمال ، أبوك وطني مكافح من أجل حرية الجزائر وفلسطين ، ويحز في نفسه اليوم أن تنسى ذلك ، حتما تريد أن تقضي عليه قبل الأوان ، يهودية هكذا مرة واحدة ، ولماذا ينفذ السهم في قلب ولدي دون غيره من الشباب ، لماذا يارب ؟

تقول أنك تحبها ... متى وكيف ، وأين ؟

وتبكي أمه كما لم تبك في يوم من الأيام ...

ولا يجيب ، يسكت دهرا بعد أن نطق كفرا ، لا يجيب ، وبم يجيب إنها الحقيقة التي عاشها منذ أكثر من عامين ، وكتمها كجمرة قابض عليها بقلبه .

***

* **مدينتي** ، نظراتك لي وأنا أنزل على أعتابك كانت ساهمة ، لكنها كانت كافية لإشعال الحنين الخامد . لقد شعرت فجأة بالبرد والجفاف ، أتعرفين لماذا ؟

أنا أيضا لا أعرف لماذا وكيف ؟ لكنني عادة عندما أحس بذلك أحاول أن أحضنك الى صدري حلما حيا أبدا . أحضنك مع أوراقي فيسرى الدفء في وفيك ، فأحتار أيهما يدفئني حلمك أم أوراقي المبعثرة.

لعلهما معا، حلمك وأوراقي هي هذه المساحات الدافئة من الحب، والتي تجعل من الحلم حقيقة حية كل مرة ، رغم محاولات الإجهاض التي مورست ضده ، وإلا لماذا يعود حلمي معك هكذا ملحاحا جريئا جسورا كل مرة أكثر ؟ أنت حلم الليلة الأولى والليلة ما بعد

الآلام، وشهرزاد هي القلب الشغوف بالحكي والسرد ، وهي أيضا زمن الاسطار وليس شهريار ..

* لكنك أنت الوحيد ، الذي يمسك بخيوط القصة ، وخيوط الليل والصباح ، وهمسات الكلام المباح .

* الفضل لجسورك وهي تستجديني لتربط خطواتي مع الطريق ، لكنها قبل ذلك قد ربطت الأفكار والأماني العذبة ، رغم مظهرها الخطير.

* ألق بنفسك من شامخ الصخور ، وارتطم بأشلائك كالأحجار الرقاء على ضفتي النهر البارد ، فإنك ستبقى دائما ماردا في قلب الدنيا وماردا خارج القلب ، ستبسط الأفكار ذراعيها ، فتتلقفك وتنقذك من الضياع ، إن جسوري أفكار ومعاهدات بين هذا الزمن والأزمنة الغابرة والقادمة .

تشجع أيها المتسرب من خيوط الغربة وقيود الضياع، حاول أن تجمع أشلاءك المبعثرة ، وتكون أنت كما لم تكن في يوم من الأيام ، لاتنس أن دماء الذين راحوا وتركوك سيفتح يوما ما طريقا أخضر أمامك وأمام الآخرين ، إن الزمن الأخضر ينبت من أزمنة أخرى ملونة ، لونا أخضر مورقا حيا مليئا بالحياة والأمل .

آن الأوان أن تعود أنت وليس غير أنت ، إنك لا مثيل لك في الآخرين ، أنت فذ في الضياع والأفق الغريب .

رتب أوراقك من جديد ، واستعن بما مر عليك من آلام ، وأبدأ بمصالحة نفسك ، إن نفسك هي عدو نفسك حقق المعادلة التي عشت تسعى إليها ، وارم حملك على الله ، إنه المقدر والمسير ، لأنك لا يمكن أن تكون شيئا في حسبة الأيام ، أنت رقم لا صفر قبله ، ولا صفر بعده ، رقم لا قيمة له دون إضافات .

أعرف قدر نفسك ، ولا تترك الجنون يفرخ في أوكار ذهنك المتعب ، لا تترك للعتاب فرصة لافتراسك ، أصمد مع رأيك إنه الطريق الى الخروج من نفق الشك الى براح اليقين .

***

راشيل الفتاة اليهودية ، كان كمال قد قابلها يوما في أحد الشوارع أمام أحد دكاكين صاغة الذهـــب الكثيرين ، في « رحبة الصوف » بالمدينة، كان ينظر الى واجهة أحد المحلات ، وقد تزينت بأجمل قطع الحلي الذهبية المصنوعة محليا بذوق وإتقان ، كان يتأمل الجواهر والحلي خلف الزجاج ، ليبرز له فجأة وجهها بين كل ذلك ، كان وجها باسما كلّه ، وقد كانت تتأمله لتقول له بعد لحظات وبحياء كبير :

* أنا في خدمتك سيدي هل أستطيع مساعدتك ؟

يتلعثم ويحرج ، وكأنها لا تقول جملتها إلا له وحده ، يصمت ويحمر وجهه الوسيم ، ولا ينطق إلا بابتسامة خجلى.

فتعيد السؤال وهي تفتح له باب المحل ليدخل مرتبكا ذاهلا عما حوله . ما هذا الذي يحصل له ؟ كان وكأنه يقف قبالة امرأة لأول مرة في حياته ، مثل هذه المرأة نعم ... إنه لأول مرة يحصل له ما حصل ، وتمر عليه لحظات كدهر يجمع فيها نفسه ، لينطلق أخيرا بأدب :

* إنه عيد ميلاد أمي ، وأريد أن أقدم لها هدية لائقة.

ولا تكف عن الابتسام ، وكأنها خبيرة في التصرف بمثل هذه الحالات ، وتضع أمامه أجمل القطع الذهبية ، قائلة :

* إننا لا نبيع إلا الجميل اللائق من الحلي ، وما عليك إلا أن تختار ما يناسبك ، صنعتنا في المدينة لا تضاهيها صنعة .

لم يكن يرى إلا البريق الأصفر اللماع أمامه ، ولم يكن ليميز بين القطع الكثيرة المعروضة أمامه ، وبين شعرها الذهبي المسدل سبائك على كتفيها ، كان فقط يريد أن يرفع عينيه من جديد ، ليرى هذه الحلاوة وهذا الوجه الضاحك كله ، العينين والفم والأسنان والوجنتين والشعر ، كل شيء كان يبتسم ، كان ربيعا آخاذا اختصر في وجه امرأة .

* ما هذا يارب ، هل يمكن أن يحصل ويجتمع كل هذا الجمال في وجه واحد ؟

تساءل في نفسه ، ثم تجرأ ورفع عينيه من جديد ليرى أن سؤاله في غير محله ، نعم في غير محله ، ومن أكثر من الصاغة اليهود في هذه المدينة

أقدر على تشكيل التحف الفنية من خلال السائل الذهبي الثمين ، معبودهم المقدس منذ العجل الذهبي أو بقرتهم الصفراء الفاقع لونها ؟

إن هناك من الناس من يمكن أن يتوفر في وجوههم كل ذلك ، كما أن هناك من الناس من لا يتوفر في وجوههم سوى العبوس والتقطيب وغضب الطبيعة كلها ، أو لا شيء البتة ، سحنات بدون محتوى ، وجه ربيع ، ووجه شتاء ، ووجود بين هذا وذاك ، بدون معنى ولا عنوان ولا هوية .

كانت تتكلم ، ولم يكن يسمع شيئا ، أذناه أعطت كل طاقتهما للعينين ، فأصبحت العينان تريان أربع مرات عوض مرتين ، قوة النظر تضاعفت عنده ، فزادت الدهشة وزاد الارتباك .

كان والدها هو صاحب المحل ، وكانت هي تنوب عنه ، ذلك اليوم من حسن حظه أو سوء حظه ، وأخيرا سمع ما كانت تقول :

* لعلني أستطيع مساعدتك ، واختار لها بدلا عنك ، إن النساء أعرف بأذواق النساء ، هل تسمح ؟

وتسيح الخطوات في لحظة ما عبر الشارع الطويل ، وتسمع من خطواته دقات قلبه ، تختلط الدقات مع الخطوات، مع شيء آخر جديد كل الجدة ، أصبح كله ، دقات أجراس ، جسمه ، وروحه ، وأشياء أخرى فيه لا يكاد يميزها ، كانت تتحرك ، تدق ، تصيح ، تهمس .

ويزداد الضجيج داخله ، وعيون الناس تبحلق يمينا وشمالا ، وأمامه ووراءه ، لكنه لا يرى شيئا أو لا يهتم بشيء من كل ذلك ، إنه يعيش لحظات خاصة الآن ، خاصة جدا جدا .

* لا تقلق إنهم لا يعيشون لحظاتك ، فلهم أيضا لحظاتهم التي لا تدري عنها شيئا ، اطمئن ولا تخف ، وامض في طريقك ، أين هو البحر حتى تلقي فيه روحك وجسدك لتطفيء هذا الوجيب وهذه النار التي تلفك مع المكان والزمان منصهرين في وجه باسم .

ومع الأيام أصبح مفتونا براشيل ، ومفتونا بنفسه لأنه منح فرصة اللقاء بها ، وبقدر ما أحس بالسعادة ، بقدر ما أحس أنه في ورطة كبيرة معها ، وأنه يرتكب أكبر الذنوب جميعا ، كما أحس أنه قادر على حب كل من تحب وكل ما تحب ، الدنيا كلها بجمالها وبشاعتها وخيرها وشرها أصبحت فتاة ليس أية فتاة ، فتاة يهودية .

هل هي الملاك الذي قرأ عنه في أساطير الأولين وأحلام الآخرين ؟ هل هي بشر مثله ومثل أمه ، وكل البنات اللائي عرف ؟ هل هي شيء آخر تماما يختلف عما سبق وعرف ورأى وعاش ؟

من ذا الذي يستطيع الإجابة عن هذا كله ؟ لا إجابات، فلا تتعب نفسك ...

* تيقن أيها الهارب من النار الى النار ، أن الإجابة الوحيدة هي ما تشعر به الآن ، ما تحس به ولا يحس به غيرك ، شعورك الجارف هو الذي

جعلها في عينيك تختلف وتسمو عن الأخريات ، كل شيء تفكر فيه جاء مما تشعر به ، إن نفسك هي التي تملي على نفسك ، وروحك هي التي تعكس أمامك كل ذلك .

ويولد الفجر من ليلة ، ليست بليلة ، إنها الفجر الممتد في الليل والنهار ، ليكتشف مع الأيام أنه فعلا قد أصيب بداء الحب ، ممزوج بالبريق الأصفر والوجه الباسم الذي اختصر الربيع .

قالت له أمه وهو يقدم لها الهدية :

* إنها جميلة جدا يا كمال ، إن لك ذوقا رائعا مثل أمك ، لعلها ثمينة جدا وأرفع من إمكانياتك ؟

* لعلها أثمن قطعة صادفت في حياتي ، إنني لم اشترها ، هي التي ملكتني ، إننى لم أدفع فيها سوى كل نبضات قلبي الصغير ، الحب هو أن يكون هنالك شخصا في العالم يحمل المفتاح لوجودك كله .

قال ذلك في نفسه وهو يحضن أمه قائلا بحنان :

* إنك أغلى من في الأرض يا أمي ، لو كنت قادرا لأهديتك اجمل وأحسن ما في هذه الدنيا .

أي حلم هذا الذي تعيشه اليوم يا كمال ؟ تنفرد به سرا وعلانية ، وكأنك ملكت الدنيا وما فيها ، وأنت في الحقيقة تخسر كل شيء ، راحة البال ، وحرية القرار في الحركة ، والنوم والتفكير ، إنك اليوم لا تمشي في كل الشوارع ، شارع واحد اختزل كل الشوارع ، ومحل واحد ،

اختفت أمامه كل المحالات، وقرار وحيد تتخذه كلما أصبح الصباح أن ترى هذا الوجه الباسم ، وفكرة واحدة تملك عقلك كله ، كيف العمل لتفسير وتبرير كل ذلك لوالديك ؟

قالت أمه وهي تذرف معه دموعا حارقة :

* اعتبر نفسك مريضا يا كمال ، إن مثل هذا الحب المستحيل مرض وداء يجب أن تشفي منه ، وبأي شكل من الأشكال ، ومن الغد سأذهب الى « الطالب » جارنا القديم بالبطحاء ، إنه الوحيد الذي نجد عنده علاجا شافيا من هذا المرض ، لقد برهن على ذلك في الكثير من الحالات .

كانت تتكلم باعتقاد راسخ ، إن ما حصل لأبنها كمال، إنما هو علة من العلل ، التي لها علاجها عند « الطالب » حرز واحد مكتوب بدقة ونية ، من شأنه أن يزيل هذه العلة.

استمع إليها كمال وهو يبتسم بين دموعه ، بسمة كانت تحمل اليأس كله ، والاستسلام كله ، والعذاب كله ، ثم همس :

* أين « أبقراط » الجديد لينقذ علوم الطب من السحر والشعوذة؟

قد يكون مجنون ليلى الجديد ، وقد يموت مثل ذلك المجنون أو غيره من مجانين الحب ، وسيحرم منه لأن والديه يريدان ذلك ، والدين يريد ذلك ، والتقاليد تريد ذلك ، وما أهون تضحية عاشق في سبيل كل

ذلك ، إنه لا يرفض التضحية لكن كيف له ذلك ؟ وهل يقدر ؟ الموت اهون عليه من أن يفارق هذا الملاك الجميل ؟ والذي يصبح عند والديه، وحق عند المجتمع غير ملاك البتة ، لأنه يدين بديانة ليست ديانة آبائه وأجداده .

* ولكن ما المانع أن يتزوجها إذا هي أسلمت ؟

هكذا قال خاله لأمه ، لكن الأم ترد بنفي قاطع :

* وهل يسلم اليهود حقيقة ، إنهم أهل النفاق منذ سيدنا موسى وعيسى والأنبياء جميعا .

* ولكنها يا أمي لا ذنب لها في كل ذلك ، إنها فتاة لا حول لها ولا قوة ، وليس ذنبها أنها ولدت من والدين يهوديين .

قال ذلك ، وهو يحاول مستميتا دون فائدة ، لكن والدته تصيح بالسة :

* الذنب ليس ذنبها ، بل ذنبك أنت وقد تركت مشاعرك تخطيء الطريق والاختيار .

وفي نفسه يتساءل بأسى :

* وهل ذلك بأيدينا يا أمي ، هل بإرادتنا نختار الطريق ، ونختار من نحب ، إنه داء ، كما كنت دائما تقولين ، اعتبريني مريضا ، حاولي أن تقتلعي قلبي من أحشائي ، لعلني أبرأ وأعود سليما كما كنت .

وفكر في الهرب ، الهرب معها ، والهجرة الى فرنسا، حيث له عم مهاجر من ثلاثين سنة ، هكذا قال والده عن عمه معاتبا ، لأنه لا يزورهم إلا نادرا ، مرة واحدة زارهم هذا العم ، وقد كان كمال صغيرا، كانت معه زوجته « جيزيل » الفرنسية وولداه منها ، حكيم وكريم ، ولدان لم يرثا من والدهما أية ملامح ، وكأنهما ولدي زوجته وحدها ، يومها قال أبوه وهو الأخ الأكبر :

* والنهاية يا محمد، ألم تفكر في العودة الى الوطن ؟ غربتك طالت، ونحن ليس لنا إلا بعضنا ، إنك عائلتي كلها يا محمد ، ثم كيف تستطيع العيش غريبا طول حياتك ، إنك مهما فعلت أجنبي في بلاد الناس، وكلهم ينظرون إليك كأجنبي ، حتى لو عمرت معهم ...

ليطرق العم برأسه وهو يردد :

* وماذا سأفعل هنا يا أخي ؟ وأنا هنالك مستقر وعامل ، ومدرسة أولادي هناك وحياتهم التي تعودوها ، هناك على الأقل ، أبدو مواطنا وأنا متزوج ابنتهم ، وليس ربع مواطن ، أو لاشيء البتة هنا أو هناك ، لقد تعودت الغربة حتى وأنا أكرهها وأكره نفسي معها .

هناك مشاكل تحل نفسها بنفسها، هاهو عمي الوحيد يفعل ما فعل ، وكأن الظروف من حوله هي التي تفعل ذلك، وليس هو ولا قراراته ولا نواياه .

* فهل أفعل مثله ؟

لقد كانت إجابة صاحبته راشيل بالنفي القاطع ، إنها لا تريد أن تفارق أهلها ، والحدث في رأيها لا قيمة له ، حتى تفعل من أجله ذلك . إنها إجابة أخرى أضافها كمال لإجابات صاحبته حبيبته ، والتي تشكل له كل مرة حقيقة مرة ، لا يجرؤ على البوح بها حتى لنفسه ، إنها إذن لا تحبه بنفس القدر الذي يحبها هو ، إن حبها له نوع من التسلية واللهو والإعجاب ، يمكن أن ينتقل يوما ، الى شخص آخر ، لو وجدت الفرصة الأكثر ملاءمة ومصلحة ، وأصابه رعب كبير من الفكرة .



المنزل والمدينة والأرض والزمن ، الذي كانت فيه مرة دمية صغيرة ولعبة جميلة عذبة . تنتظر صاحبها حتى لا يسرقها آخر ، لكن اللصوص لا تهمهم هذه اللعبة بالذات رغم أنهم لصوص ، إنها لعبة محرمة عليهم ليس في الدين لكن هكذا محرمة وكفى ، لعبة عندما يلمسونها يمسخهم الرب الى أصنام فيجمدون ، أو يطير بهم عزرائيل الى ويل جهنم وجحيم الفجار ، قبل موعد الجحيم .

سلالم المدينة المبنية بالحجر الأزرق المستقيمة حينا ، والمنحنية المتكسرة حينا آخر ، توصله الى أسفل « السويقة » لينحدر بسرعة ، وكأن قوة خفية تدفعه دفعا الى الأسفل ، وتزحلقه دون إرادة منه .

إنه لا يرى من السلالم اليوم سوى ما حفظه لها في خياله من عز أيامها ، عندما كانت تخفي كل شيء ، الحب والسر والمواعيد العاطفية ، وشرطة « صالح باي » بلباسها المزركش المهيب ، تجوب الحواري طولا وعرضا ، تحفظ الأمن ، وتغض الطرف عن التجاوزات والإختلالات والإزعاجات ، و تسير البؤس الجنسي والكبت العاطفي .

أليست هذه هي الحياة ، نسيج ملون مشكل من مختلف الألوان والمشاعر والخطوط عبر الأزمنة .

ووصل الى أحد الدروب الضيقة ، زقاق لا مخرج له، الداخل إليه حبيس جدار جبلي « باب الجابية » إنه الباب الذي كان محرما عليه وعلى رفاقه أبدا ، من بين أبواب المدينة السبعة ، حتى ذكره بين الشفاه كان محرما ... وتحرقهم الأسئلة وهم صغار ، ليعرفوا أنه درب للدعارة المنظمة المقننة ، ولعلهم يكتفون وهم صغار بهذه الإجابة ، لكنهم لم يكتفوا بل قرروا مرة أن يتسللوا إليه دون أن يراهم أحد من الكبار... ورأوا الكثير من المناظر الفاتنة ، التي كانت تفتن خيالهم الصغير ، فقط دون أن تجرؤ على الظهور ... ولا الحديث عنها ، الجنس وعالمه الغريب.

نساء عرايا...إلا من الخفيف من اللباس ، وابتسامات خالية من كل الهموم، أو أنها تحارب كل الهموم ، وتتخلص من كل القيود ، يهوديات ونصرانيات ومسلمات ، والدخان ينطلق من لفافات تبغ لا تفارق الشفاه ، رأوا كل ما كان يعتبر محرما... وتراهم إحداهن فتبتسم

مشفقة وحنان في نظرتها ، لا يمكن تفسيره ... لعلها فقدت شبيها لهم الى الأبد ، يعيش مع والده الذي ربما كان سببا في الوضع الذي هي فيه .

وعندما سمع والده يقول أن أحد جيرانهم تزوج مومسا لم يرفع رأسه خجلا ، لكن والده كان يحكي رأي الناس في ذلك ، ففيهم من قال أنها تابت وللرجل ثواب إنقاذها ، وفيهم من قال إن كلاهما زان ومآلهما جهنم ...

لكن كمال يومها لم يتخذ موقفا لا مع نفسه ولا مع رأي الناس ، لقد كان ممزقا بين الرأيين ، وهو يدرك أن هنالك حتما آراء أخرى في المسألة .

صغير أنت على كل هذه الأفكار ، لماذا لا تفكر في نفسك فقط، همومك وحبك الذي دخل خانة المحرمات قبل أن يبدأ ، ولعبتك الذهبية التي لا يطمع فيها اللصوص ، رغم أنهم لصوص ، لأنها تدخلهم الجحيم قبل الميعاد ؟ .

ماذا ستفعل ، وكيف تتصرف وأنت لا قدرة لك على إغضاب والديك ، أو حتى أهلك وجيرانك ؟ .

ورغم ذلك تساءل :

* لماذا يخلطون بين الأمور هكذا ، ألسنا بشرا بقلوب وعقول ، قبل أن تصنفنا الوراثة الى شعوب وعقائد وقناعات ؟ .

وقفز ذهنه عائدا للحاضر ، لليوم ، ولأحداث اليوم الساخنة ، ليصدمه ذلك الجدار الكبير العالي السميك ، والذي أسس تاريخا وثقافة وسياسة ، بل أنه يبني كل يوم بالأحجار غير الكريمة ، فيقسم الوطن الفلسطيني الواحد الى بؤر بئيسة مبعثرة ، لا هي بالمجمعات ولا بالزنزانات، ولا الذين هم فيها من صنف البشر .

إنها ليست أرضا هاته التي يضحكون بها على ذقون العرب ، ويدعون أنهم سيهبونها لهم مقابل السلام ، إنها ملاجيء وجحور وتعاسات تدعى كل مرة أنها زعامات ، وفي المقابل هنالك تلك الحجارة المقدسة الكريمة ، و« محمد الدرة » ورفاقه من أبناء الأرض السليبة ، وبشر لا يقدر أحد أن ينزع عنهم الزعامة الحقيقية، ولا صفة الحرية والانسانية، وقد رضعوا النضال والتضحية مع المياه الكدرة لمخيمات اللاجئين عبر الشتات.

وتعود به الذاكرة من جديد الى الماضي ، وما كان وقتها يردد لنفسه :

* هذا مسلم ، وهذا يهودي ، وهذا مسيحي ، وهذا بوذي ، وهذا لا هذا وذاك ، ما شأني أنا والدين ، ثم ما دخلي أنا في أنها يهودية وقومها قد سرقوا قومي في المشرق أرضهم ؟

وما دخلي أنا وما دخلها هي في كل ذلك ؟ لماذا يخلطون الحب بالسياسة ، والإنسانية بالعداوات التاريخية ، أليسوا جيرانا لنا منذ الأزل ،

يأكلون مثلنا ، ويلبسون مثلنا، ويعيشون كما نعيش ، بل معنا يفرحون لأفراحنا ويحزنون لأحزاننا ؟

وتذكر يوم حفل ختانه، وهو وحيد والديه، عندما أحي الحفل أحد أشهر الموسيقيين في المدينة « الشيخ ريمون » اليهودي ، جارهم في حي « سيدي جليس » ، وكم لعب الأطفال مع بعضهم ، دون أي تمييز بين أطفال المسلمين وأطفال اليهود .

حضور فرقة « الشيخ ريمون » تكلف غاليا ، ولكن لا مناص من التعبير عن الفرح الكبير بختان طفل وحيد لوالديه ، كان يلبس يومها قفطانا أحمر مطرزا بخيوط من ذهب ، وعلى رأسه طربوش من نفس اللون والتطريز ، وفي قدميه الصغيرتين نعل من نفس اللون والتطريز .

وعندما نزعوا تلك الجلدة الزائدة منه ذهبوا بها في إناء واسع من النحاس يحوي ترابا ، والبنات يغنين :

« طهر يا المعلم طهر لا تخاف * لا توجع وليدي من تحت اللحاف »

وكان « ريمون » شيخ الموسيقيين بالمدينة يرتدي نفس اللباس ، ويعزف مقطوعات « المالوف » الأندلسية ، وبكمانه يقود كل أفراد الفرقة في عالم اللحن الفذ الفريد ، ويبقى « الشيخ ريمون » حبيبا الى قلوب أهل المدينة ، الى أن يختار معسكر العدو ضد جيرانه وأحبابه ، وهم في كفاحهم من أجل الحرية ، يختار خيانة أهله وجيرانه ليتسلح مع المتسلحين في الذكرى الثامنة لزرع إسرائيل في فلسطين، ويلطخ يديه

بدماء أكثر من مئة من جيرانه وأحبابه في المدينة ، ليقتل هو بعد ذلك بيد مراد أحد رفاق كمال ، كما يقتل كل خائن للوطن ، حتى لو كان عربيا مسلما ، لتنتقم له بسرعة الإدارة الاستعمارية بخطف واغتيال مجموعة من المناضلين المثقفين ، من بينهم الكاتب الكبير «أحمد رضا حوحو» .

هكذا هم اليهود ، الخيانة من طبائعهم ... فليكن ، لكن ما ذنب حبيبته الرقيقة ، وبين ما يقترفه اليهود هنا أو هنالك مع قومه في المشرق من جرائم بشعة ضد الأطفال والنساء والشيوخ ؟

لقد قال له خاله :

* أن كل يهودي في المدينة يدفع ضريبة أو مساهمة مالية لدولته هنالك في فلسطين ، دون أن يذهب الى هناك أو حتى يعرفها ، بل إن كل يهودي في العالم يفعل ذلك من أجل بناء دولة إسرائيل الكبرى .

* ومالي أنا وحبيبتي ودولة إسرائيل الكبرى ؟

ويجيب خاله :

* إنهم استولوا على أرضنا المقدسة ، وهي أرض العرب ، وهجروا أهلها وطردوهم ، ونحن عندما نحبهم نكون قد خنا إخواننا العرب ، إنهم أعداء البشرية كلها بدءا من صلبهم للسيد المسيح عليه السلام .

إننا لا نكرههم هكذا ، فهم الذين سبقونا بالكره والحقد والعداء، أبغضوا نبينا ، وقللوا من شأن ديننا ، إنهم قوم أصابهم الغرور ، يحسبون أنفسهم فعلا ، خير أمة أخرجت للناس ، إن ذلك خطأ تاريخي كبير .

وهنا عندنا في المدينة والوطن كله أخلفوا عهودهم معنا ، وخانونا وتواطأوا ضدنا مع المستعمر ، رغم رعايتنا وحمايتنا لهم عبر القرون .

وهل يمكن الفصل بين المواقف السياسية وإنسانية الإنسان ، لقد اشتغل اليهود سماسرة وتراجمة للاحتلال ، واغتنموا فرصة هذا التحول ، من عهد الى عهد آخر ، فأثروا ثراء فاحشا ، وراحوا يضغطون بوسائلهم الربوية الفضيعة على الأهالي ، تمهيدا للاستيلاء على أراضيهم وعقاراتهم ، الى أن حصلوا في شهر اكتوبر 1870 ، على قانون « كريميو » ليظهروا عداءهم السافر للعرب ومحاربتهم لهم جهرا وعلانية .

وتذكر كمال ما كان يروي له والده عن الصحفي الثائر « عمر راسم » وهو في سجنه بالزنزانة الأربعين ، عام 1916 ، حين قال :

* « إن يهود أمريكا ، يحسون بما يحس به يهود روسيا ، فلا حركة تقع في العالم من صحو وشتاء أو حرب وسلم إلا ولها صانعون...»

ويتساءل كمال يائسا :

* هل العرب وإسرائيل هما قابيل وهابيل العصر الحديث ؟

***

افعل شيئا ، احتج ، أغضب ، لا تترك غضبك سجين صدرك ، **صح** بأعلى صوتك :

* إنها حياتي ، إنها حريتي ، افعل بها ما أريد ، دعوني أتمرد ، أثور، أفعل ما أشاء ، لا تقيدوني بالتاريخ والأسلاف ولا بما سيأتي به الغد .

* هكذا سافر نحو الغضب ، نحو الثورة على كل شيء ، اخطفها وأرحل الى أرض أخرى ، لا تهتم بشيء من كل ذلك ، وإذا لم تقدر على ذلك ، أغضب ، اغضب لحد التقيؤ ، اغضب لحد الإغماء .

ويجيب نفسه :

* وكيف أرحل من نفسي ، ومن والدي ، وأهلي جميعا ؟

ويصل الى أسفل القصبة، بينه وبين « وادي الرمال » الهادر مسافة قصيرة، يسمع للوادي هدير صاخب، إنه النهر لا يبالي ، لأنه لا يعلم شيئا ، ولا يتقيد بشيء ، وليس ملزما بشيء .

* ليتني كنت نهرا ...

* ولكنك كذلك ...

يجيبه الوادي ، آه لو ينصحه ، لو يشير عليه ما الذي يفعله ، إنه لا يسمع سوى هدير نفسه ، وصخب حجارته ، وهول البشر حوله في هذه المدينة العجوز ، وقد انغرزت أقدامها في الحضارات البائدة ، وتعملق قوامها الى السماء ، تزرع كل ليلة باقة من النجوم ، لتأفل ، وتعيد الكرة كل مرة دون كلل أو ملل .

ويعود القهقري صاعدا السلالم والدرج في التواءاته الثعبانية ، ليأخذ سمعه خلف أحد الأبواب القديمة ، نقر على الكمان وآلات موسيقية أخرى ، يميزها ناي يسيل دموعا ، ودندنات وآهات وآنات .

يقف ليسترق السمع ، عله يفهم ، فينسى للحظات همومه ، عبر إيقاعات لأحدى روائع « المالوف » أغـــــنية « الصباغ » ، تلك الحكاية الأسطورة التي تعجب أمه وجاراتها ، حكاية الحب والخيانة والانفلات من ربقة الضمير والعقل والقهر الاجتماعي ، حكاية التاجر الذي ائتمن خادمه على ماله وعرضه وهو قاصد الحج ، فيغتنم الخادم هذا الائتمان ويحقق أمنية حياته في لقاء غرام مع زوجة سيده ، أمنية صنعها حب

مشترك بين الخادم وسيدته الصغيرة ، التي كان يرى كل مرة منها تشجيها بلفتة أو نظرة ، وهو يدخل بيت سيده كخادم أو كآخر شخص يمكن أن يتحرا أو يخون ، ولا يكتفي بذلك بل يصف هذا اللقاء الغرامي بتفاصيله العارية ، في قصيدة يتغنى بها بعد ذلك ، في كل المناسبات كأروع ما قيل في وصف الجمال الجسدي للمرأة والخيانة والعبث .

حال هذه القصة تشبه حاله قبل أن تبدأ ، إنهم لا يريدونها أن تبدأ، يجب أن توءد قبل أن تولد .

وتذكر « جلال الدين الرومي » وهو يمزج الموسيقى بالتصوف .

إن الموسيقى تفتح للبشر أبواب الجنة .

يشعر كمال بالرجال داخل ما يسمى بـــ « فندق بن عزوز » بحي « سيدي عبد المومن » والذي ينتهى الى «الرميس» وادي الرمال ، كان الرجال يجلسون حلقة حول نغم من « الكمنجة» و« الناغرات» ونفس من أنفاس « الكيف» وهو يأخذ بصحوة عقولهم نحو الارتخاء والهدوء والراحة ، يسعون للهروب، للنسيان، للرحيل عن واقعهم، ومافيه من أشواك وعسر، تأخذهم الأنفاس الى النشوة، الى « النيرفانا» الى الراحة الأبدية، دون التعرض للموت الحقيقي ، عبر مراحل ودرجات من الأحاسيس والمشاعر ، وأحلام اليقظة تسافر بهم بعيدا عن التوتر والقلق والإحساس الدائم بالظلم والقهر .

عملية هروب مخططة بدأت مع الأزل ولا تنتهى الى الأبد ، هاهو كمال يراهم بقلبه وإحساسه ، وراء باب مغلق يشكل جدارا بينهم وبين العالم الخارجي ، يحس بهم ويكاد يعرف عددهم من أصواتهم وتعليقاتهم الفلسفية حول الحياة وما في الحياة، وكل واحد منهم يمثل حالة لا تشبه الأخرى، حالات تحكي نماذج من الناس، هربوا بهمومهم من الواقع الى الهذيان ، وما أسهل الهروب من الهموم .

الهموم كثيرة ، الحب ، الخيانة ، الفقر ، الغدر ، الظلم ، الى آخر ذلك من هموم الانسانية ، التي لا تصمد معها الإرادات ، أليس الانسان بشرا ضعيفا ؟ يهربون الى النفس الأحمر والنغم الشجي والشعور بالحرية المطلقة ، التي لا ترسمها حدود أو سدود أو متاريس معنوية قبل أن تكون مادية .

هاهم يغرقون في الراحة بعد أن تلاشت مع « القعدة » كل أمورهم الأخرى ، ذابت واضمحلت ، وصغرت الى حين ، بعد أن كانت كبيرة عاتية كالجبال تهد معنوياتهم وتدمر إرادتهم وتكبس على صدورهم .

حلان لا ثالث لهما لهذه النوعية من الهموم ، إما الانتحار من أعلى جسر بالمدينة المعلقة ، أو الغرق في عالم النغم والنفس الأحمر .

* إن ذلك ليس حراما ، إنه ليس خمرا ، وليس من المسكرات ...

هكذا قال لهم أحد المشائخ في « جامع سيدي عبد المومن » استطاع الشيخ أن يفتي ، في ما يسكر وما لا يسكر ، غافلا عن أن الأمر اخطر على العقل والروح من لفظة حلال أو حرام .

ويتذكر كمال « جامع سيدي عبد المومن » قطب أعلام المدينة ولهايته المأساوية على يد الحاكم الفرنسي ، هذا الجامع الصغير البالي ، لقد كان في يوم ما ، مركزا للعقل السياسي بالنسبة للحكام الأتراك بالمدينة ، كل الأوامر والقرارات تصدر عن أئمته وليس للحاكم العثماني سوى التنفيذ ...

لقد حافظ الاتراك على الاسلام في بلاده ونصروه ، لكنه ولليوم وخصوصا بعدما كبر ونضج لا يجد جوابا لسؤال ما أكثر ما ارقه :

* هل الأتراك محتلون أم منقذون ؟

لكن الأمر الذي هو متأكد منه ، هو أن أحدهم لم يكن منقذا فحسب ، لكنه كان مجاهدا فذا ضد الاحتلال الفرنسي، لقد منع جنرالات الاحتلال من الشعور بمتعة النصر ونشوة الاحتلال ، وأجل لهم ذلك الى أكثر من عقدين من الزمن ، بعد احتلال السواحل ، وأدخل المحتل في حرب ضروس في هذه المدينة ، والمدن المجاورة لها بالخصوص .

« الحاج أحمد باي القلي » كان يمكن أن يجيب تاريخه عن سؤالي، لكن الجواب يكتمل إذا علمنا إن « الحاج أحمد باي » كان متزوجا

بجزائرية من منطقة الواحات ، تكون قد أثرت كثيرا على سيرته الجهادية واستمراره في مكافحة المحتل .

ويجلس كمال على عتبة « الفندق » إنه لاحق له في الدخول لأنه غريب عن الشلة ، ولا حق له في تكسير قداسة التقاليد ، ربما لم يستطع أن يدخل ذلك اليوم ، لكنه حتما سيدخل في يوم ما ، وسيصبح عضوا في الشلة بشكل أو بآخر ، بل إنه عضو فيها حتى وهو بعيد عنهم ، أليست همومهم واحدة ؟ أعضاء أسرة الهم الانساني لا عد ولا حصر لهم.

يجلس متكئا على البوابة ، هذا الجدار الفاصل ، وهو لا يدري عن نفسه سوى وهنا أصاب قدميه فجأة ، فأصبح لا يقدر على الاستمرار في الوقوف .

كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل ، وعصبة السهاري من عشاق الأنغام والأنفاس العذبة ، لا زال ليلها طويلا مديدا ، لا يعد بساعاتنا العادية ، وهو شاب لا يزال مقيدا بالمكان والزمان ، مكان يضم والدين احدهما مريض جسدا ، والآخر مهموم بهمومه ، مشغول بانشغاله ، ضائع بضياعه .

من قال أن عاطفة الأبوة تعادل أو تتساوى أو حتى تتقارب مع عاطفة الأمومة ؟

هاهو يؤكد ذلك الآن لينفيه عندما يصبح أبا ، ويومها ربما سيقول قولا آخر ، هكذا البشر أبناء الساعة والظرف والواقع ، واحكامهم تختلف باختلاف كل ذلك .

لا بأس في ذلك ، إنه سيرجع الى أعالي القصبة كما دخلها في هذا الصباح ، عليلا تائها ، زادته هموم الآخرين تذكيرا بهمه ، رغم أنهم يقولون أن المصائب إذا عمت هانت .

إنه لا يؤمن بذلك ، ويتصور أن همه لم يعشه بشر قبله ولا بشر بعده ، همه كارثة ، لا حل لها سوى في موت قلبه وتلاشى روحه ، إن ألمه دائم غير مؤقت ، لقد بدا وكأنه ينتظر توقف العجلة عن الدوران وسوف لن يبكيه أحد .

بل ربما سيقولون عنه أنه رجل ضعيف غلبه قلبه ، وأرقته إمرأة ، وليتها كانت أية إمرأة ، إنها يهودية ,

***

* **ها** أنا مغلف بالكذب مرة أخرى ، أحييك في توهجك يا مدينتي رغم أن معركتي معك لم تتركني معك غير حطام وأشلاء ، لكنني أبقى في ذاكرتك نجوما مزروعة ، مسقية بدموع شائكة .

لقد هضمتني ذات يوم حواريك وحاراتك ، ابتلعتني في أحشائها ثم لفظتني وأنا معجون بأكثر من تجربة ، كانت توابل وأملاحا لعيش لا طعم له ، لتصبح فيما بعد حدثا وتاريخا لي ولك .

* توقف ، هل ترى هذا الجمال ؟

* أنا لا أرى شيئا مما تذكرين أيتها المدينة العجوز ، عيناي لا ترهان شيئا من ذلك ، ذهني غير حاضر أبدا ، إنه هناك بعيدا في الزمن حيث تركت كل من أحببت ...

وها أنا ارجع إليك يا مدينتي المتوهجة تختلف فينا الآراء أكثر أثناء مسرحيتنا الصامتة السلبية ، وداخل ذاكرتنا نحن أكثر من ثرثارين .

إننا لم نكن كذلك ، لقد صنعت بآلامي الصغيرة انتصاراتك الكبيرة ، عندما كنت أرضي بأن تبتلعيني في أزقتك الضيقة مع زمرة من الشباب ، أصبح همهم اليقظة والوعي بالمكان والزمان ، وغرس أقدامهم في تربتك الطرية واليابسة ، وكتابة تاريخك وأحداثك بدمائهم وعذاباتهم وزنزاناتهم الرطبة ، زمرة جمعتهم قضية غيرت همومهم وآلامهم الصغيرة الى آمال كبيرة شفافة رائعة ، تذوب فيها كل التفاهات والهامشيات ، من أحاديث العشق والهيام والأنفاس الحمراء والصفراء .

ليصبح وجه الحبيب نقطة في بحر الوطن ، وتصبح المدرسة وما تلقنه من دروس جزءا صغيرا ثانويا في كل عظيم لم نعرف عنه قبل ذلك شيئا إلا من خلال دروبك الضيقة ، وقضاياك المعقدة ، وأهدافك المولودة مع كل فجر صافية تزيل كل ضباب الأمس والغد .

ويصبح الصمت عبادة ، والاختفاء حضورا ، وحب الجميع وسيلة لإسعاد الجميع ، ويختصر وجهك ابتسامات النساء جميعا .

ضميني اليوم لصدرك الأكثر دفئا وصدقا ، ورصعي قلبي اليوم برذاذ غيثك المسكوب حنانا وحنينا ، إنني أشعر بالتوقف ، والحياة تنطلق بدوني ، إنها لا تنتظر هكذا ، كعجلة تتدحرج من الأعلى الى الهاوية ، أنني كالعابر على رمل الذاكرة أو المسافر على متن الحنين .

قالت له أمه ذات مساء بعد أن تصورت أنه قد شفي من دائه :

* والآن يا كمال ما الذي تفكر فيه ؟ ما رأيك إن البنية «نفيسة» في انتظارك ، وأهلها لا يريدون الانتظار أكثر ، أنت تعرف تقاليدنا يا ولدي، أعزم وتوكل على الله ، إنه قادر أن يهدئ سرك ويشفيك من كل الأسقام وتكسب رضا والدك المريض .

* أمرك يا أمي، افعلي ما بدا لك، أنا رهن إشارتك .

وتذهل أمه لإجابته السريعة والتلقائية ، تندهش ، إنها لم تكن تنتظرها ، إن ولدها تغير ، تغير كثيرا ، طباعه ، كلامه ، جديته ، وصلابة مواقفه في بعض الأمور ، إنه لم يعد يحكي شيئا عن أزمته العاطفية ، لا يتحسر كما كان ، ولا يأرق ويسهد كما كان ، لقد أصبح بمجرد أن يضع جنبه على الفراش يروح في نوم عميق ، وكأنه كان يحمل الأثقال طول النهار أو عبر السنوات الماضية .

أمر عظيم هذا الذي غيره ، وغير أصحابه من أبناء الجيران ، وجعل كل واحد فيهم يبدو رجلا جادا أكثر من اللازم ، ويحترم الآخر

أكثر من اللازم ، لقد ذهبت تلك السلوكات الصغيرة التي كانت تجمعهم، وتثير أعصابهم كل مرة حول سبب ما تافه للغاية .

وتكاد « عتيقة » تطلق زغرودة ، لكن كمال يمسك بيدها بلطف مانعا وهو يقول بهمس :

* لا أريد شيئا من ذلك ، إنني في غني عن هذه الشكليات والمراسيم يا أمي .

وتقسم الأم يمينا أن تذهب للولي الصالح « سيدي محمد الغراب » خارج المدينة ، فتطعم بيديها سلاحف بحيرته المباركة ، وتزور أيضا وتشعل شموعا عند قدمي « بوجبال ، وسيدي ميمون ، ولالا فريجة » إن الأولياء قد استجابوا لدعائها وأشفقوا على حالها ، ولا بد من الوفاء بالنذور .



صديق كمال العطار المقرب والأعز هو « مراد » جاره في نفس البيت المشترك ، وهو واحد من بين عشرة أطفال هم أبناء « عمي حسين الحلواجي » ، إنه بمثابة الأخ له ، وهو الذي لا أخت ولا أخ له .

كمال يحب مراد ويعزه ويعتبره الأخ الذي لم يرزق به ، يرتاح له رغم اختلاف طبيعة الصديقين ، كبرا معا ، درسا بالابتدائي معا ، ثم الثانوي ، والذي من مدارجه التحقا معا بالعمل مع فدائي المدينة ، عندما اندلعت ثورة التحرير ، ودعا قادتها طلبة الثانوي والجامعة للإضراب عن الدراسة بالمدارس الفرنسية ، ليلبوا النداء رافعين شعار

« **الشهادة لا تجعل منا جثثا أفضل** » .

يكفيه ما حصلاه من تعليم، القراءة والكتابة بالفرنسية، وحتى بالعربية في مدرسة بن باديس ، وحفظ نصيب من كتاب الله في جامع سيدي الاحمر ، بحيهم العتيق « سيدي جليس » .

من الذي أثر في الثاني من الصديقين الأخوين ؟ كمال لا يدري ، سوى أن مراد كان رجلا قبل الآوان ، صلبا ، جادا ، حتى إنه عندما يتكلم يحسبه رجلا ذا تجربة ، شرب الدنيا حتى الثمالة ، كان كشيخ ، رغم أنه في سنه ومن عمره .

كان كمال يلجأ إليه كلما احتارت نفسه في قضية ما من القضايا الصغيرة والكبيرة ، يستشيره ، يحتمي به من الحيرة ، ويعمل بنصائحه .

غير أن ما كان يشكل حدة الجدال بينهما ، هـــــو أن « مراد » لم يكن يؤمن أبدا بشيء اسمه الحب ، في الوقت الذي يجد كمال كل حياته في الحب والعواطف والرومانسيات .

قال له مراد مرة :

* ربما أنت كذلك ، لأنك الوحيد عند والديك ، والحب والحنان كله من نصيبك ، وتريد دوما أن تستزيد منه ، ولا يمكنك أن تعيش بدونه ، أما أنا فرقمي الخامس من عشرة ، هناك من هم قبلي ومن هم بعدي ، فلا أنا بالبكر لأحظي بحب وحنان ثمرة الزواج في أيامه العسلية الأولى ، ولا أنا بالأخير حتى أحظي بتسمية «آخر العنقود» .

ربما هذا صحيح ، لكن كمال يجيبه بألم :

* العيب يا أخي هو أنك لم تبل بما ابتليت به أنا ، لقد كان قدرك أرحم من قدري .

* بل إن عشرة إخوة يا أخي ، لا أعتقد أن هنالك عند والديهم الكمية الكافية من الحب لتوزع عليهم ، أليس هذا بلاء أيضا ؟

كيف يمكن لقلبين أن يحملا حبا يسع عشرة أطفال ، إن هذا غير ممكن أبدا ، إلا إذا كان قلباهما بحرا من العاطفة ، أو جدولا لا يتوقف عن الانسياب بالحب بدل الماء ...

* إن العاطفة يا مراد ليست أمرا ماديا حتى نقيسه بالبحر أو بالسماء أو أي وعاء أو فضاء آخر ، إنه أكبر كثيرا من كل المقاييس .

لكن مراد يجيبه بابتسامة مستخفة ولكن حزينة :

* أتدري يا كمال، أنني لا أذكر أبدا أن أبي ربت على كتفي يوما، إنه كثيرا ما ينسى اسمي ، ويناديني باسم أخي الأكبر مني أو الآصغر.

* وخالتي « بهيجة » ... أمك ؟

* خالتك بهيجة ، يا سيدي ، رأسها الصغير يحفظ كل أسمائنا ورغباتنا ، وقلبها يسع حبنا وحب الناس جميعا ، ولست ادري كيف يحصل ذلك ، هذه المرأة كأنها تملك أكثر من قلب وأكثر من ذاكرة ، في الكثير من المرات ، كنت أراقبها وكأنني أمتحنها ، فأقول أنني أكلت أو شربت أو أخذت قسطي من الحلوى التي يرجع بها والدي كل مساء ،

لألها لم تكن مهيئة للبيع ، وتكسرت بين أسنان المقص الخاص بقطع الحلوى ، فتقول لي غامزة :

* كــلا ، يا مراد ، إنك لم تأخذ حقك ، أتحسبني مغفلة ؟ وأضحك وأسعد بذلك أيما سعادة ، إلها يا كمال وكأنها القاضي العادل ، الذي لا يظلم أحدا ، بل لا تفوته مظلمة ، ويتساوى عنده الجميع دون محاباة ولا انحياز ، أما والــــدي ...

ويسكت مراد ، وكأنه يندم على ما سيقوله ... لكن كمال يطالبه بالاستمرار في الحديث والبوح ...

* أما والدك ... ماذا يا مراد أكمل ..

* والدي يا كمال ، نحن جميعا بالنسبة إليه حيوانات صغيرة، لا بد فقط من إطعامها لتنمو وتكبر ، وغدا سنكبر جميعا ، ونصبح مجرد أسماء غير مرتبة في ذهنه ...

* ما هذا التشاؤم يا أخي ...

يقولها كمال بحنان كبير .

مراد صديق كمال المفضل والمقرب جدا ، هو مهوى أسراره ، أخبره بمشكلته في حب اليهودية ، وبرفض والدتــه ، وكتمان الأمر عن والــده ، واستشارة خاله .

كما أن الصديقين ، وعندما توقفت بهما الدراسة في الثانوي ، التحقا معا بالعمل الثوري بالمدينة ، الى أن جاء يوم فرق بينهما تماما ، فلا

يلتقيان بعد ذلك أبدا ، بعد أن التحق مراد بجبال الولاية الثانية ، لأن أمره انكشف من طرف الشرطة الفرنسية ، فأمرته الجبهة بمغادرة المدينة في أسرع وقت ، ورتبت له ذلك حتى لا يقبض عليه ، ويعذب ويكشف لجلاديه أسماء من كان يعمل معهم .

كان كمال يمني نفسه دائما ، أنه سيلتقى صديقه يوما ما ، أو عندما تستقل البلاد ، لكن ذلك لم يحدث ، لأن مراد يستشهد بعد التحاقه بالجبل، وفي أول معركة من معارك جيش التحرير ضد القوات الاستعمارية ، ليفرق بينهما الموت الى الأبد، كان وكأنه يستعجل الرحيل عن هذه الدنيا، وإلا لماذا يستشهد في أول المعارك ؟

كانا وهما صبيين يافعين ، يلعبان معا في شقاوة وسعادة ، وكانا يعلقان على كل صور الحياة التي تمر أمامهما .

استنكر كمال مرة على أحد الشباب أن يسرق أحد التجار في السوق ، هكذا علانية ، بعد أن شج رأسه بهراوة كبيرة .

فقال له مراد معجبا بشجاعة السارق :

* هاهو العنف اليومي يعثر على الخبز اليومي ، دون لذة واضحة للخبز سوى أنه مغموس بالدم ، إن الحرمان يولد التمرد والعصيان يا صديقي .

* من أين تأتي بهذه الأفكار الغريبة يا مراد ؟

قال كمال ذلك وهو يستنكر رد فعل صديقه .

كانت عائلة « عمي حسين الحلواجي » صديقة حميمة لعائلة « عمي رابح العطار » والد كمال ، كانت تجمعهما صداقة خاصة إضافة للجوار ، كل شيء كان يقرب بينهما، البيت المشترك ، والنسب ، ولو أنه من بعيد ، والمستوى الاجتماعي ، الوالدان صديقان والوالدتان ، وكذلك الأطفال ، كانت الأسرتان وكأنهما أسرة واحدة ، لذلك شب الأطفال معا وكأنهم إخوة ، الى أن وصل الجميع مرحلة الشباب ، لتبدأ الجارتان في النظر الى الأولاد والبنات بنظرة المصلحة المشروعة ، والتي ستزيد حتما من متانة الروابط بين الأسرتين , فكثيرا ما قالت بهيجة لصديقتها عتيقة بلهجة القرار :

* كمال من حظ نفيسة ، هذا أمر مفروغ منه ، أليس كذلك ؟

وكأنها لا تريد من جارتها أن تنسى وعودا ، تأكدت من العشرة والجيرة والأيام .



« **راشيل زقزيق** » حبيبة كمال وحلمه الجميل ، فتاة في الثالثة والعشرين ، تكبره بعام أو عامين ، لكنه لا يرى ذلك إلا أمرا تافها ، حتى لو عرف ذلك لأنه ، لم يكن يعرف إن ذلك لا يهمه البتة ، المهم عنده أنها تبادله إعجابا بإعجاب ثم حبا بحب ، إنه متأكد من ذلك رغم ملاحظات أمه العزيزة :

* إنها لا تحبك يا كمال .. اليهود لا يمكن أن يحبوا عربا مسلمين، هكذا عرفنا عنهم وعرف عنهم أسلافنا ، لذلك صب عليهم الله لعنته ، وسلط عليهم الضياع والتيه في الصحاري ، إنهم لا يحبون ولا يعرفون الحب ، إنهم لا يعرفون سوى الغدر والحقد .

وتسترسل أمه في مبالغات وأحكام عامة من هذا القبيل ، وكأنها لا تريد أن تتوقف .

من أين تأتي بهذا الكلام الكثير والأوصاف والتشبيهات ؟ كانت وكأنها وكالة أنباء ، في حالة تعبئة حربية .

لكنه يكون قد صم أذنيه عن كل كلمة ، إنه لا يقتنع بكلامها هذا أبدا، وهؤلاء اليهود جيران وأحباب، ونحن وهم جدنا واحد هو إبراهيم الخليل ، وهذه العداوات والبغضاء ليست إلا من صنع البشر جيلا بعد جيل ، إن الله خالقهم مثلما خلقنا، فيهم الطيب وفيهم الخبيث، والخير والشرير ، لهم قلوب مثلنا، وعقول يقال أنها أحسن من عقولنا ، إنهم يحبون مثلما نحب ، ويعشقون ويتعذبون أيضا ، إنني أنا الوحيد الذي أعرف من تكون حبيبتي ، ولا أريد أن أعرف سواها ، ولا شأن لي بأهلها ولا بقومها الذين سرقوا أرض قومي بالشرق ، هي وحدها التي تهمني ، وحتى لو لم تكن تحبني ، يكفي أن أحبها أنا الحب كله .

وتقاطعه أمه بعصبية ، وهي الهادئة اللطيفة :

* إن أهلها أيضا يجب أن تهتم بهم ، إنها ليست مقطوعة من شجرة كما يقولون ، أهلها سيكونون أصهارا لنا ، وأخوالا لأولادك ، فهل ترضى أن يصبح أولادك يهودا من أمهم ؟ إنه أمر خطير هذا الذي تفكر فيه ، وعواقبه وخيمة عليك وعلينا .

ألا تدري أنهم ينسبون الطفل لأمه ، لأنها التي حملته وجرت دماؤه مع دمائها ووضعته وأرضعته ؟ ومن لا أم يهودية له عندهم ، لا أصل له أبدا ، حتى لو كان أبوه الحاخام .

إنهم ليسوا مثلنا ، نحن حيث نعتبر المرأة وعاء لا غير ، آه .. كم أدعو الله أن لا أعيش لأرى ذلك .

ويتألم كمال كثيرا لآلام أمه حبيبته ، وهو يسمعها تلقى في سمعه هذه المعلومات المؤلمة ، وتتمنى لنفسها الموت بسببه .

وفي اللقاء الموالي مع « راشيل » عندما التقيا في ركن قصي من حديقة الأغنياء بساحة « لا بريش » ، كان كمال يروى لها كل ما قالته والدته ، دون أن يخفي عنها شيئا ، كان يقول لها ذلك ويتملى وجهها الجميل ، وكأنه ينتظر منها تكذيبا أو رفضا لكل مبالغات أمه عنها وعن قومها ، لكن « راشيل » لا يبدو أنها تهتم بذلك ، لأنها كانت تردد على مسامعه كل مرة :

* كمال ، حبيبي ، دعنا من كل ذلك ، ولنعش لحظاتنا الجميلة دون أن نعكر صفوها بكلام أهلك أو أهلي .

ويدرك أمرا هاما من ملاحظتها ، إن أهلها أيضا يقولون لابنتهم نفس الكلام ، ونفس التعليق ، ونفس الخطاب التاريخي ، وبالتالي فإنهم غير راضين على علاقة ابنتهم معه ، إنه عربي ومسلم، عدو لهم كما كان أسلافه أعداء لأسلافهم .

ويتأكد له فجأة ، أن العداوة التي تفصل اليهود عن العرب عميقة وسحيقة ، تضرب بجذورها في أغوار التاريخ ، نمت وترعرعت عبر قرون وقرون من الزمن ، ولم تزدها هذه القرون إلا تجذرا وصلابة ، ولم يزدها الظلم والحقد إلا القطيعة تلو القطيعة .

ويسأل صاحبته بتعب :

* وما الحل ياراشيل ؟

فتبتسم له برثاء ، ووجهها لا يخلو من تعجب ، وكأن المشكل عنده وحده ، ثم تقول :

* دعنا من كل ذلك ، يا كمال ، ولنعش لحظاتنا في سعادة دون تفكير ، المهم أنني أحبك وأنت تحبني فلماذا نفكر في الغد ؟

ويصدم مرة أخرى لجوابها ، إنه جواب لا يقنعه ، إنها لا تفكر مثله ، هو يفكر في الزواج منها والحياة معها أبدا ، وهي لا تفكر إلا في هذه اللحظات السعيدة ، من الزمن ، تكفيها لحظات ، لحظات لا تريد لها إطارا ، لا رسميا ولا شرعيا ، ولا رضى من أهل ، ولا زواجا ولا مستقبلا ، المهم أن تعيش لحظات .

وتصدمه فجأة فكرة مرة يشعر معها بألم حاد :

* هل أن حبيبته من الفتيات العاشقات دوما ؟ هل إنها أحبت قبل اليوم غيره ؟ هل هي سهلة لدرجة أنها تعرض عليه نفسها ؟ والى أي حد يمكن أن تفعل ذلك ؟ .

ويحاول أن يطرد الفكرة من رأسه ، وهو يقول لها بلطف :

* تعالي يا حبيبتي أوصلك لبيتك ، إن الشمس توشك على الغروب .

ويبقى الوضع على ما هو عليه ، دون تغيير ، عذاب ومعاناة وسهد واسى ، الى يوم أن يضرب عن الدراسة ، ويترك الثانوية مع صديقه مراد وأبناء الجيران والحي جميعا ، بأمر من جبهة التحرير الوطني الممثل والناطق باسم ثورة التحرير ، لينصب همهم وبالدرجة الأولى على طاعة وتنفيذ أوامر قيادة الثورة ، ينصب همهم على تلك الصولات والجولات في دروب وحارات المدينة ، مدينتهم ، يحركون بشبابهم وشجاعتهم عجلة الفدا والعمل الثوري ، دون قناعة أولا ، ثم بقناعة ، ثم بيقين يتوج بالتضحية .

ليتضح مع كل ذلك دور اليهود من الثورة ، ومن العرب والمسلمين ، عندما يظهرون موالاقم للمستعمر ، وعداءهم السافر لإخوانهم وجيرانهم بالأمس القريب ، ونقمتهم على ثورة الشعب من أجل استرجاع حريته .

ويصبح شيئا فشيئا التفكير في راشيل وأهل راشيل ، من الأمور التي تدخل في باب الخيانة للوطن وقضيته ، لتدخل راشيل مع الأيام الى عالم آخر من روحه ، عالم الذكريات الخاطئة و الحزينة عند شباب عاطفي متهور .

أمر عظيم هذا الذي قلب كيان كمال ، من شخص الى شخص ، ومن حالة الى حالة ، ومن وضع الى وضع ، لكن بعد عذاب وألم قاسي منهما كثيرا ، إن ذلك الأمر العظيم لم يقلب كيانه وحده ، بل قلب كيان الجميع ، جميع الشباب ، ومن بينهم صديق عمره وأخيه ، الذي لم تلده أمـــه « مراد » ذلك الرقم المكرر .



هل هي غزوة فاشلة ، أم غزوة بغنيمة ؟

إنها لا هذه ولا تلك ، وهو يدخل على نفيسة التي أصبحت في أقل من أسبوع زوجة له ، كان السباق حارا بين الزواج وبين حلم والده المريض ، إن الموت يقترب من والده أكثر فأكثر ، لقد أصبح هيكلا عظميا ممددا على الفراش ، ذهنه فقط الذي بقي صاحيا .

ويقول كمال لأمه بتأفف :

* من أدراك يا أمي ، أنه سيموت قبلي أو قبلك ؟

إن الموت والحياة بيد الله ، والمرض مهما كان خطيرا لا يميت ، الأجل هو الذي يميت .

* ونعم بالله يا ولدي صدقت ، إن المثل الشعبي يقول :

« **يموت الماشي ويقوم الراشي** » ولا دخل لنا بقضاء الله وقدره ، فقط هكذا تعود الناس أن يفكروا مع المريض ، أن يلبوا رغبته ، ويريحوه وهو في مثل هذه الحال من الضعف ، ثم إنه والدك وأنت ولده الوحيد ، ولا بد من البر به ، أتريد أن يقال عنك بعد ذلك أنك ولد عاق ؟ وهل سيهنأ لك بال لو مات والدك و لم تحقق له رغبته ؟

* لماذا يخلطون بين الأمور هكذا دون رحمة ؟ لماذا يسخرون الحياة كلها من أجل رغبة كبير ؟ لماذا يضحون بهذا الحب الكبير مقابل تحقيق أمنية ؟ ولماذا يضحي الابن بحياته كاملة من أجل وصية مشروع رحل ميت ؟

أليس هذا ظلما كافيا لخرق حقوق الانسان ؟ هذا الفكر الأبوي الذي ما نفتأ نتجرعه كل مرة ، وكأن الدنيا قد تجمدت به ، لا تتحرك ولا تنمو ولا تتطور ، لماذا يفرض الكبار علينا نحن الشباب قناعاتهم ؟ لماذا يريدون منا أن نكون نسخا طبق الأصل منهم ومن أسلافهم ، أليست جريمة في حقنا أن يفعلوا معنا ذلك ؟

ورغم ذلك فالجريمة كل الجريمة هي في عقوقهم بمخالفة رغباتهم وأوامرهم .

إنها جريمة دينيا واجتماعيا ... لقد اتفق الجميع على ذلك وهذا يكفي كمبرر .

جال في ذهنه كل ذلك وهو ينظر لوجه نفيسة .. زوجته إنها تشبه أخاها مراد صديقه الحبيب ، في ملاحة وجهه ، وشعره الأشقر المحتل دائما جبينه ، حتى أنهم وهم أطفال كانوا يعيرونه بأن شعره كشعر البنات يحتل جبينه دون قصد منه أو رغبة ، فكان مراد يغضب ويهجم على كل من يقول له ذلك .

هاهي نفيسة تنام جنبه كملاك ، سعادتها تبدو حتى وهي نائمة ، ولم لا تكون سعيدة ؟ إنها كانت طول الوقت تحبه وتفضل اللعب معه على الصبيان الآخرين ، من الجيران ، وتهبه نصيبها من قطع الحلوى التي يرجع بها والدها كل مساء من فضلات القطع المهيئة للبيع ، كانت ومنذ الصغر تفضله بكل شيء جميل لديها ، وتدافع عنه ضد إخوتها إذا حصل بينهم شجار من ذلك الذي يحدث بين الأطفال الصغار حول قطعة حلوى ، أو كلمة ، أو صورة ، أو الغش في لعبة «الغميضة »..

يتزوج كمال نفيسة ، بطبل وزمر ، لكن دون حماس كبير ، كمال رفض ذلك ، الأمر الذي أحزن أمه وأباه أيضا ، نفيسة قبلت ، إنها لا تريد إلا مايريده كمال ، وأخوها مراد ، إنها رهن إشارتهما ، وما المانع أن يكون العرس بسيطا ، أليست النتيجة أن يكون كمال لها وهي له ، يضمهما سقف واحد ؟

لكن « هيجة » أمها لم يكن ليروقها ذلك أبدا ، إن ابنتها ليست عانسا ولا ثيبا ولا دميمة ولا اقترفت خطيئة ، حتى تذهب هكذا لزوجها دون حفل كبير مثل نداتها .

لكن كل ذلك لم يثن « عتيقة » أم كمال من أن تكرم نفيسة عروس ابنها الوحيد بقطع من الذهب ثمينة ، وبهدايا معتبرة ، كما لم يمنع كل ذلك ثوب الزفاف الأبيض و«الدراية» المصدفة ، وخيط الروح المتوج شعرها الذهبي ، من أن يخلق منظرا رائعا أخاذا ، أخذ بلب كمال ، وهو يراها بعين الاعجاب والافتتان ، نظرات رائعة لكنها خلت من تلك الشعلة ، التي يسمونها الرغبة والحب الجارف بين ذكر وأنثى ، كانت نظرات اختلطت فيها مشاعرالأخوة، بالامتنان، بالرضا ، بالاعتراف ، بالطفولة ، بالامتلاك ، إنه لم يكن ليقدر على تفسير ذلك الى اليوم ، وهو يخطو على عتبات الستين ذكري ، والستين دربا، والستين بابا ، والستين سؤالا ، اخفقت أيامه كلها للإجابة عنها .

ما الذي حدث ؟ هاهو ينام بجانبها هادئا ، راضيا ، دون أن يشعرها بما في قلبه ، أو بما كان يفكر فيه قبل الزواج ، وهاهو أخوها مراد يتستر عليه ، وعلى سره الكبير مع اليهودية ، دون أية مزايدة أو ابتزاز ، إنه صاحبه الذي يحبه ، ويريد له أن يشفي من علته ، إنها علة ليس إلا ، ولا يمكن أن تدخل في خانة الاختيار بالنسبة لصاحبه ، إنه

يعتقد أن ما حصل لصاحبه مع اليهودية هو داء ، وكلما ذكره دعا الله أن يحفظه هو منه ، وأن يشفي صاحبه منه .

إن الحب في حد ذاته عند مراد أمر لا قيمة له ، هو مرض وعدوى يجب أن نتقيها قبل أن تصل إلينا فنضطر لعلاجها ، وكم كان سعيدا عندما قرر صاحبه كمال قطع الصلة بحبيبته اليهودية ، وقبل الزواج بأخته طالبا الصفح من مراد ، ومعبرا له عن نيته في إسعاد أخته ، وإن ما كان يعاني منه ما هو إلا نزوة شيطان ، وعلة شفاه الله منها .

هل كان ذلك صحيحا ؟

لم يلح مراد لمعرفة الإجابة .

مراد لم يعرف الحب ، وربما لا يهمه أن يمر على هذه التجربة ، في رأيه أن الحب ليس من علامات الرجولة والحرية ، هو ضعف لا يصيب إلا الضعفاء ، أما الأقوياء فقد خلقوا لأمور أخرى أكثر أهمية ، ولعل حدسه قد صدق ، وهو يلقى بنفسه وحياته في خضم العمل الفدائي ، ويتسابق ويتنافس بكل قوة قناعاته ، ليصل قبل الآخرين للتعبير عن قمة التضحية ، شابا جميلا يافعا ، يفضل السكن مع الملائكة ، بدءا بقمم الولاية الثانية في نظام الثورة ، الى السكن في سماء مدينته الأكثر زرقة من كل السماوات .

هاهي أخت مراد زوجته الصغيرة نفيسة تنام بجانبه ، تحبه وترعاه ، وتقبله دون أن تطالب بالمقابل ، إنه بالنسبة إليها الحلم الجميل الذي

تحقق، وتحقق بسهولة في جو من الهدوء والرضا والسعادة بين الأسرتين ، وستكون أسعد عندما تهديه طفلا يسعد به والده المريض ، وما المانع ؟

سيحصل ذلك بعد أشهر قليلة إن شاء الله .

لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، لا تريد الأقدار أن تتم خيرها لا لنفيسة بأن تهدي لحبيبها طفلا ، ولا لوالد كمال لكي ينعم بحفيد من ولده الوحيد .

تعسر الولادة ذات ليلة من ليالي الشتاء الطويلة ، الباردة ، وقد لبست المدينة ثوبها الأبيض من ثلوج بكرت بموسمها ، وتفشل « الداية » في تحمل مهمة تلقى الجنين ، ويتأخر طبيب الأسرة والجيران في الوصول الى البيت ، وتتأخر رخصة الخروج من البيت ليلا بسبب حالة الطواريء العسكرية ، ولا يسمع الله ابتهالات الجميع في طلب الفرج ، ولا تسمح صحة الحامل وسنها الصغير بمقاومة أوجاع الوضع ، وضع الطفل البكر ، فتكون النتيجة التي لم ينتظرها أحد .

ليقول الطبيب بين دموع وآنات الجميع :

* البركة فيكم ، عظم الله أجركم ، ومنحكم الصبر .

جنازة نفيسة كانت تختلف عن الجنائز الأخرى ، إنها جنازة إمرأة شابة لم تبلغ العشرين ربيعا ، في بداية الطريق ، طريق الحياة ، وردة تقطف في غير زمن القطف .

إن جنازات الشباب تختلف عن جنازات الشيوخ ، وجنازة المرأة ، تختلف عن جنازة الرجل ، تختلف في الشكل والمضمون ، حتى النعش الذي يخصص للمرأة كان نعشا بقبة ، حتى لا يبرز أعضاءها ومفاتنها ، حتى وهي ميتة يجب أن لا تبرز مفاتنها ، أية مفاتن لجثة دون روح ؟

أمور كثيرة لا نجد لها تفسيرا سوى أنها أمور عزيزة أو مقدسة ، لا يمكن الجدال فيها أو التساؤل عنها لأن ذلك لن يأتي بنتيجة .

كانت الجنازة وليمة ، هكذا أهل هذه المدينة ، جنائزهم كالأعراس من حيث اللباس البنفسجي الخاص ، والذي يحضر مع جهاز كل عروس لمثل هذه المناسبات الأليمة ، ومن حيث المعزين والزوار والمواسين والمآدب ، التي تهيأ لهم ، وضعية تضيف لمصيبة الموت الخسارة المادية الفاحشة .

هكذا كان كمال يفكر في نفسه وهو يتعب ملبيا أوامر أمه الكثيرة ، أمر غريب لا يعجب كمال أبدا ، لكنه لا قدرة له على منع حصوله أو رفضه علنا .

مصيبته في زوجته الشابة ، وطفله الموعود ، هذه الأمنية التي لم تتحقق ، وكأنها أمر عظيم ، في الوقت الذي تتزوج فيه الفتيات ، كل يوم وبكل سهولة ، وينجبن بكل سهولة ، ودون أدنى صعوبات .

هذا ما أراد الله وما أراد الله كان .

* مدينتي ، دعيني أرقع ثقوب القلق في نفسي بذكريات حتى لو كانت أليمة ، لا تزخرفي كلامك بوهج القلب ، ودعي صوت أحبابي يأتيني دون أن يستأذن السمع ، وفي هدوء الحزن البعيد ينقر طبلة الأذن ، ليصبح هو كل مافي العالم من أصوات ، ساريا عبر شرايين العقل وذبذبات القلب الهرم .

***

ويقترب الموت من كمال أكثر فأكثر ، كان يتوقع موت والده في حالة صبر ورضا هادئين ، لتموت بدلا عنه نفيسة ذات السبعة عشر ربيعا ، هذه الفتاة الجميلة الرقيقة الراضية .

وتصور أنه هو الذي كان سببا في موتها ، إنه يتحمل كل الذنوب، لقد كان يمثل معها دور الزوج المخلص ، وقلبه كان هائما مع أخرى ، لا تعرف ربما من الحب سوى اللحظات القصيرة التي تقضيها معه في حديقة الأغنياء ، أو بين أدغال « جبل الوحش » وبحيراته الخضراء اللون من كثرة ما يحيط بها من اخضرار ، إن راشيل لم تكن تحبه كما أحبته نفيسة ، رغم تصوراته الأولى .

* هكذا نحن البشر ، لا نعرف قيمة الأمور إلا بعد فقدها ,

وهاهي الأشياء تنتهى نهايات ، لم نكن نخطط لها ابدا ، تنتهى الأشياء دون أن تلح في البداية أو النهاية ، وتحل المشاكل التي كنا نتصور انها لن تحل أبدا ، وبكل السيناريوهات .

هاهو مكانها في السرير خاليا ، وكأنها خرجت هنا فقط للغرفة المجاورة لتقضي حاجة ثم تعود لتبتسم له في طيبة وحنان ، وكأنها لا تريد من هذه الحياة سوى راحته ورضاه ، نامي تنام ، قومي تقوم ، اسكتي تسكت ، وكأنها دمية بمفتاح يحركها كما يشاء ، لا إرادة لها سوى في طاعته ، إنها تحبه ولا تريد منه سوى أن يدعها تحبه دون رغبة في مقابل .

يقترب الموت من كمال ويتعود على زيارة بيته ، ليسمع ذات فجر دقا خفيفا على باب غرفته ، وقد كان غارقا في النوم بعد تعب يوم كبير بالأحداث ، لينهض مخطوفا وهو يقول :

* أمي .. ما الذي حصل ، والدي ما به ؟ كيف حاله ؟

لكن أمه لا تجيب ، بل تجره من يده ، الى غرفة والده ، ثم تجلس وقد غطت وجهها بكفيها حتى لا يرى ابنها دموعها، وحتى لا تكون فألا سيئا على زوجها ، إنها مهمته الآن ، مهمة ولدها ، لعله سيكذب كل مخاوفها ويقول أن والده بخير لتطمئن .

لكن كمال لم يقل شيئا من ذلك ، وهي لم تكن تسمع ، ولم تكن ترى ، من كثرة الرعب ، وعندما طال الصمت ، نزعت كفيها عن

وجهها لتحد ابنها يحضن يد والده بين يديه باكيا ، بعد أن غطي وجهه بذلك الإزار الأبيض الذي يشبه الكفن .

لقد مات والده ، صحيح أنه كان ميتا قبل ذلك ، بمرضه الخطير ، كما قرر الأطباء ، لكن موتته الحقيقية كانت هذا الفجر ، مات دون أن يطمئن على استقرار ولده المفجوع ، ودون أن يرى له حفيدا أو ربع حفيد .



الفكرة تولد في ذهنك مجردة من كل أبوية ، هكذا يتيمة في عالم الأفكار ، بريئة في تجردها مما هو قبل وبعد ، إنها ملكيتك الخاصة ، والتي لا يزاحمك فيها أحد ، ولا يطمع في تبنيها منك أحد ، لأنها تخصك وحدك دون غيرك ، إنه لا أحد منا يشبه الآخر أبدا ، هناك فرق ما بين هذا وذاك ، يكمن في ثنايا الخصوصيات ، ويختفي عن الأنظار رغم التشابه الظاهر ، وحتى التشابه الكبير .

قالوا : أن الله يخلق من الشبه أربعين ، ربما كان هذا صحيحا ، لكنه شبه غير كامل أبدا ، لا بد من التميز ، وإلا فإن روعة الخلق والإبداع تصبح منعدمة .

إنني لا أشبه والدي سوى في ملامح وجهه ، وطول قامته ، والشامة التي تنغرز بارزة في خده الأيسر ، أما غير ذلك فإنني لا أشبهه في شيء .

فهل هذا أمر مشين غير لائق ؟ أعتقد أن هذا لا أهمية له البتة ، بعضهم يفتخر أن ابنه يشبهه كل الشبه ، حتى ولو كان يشبه أمه أيضا ، إن هذا لا يهم ، المهم هو أن الشبه معناه عند هؤلاء الآباء ، هو الكمال في النسب وفي الأبوة ، النقاء العرقي المطلوب عند المرأة ، إخلاصها ، وفاؤها لزوجها ، ملكيتها الكاملة له ، حتى وهي في حالة الوحم ، يستحسن أن لا تنظر لغير زوجها ، لملامحه ، تدقق النظر حتى تأتي له بولد يشبهه ، ولا داعي للنظر الى وجهها بالمرآة ، إن ذلك من شأنه أن ينزع جزءا من الملكية ، أما لو أنها نظرت الى غيره من رجال العائلة ، حتى ولو كانوا إخوته ، لكان ذلك تعديا على ملكيته في النظر ، والرغبة التي تنعكس على الحمل بوحم غير صادق أو نزيه ، بل إنه عند بعضهم نوع من أنواع الخيانة المعنوية .

إن كمال في نفسه يعتز كثيرا لأنه يشبه أمه أكثر مما يشبه أباه ، وهو لا يدري لماذا ؟ لكنه شعور جميل وهو يرى في وجهه الوسيم بعض ملامح أمه العزيزة ، لولا هذه الشامة السوداء البارزة في خده الأيسر ، والتي لم يورثها لأحد .

***

أين أمه اليوم ، لتنسج النجوم بأناملها الذهبية ، لقد كانت والدته تعمل عملين دون أن تخرج من البيت ، الأعراف وقتها كانت تفرض ذلك ، تقوم بشؤون البيت، وشؤون والده الكثيرة ، وشؤونه هو الصغيرة، والتي لا تنفصل عن شؤون والده فكلاهما ولدان في رأيها .

كانت أمه تنسج الجمال بأناملها الرقيقة عبر خيوط ذهبية ، وعبر مخمليات ملونة كل مرة بلون ، ترسم وترسم طيورا ، ونجوما ، وزهورا ، وأوراقا تنطق حياة ، ورقة ورقة ، ثم تعيد طرزها بهذه الخيوط الذهبية لتنتهي المخمليات الى لباس وستر ووسائد وطنافس ، لا تستغنى عنها عروس أو مشروع عروس ، أو بيت بالمدينة المتحضرة ، حتى لو كان أهلها فقراء ، إن الأشياء الجميلة يشترك فيها الغني والفقير .

أمه لم تكن تخرج من البيت إلا نادرا ، وهي تبدع وجاراتها كل ذلك الجمال ، بـــــل تقـــــوم هي وجاراتها بتسليم كل ذلك الإبداع، الى جارهم الشـــــــــيخ « عمي الطاهر» ليأخذه بدوره الى « الحاج بلعمري » صاحب أكبر محل للنسيج بحارة « الرصيف » قريبا من حيهم ، ليعرضه للبيع ، لتأخذ بعد ذلك كل مبدعة حقها في بضاعتها المباعة ، يقوم «عمي الطاهر» بهذه العملية كل مرة ، وبكل أمانة ، دون أن تراجعه أية واحدة من الجارات ، في أي تفصيل من التفاصيل، بل يقبلن عليه ومعهن أمه بالشكر والامتنان والدعاء له بطول العمر ، وكل واحدة منهن تؤثره بحلوى لذيذة أو أكلة شهية نادرة ، حتى في غير المناسبات والأعياد .

كان كمال يتساءل مرات :

* لماذا لا يقوم أبوه بهذه العملية ؟

لتجيبه أمه بابتسامة طيبة :

* إن عمك الطاهر هو الخبير بهذا العمل ، لأنه تاجر أيضا ، ويحفظ لنا حقوقنا طول الوقت ، أبوك رجل طيب فوق العادة ، ولا يفقه في المزايدات والمغالبات مع التجار ، التجارة شطارة ، كما يقولون .

كانت أمه تأخذ من « عمي الطاهر » « الأربعة دورو » وهي سعيدة ، وكأنها قد ملكت كل أموال الدنيا ، ولم يكن أبوه ليراجعها في

ذلك ، أو يطالبها بشيء منه ، لكنها كثيرا ما كانت تصرف ذلك المال على شؤون البيت أو على حاجات ابيه ، وحاجاته هو التي لا تنتهى .

كان يتربص بها كل مرة ضاحكا :

* يبدو أنك غنية اليوم ، ما رأيك في حق تذكرة سينما ، يقولون أن هنالك فيلما جميلا ، يعرض في صالات المدينة ، وتبتسم ، وهي تناوله أكثر مما طلب قائلة :

* الغالي طلب الرخيص .

سعادتها كانت تكتمل وهو يطلب منها ذلك ، إن الشعور بقدرتها على العطاء والهبة ، يشعرها بالسعادة والراحة النفسية ، وكثيرا ما كانت ىردد :

* اليد العليا خير من اليد السفلى .

إن هذا كان يؤكد له كل مرة ضرورة أن المرأة يجب أن تكون إنسانا كاملا غير قاصر ، ينتظر كل مرة الشفقة والحماية من الآخرين ، إنهم من خلال شفقتهم وعطائهم يمتلكونها ، ويمتلكون قراراتها ومشاعرها وتبعيتها الدائمة ، والتي كثيرا ما تصبح عبودية وخنوعا .

***

عندما علمت أمي بحبي للفتاة اليهودية ، نذرت أنها لو أشفى من هذا الداء ، داء الحب الخطير ، لزارت أهم وال صالح خارج المدينة « سيدي محمد الغراب » طبعا بعد تقديم آيات الطاعة والاعتراف بشمعة ومنديل وطمينة ، وطبق كسكسي للمريدين حول قبة « سيدي راشد » الخضراء داخل المدينة ، جارهم ببركته الوفيرة ، فهم يزورونه كل أسبوع تقريبا ، ولا يستغنون عن بركته .

أنها ستذهب بعيدا هذه المرة إلى مقام « سيدي محمد الغراب » في ربوته العالية خارج المدينة ، وستتصدق على الفقراء والمساكين ، وتطعم سلاحفه العملاقة داخل البرك الطاهرة المباركة بيديها ، وإذا لزم الأمر ،

لهالها ستقيم هناك زارا ، نساء الزار من المداحات « الفقيرات » صديقات لها ، وكم أشفقن على حالها عندما كانت تسرد لهن شاكية عن محنة ولدها الوحيد ، وكم نصحنها بزيارة الولي الصالح خارج المدينة طبعا بعد التبرك بزيارة « سيدي راشد » المقدسة .

إن « سيدي محمد الغراب » لو لم يكن تقيا صالحا ووليا من أولياء الله لما نجاه الله من شر الحاكم الجائر ، عندما أمر بإلقائه من أعلى قمة جنب الجسر الكبير « كاف شكارة » وبدل أن يموت شر ميتة مرتطما بصخور الهاوية الى قاع الوادي ، حوله الله فجأة من صفة البشر الى صفة الطير ، حوله الى غراب ليطير بجناحين ، وينجو من الموت المؤكد ، لأنه كان مظلوما .

إن مثل هذه الكرامات ، من شأنها أن تستجيب لدعاء امرأة صالحة كعتيقة أم كمال ، وأمنيتها في شفاء ولدها الوحيد، من داء الارتباط باليهودية واليهود ، عليهم اللعنة جميعا .

هاهو يذكر اليوم ، وبعد أكثر من أربعين عاما ، أمه وهي تعد لوازم تلك الزيارة المقدسة ، من حناء وطمينة وبخور وشموع من أغلى الأنواع ، ولباس جديد وغير ذلك من اللوازم التي لا تكتمل الزيارة إلا بها ، طقوس كثيرة اختلط فيها اللون بالعطر باللحن ، ودقات الدفوف القوية وكأنها دقات قلب عاشق متيم ينشد التوبة والاستجابة وبلوغ المراد.

يتحد العالم كله في حركات راقصة ، يتحرر الجسد من حالة المقدس والمدنس ، ليصبح الرقص عبادة ، عبادة متحررة غير مشروطة ، لا بالزمان ولا بالمكان ولا بسجود أو ركوع ، تسبح في فضاءات من الكينونة ، لتنصهر النفس مع الذات العلية ، بعيدا عن كل الوساطات ، وتصبح التوبة والغفران وتلبية الدعاء أمورا مضمونة ، ولعل كل الآثام والخطايا بعد ذلك تفرز نفسها ، مع حبات العرق السخية مطهرة الجسد من كل الآثام الصغيرة والكبيرة ، الماضية والقادمة ، فتصفو الرؤية ويبدو الغيب شفافا ، وتنكشف الأسرا ر الكونية .

لقد أخذها هو نفسه يومها الى مقام الولي الصالح ، أجر لها « كاليشا » بفرسين سوداوي اللون ، كان ذلك صدفة ، لكنه يبدو أنه اللون المستحب في مثل هذه المناسبات ، فقد تفاءلت أمه خيرا بذلك .

كانت أمه ذلك اليوم في واد من التفكير ، وكان هو في واد آخر، كانت قد دخلت عالمها الغريب ، والحبيب الى نفسها ، عالما كثيرا ما دخلته قبلها أمها وجدتها ، عالم الاستخارة ، عالم التوكل ، عالم الراحة والاستسلام للقدر وطلب القبول .

أما كمال فكان يفكر لو أن زواجه من حبيبته قد تم ، لكان أخذها بفستان الزفاف الأبيض على مثل هذا « الكاليش » المذهب المخملي الأحمر بأجراسه النحاسية اللامعة ، كم ستكون اللحظات سعيدة

وهي بجانبه ، حلم جميل ، وقد أصبح أجمل عندما غدا مستحيلا ، وغدا ماضيا بعيدا ، حتى من حيث كونه مشروعا مجهضا .

وتذكر فجأة والعربة تسير، والأجراس تحدث أصواتا رتيبة مهدئة، تذكر تلك اللحظات التي لا تزال مرارتها في نفسه ، عندما جاءته الفكرة:

* لماذا لا يقترح على حبيبته أن تسلم ، أن تدخل في دينه ، إنها لو كانت قد أحبته فعلا لرحبت بالفكرة ، وتصور وقتها أن نافذة من الأمل قد فتحت في جدار يأسه ، ولكنه عندما طرح عليها الفكرة ، ابتسمت ، ثم ضحكت بعصبية وكأنها تسخر من أفكاره :

* إنك تحلم يا كمال ، هل يمكن أن أترك ديانتي من أجلك ؟ ولماذا لا تفعل ذلك أنت ؟

نزلت الإجابة غير المتوقعة عليه كالصاعقة ، وأدرك جيدا ما الذي هو مقبل عليه من هموم ، لقد صدقت والدته طول الوقت في وصفها لذهنية اليهود .

لكن الأيام تكفلت بحل المشكلة ، وإنهاء الحالة المرضية، التي كان يعاني منها .

لتأتي الأحداث الجديدة ، الثورة وبرنامجها ، ونشاطه الفدائي بالمدينة مع صديقه مـــــراد ، وتضع حدا لمشروعه العاطفي ، وتتوضح له أمور كثيرة ، وكأنه كان يعيش في عالم ضبابي ، الرؤية فيه منعدمة ، إلا من حبه لهذه الفتاة التي شاء حظه أن تكون يهودية .

صادفته أمور كثيرة هامة ، بدلت الكثير من تصوراته ، وجعلته في الكثير من الحالات لا يتخلى فقط وشيئا فشيئا عن أفكاره السابقة ، لكنه بدأ يخجل منها ومن نفسه ، وهو يرى فتيات أخريات يشاركن معه في هذا النشاط الثوري الجديد بصمت وتعفف عن مشاريع الحب الصغيرة .

خجل وهو يرى رفيقته « مريم » ، تخفي تحت تنورتها سلاحها بتواضع وعزة نفس ، و« حملاوي » رفيقه الجديد يشيعها بنظرة اختلط فيها الإعجاب والحب بالخوف عليها كل مرة وهي تتهيأ كل مرة للقيام بعملية فدائية جديدة .

هاهي مريم وأخواتها يحولن نظره عن راشيل وأخوات راشيل ، ويشعرنه ولأول مرة أن هنالك نساء أكثر جمالا من راشيل ، حتى ولو كن شكلا عاديات أو دميمات ، ولو أن الحقيقة لم تكن كذلك ، لأن مريم هذه التي أثرت في نظرته للأمور ، وغيرت الكثير من ردود أفعاله ، وعلمته ما لم يتعلم من قبل ، من أثرة وتواضع ونبل وشجاعة ، كانت أجمل روحا وجسدا وهدفا .

أنه يتذكر ذلك اليوم ببساطة وسهولة ، لكنه وقتها كان يتعذب ، لقد تعذب كثيرا قبل أن ينتهى كل شيء ، سهر الليالي الطوال ، بكى وذبل ، واصفر لونه ، وتعطل شبابه في كل شيء ، وكاد أن يقع طريح الفراش ، لولا هذا النشاط الجديد الذي يكلف به هو وصديق عمره وآخرون وأخريات ، بل يؤمرون به دون أن يترك لهم حق الاختيار أو

التفكير ، أو حتى البوح به ، لقد كان بذلك يتخلص كل يوم من خجله ونظرته السطحية للأمور .

إن كل الشباب الذين يعرفهم قد أصابتهم فجأة حالة من النضج والجدية والسلوك الحكيم ، قلت اللقاءات ، وقلت الثرثرة ، ولم يبق الوقت للمجون أو اللهو البريء وغير البريء، والتزم كل واحد منهم بأسراره، ليلتزم به الآخرون ، لا فضول ولا إلحاح ولا إزعاج ، لقد اصبح كل واحد منهم يشعر أن لديه مهمة ، وأنه بالتالي أصبح مهما بعد أن كان لا أهمية له .

الكثير من الشباب غابوا عن ناظريه ، والكثير منهم أيضا سمع أنهم في سجن « الكدية » وآخرون أخذوا الى سجن « لامبيز » بالأوراس ، هذا السجن الذي سبق واستضاف الكثير من زعماء عرب وأفارقة كانوا يعملون على تحرير بلدانهم .

لم يكن ليعرف الأسباب المفصلة ، لكن ذهنه لم يكن ليذهب الى أنهم سجنوا لأنهم سرقوا أو خطفوا أو اعتدوا ، أو حتى سهروا تلك السهرات الفريدة من نوعها مع موسيقى « المالوف » ونقر « الناغرات » وأنين الكمنجة ، وأحلام الأنفاس الزرقاء في حارة « السويقة » الحالمة ، وما جاورها من حارات ، أصبح يلفها الصمت والكتمان ، والمهام أصبحت مختلفة تماما عند الشباب ، الذين عرفهم وأحبهم وأحبوه ، اختلفت وأخذت أشكالا أخرى ، أقل ما يقال عنها أنها مهام نبيلة ، بل

يبدو أنها أنبل المهام وهم يعملون جميعا من أجل استرداد حريتهم وسيادتهم ، إنه لم يكن يحب الخطب الرنانة ، والمقالات الصحفية الملتهبة، والتحليلات .

والده ، الذي كان يهتم كثيرا بذلك عندما كان سليما معافى ، وقبل أن يقعده المرض الخبيث ، كان يحب ذلك ، لأن زمنه كان زمن الأحزاب والحركات الوطنية ، والخطابات الحماسية .

إنه يتذكر جيدا عندما كان والده يقضي السهرات مع بعض أصدقائه في حوارات شيقة وإبريق القهوة يمتليء ويفرغ وهم لا يكفون عن الجدال والكلام ، كل له وجهته ، وكل له رأيه ، وكل واحد منهم ينتمي لاتجاه معين ، أو حزب معين، أو مؤسسة معينة ، كانوا يمارسون مايسمى اليوم بالديمقراطية ، بكل نظافتها ، يتبادلون الآراء والأفكار والقناعات باحترام متبادل ، وود وتقدير للكبير من الصغير ، والعالم من الجاهل ، يتعلمون ويبنون عقولهم لبنة لبنة دون فوضى ، ويؤسسون للأفضل من الفكر والعلم والعمل في تواضع كبير ، وكان الوطن في كل ذلك هو الأسمى ، وحريته هي الهدف ، لتأتي من خلال تلك القناعات والسلوكات أخيرا ثورة التحرير الكبرى التي تكلل بالنصر المبين .

وهاهو اليوم يعمل ويتحرك مع رفاقه ، وكأنهم يضعون كل ما سمعوه وتعلموه قبل اليوم من طرف آبائهم بشكل مباشر أو غير مباشر ، موضع التطبيق والتنفيذ دون كثرة من كلام أو نقاش أو أسئلة .

إن دورهم فقط التنفيذ والعمل ، لا حق لهم في إبداء الرأي أو التحليل ، إن زمن ذلك كان الماضي ، أما في مهامهم هذه فإنهم أدوات للتنفيذ بعقل وعلم ، إنه الانضباط الذي يصنع الثورات ويحرر الشعوب ، ويحقق مختلف المهام الكبرى التي تبني للحضارة الإنسانية .

وتساءل بقلق :

* واليوم ترى ما هي النتيجة ؟ إنه لا بد من وقفة مهما كان ظرفها ، تسمح لنا بالتأمل ومراجعة الذات ، مراجعة الموقف ، نقد الأحداث التي نصنع ، وقفة توضح ، هل كذبنا مع هذا الوطن ؟ هل صدقنا معه ؟ وما مبلغ كذبنا أو صدقنا معه ؟

ولكن لماذا تفكر في النتيجة ؟ إنها بالأساس نتيجة غيرك ، حتما أن لكل عمل نتيجة مهما كان شكلها ، ونسبة النجاح أو الفشل فيها ، فكر فقط في أنك شفيت من دائك ..

وها هي أمك في ذاكرتك تميل مع عربة « الكاليش » يمنة ويسرة ، مهدهدة ، كأنها في مهد ، وقد اقتربتما من المقام ، حيث ستفي أمك بنذرها ، ويتم لها كل شيء ، كانت قد وعدت به الولي الصالح ، فلبي نداءها ، وتزوجت بأخت صديقك العزيز مراد .

أي النذور أسبق من الأخرى ؟ حياة والدتي كلها نذور، وكأني بها قد أبرمت عقدا مع هذه الروحانيات والأوهام ، عقدا يفكونه ولا تفكه ، يحلونه ولا تحله ، روحانيات تعتقد فيها ، ولا من إجابات واضحة

تشفى صدرها ، سوى هذه الصدف والظروف التي تحرك الناس وتصنع قناعاتهم ، وتفسر لهم كل الأمور كما يرغبون أو كما يتمنون .

وتلتقى الرؤوس ، رؤوس النساء بألوان المناديل المختلفة ، لتصنع فسيفساء جميلة ، ونظراتهن الموحدة الخاشعة تجاه مقام الولي الصالح ، وكل ما يحيط به من أشياء تبدو مختلفة عن كل الأشياء الأخرى ، حتى لو كانت من أصل واحد ، تبدو أشياء تتمتع بأرواح خفية ومرئية ، أشياء وهي جامدة ، تبدو وقد سكنتها أرواح شريرة وخيرة .

وتتحرك الأكف المخضبة بالحناء ، وقد أضاءت كل الجسم بنقوشها ولونها القرنفلي المتزايد كل ساعة بحرارة الجسم وتداعياته ، وغلبة الروح وهي تتماوج مع الأرواح الأخرى ، التي تسكن المكان وتحاول الهيمنة على الزمان أيضا ، وروائح العنبر والجاوي ، وكل بخور وعطور العطارين ذائبة في نسمات الربوة المنسية يوما ، والعامرة يوما آخر، الربوة المسكونة وهي تفعل فعلها في النفوس الشاردة المملوكة من طرف المرئيات والمخفيات ، واللسان يلهج بالدعاء والتوسل طلبا للبركة وقضاء الحاجات ، إن كل ذلك عند أمه والأخريات هو حياة الروح وروح الحياة ...

قال كمال لأمه ، وهما في الطريق للربوة المسكونة ، بعد جدال وأخذ ورد حول إلحاحها عليه لمرافقتها لشيخ الأسياد « سيدي محمد الغراب » :

* ما الذي ينقصنا يا أمي حتى نفعل ذلك ، لقد ذهب كل شيء لحال سبيله ، وعادت المياه الى مجاريها ، ولم يبق من تلك المشاكل سوى الذكرى ، الذكرى الباهتة .

* تنقصنا يا ولدي راحة البال، وراحة البال في النهاية، هي شعورك أنك لا ينقصك شيء لا تصريحك أنك لا ينقصك شيء ، ونحن لا زال ينقصنا هذا الشعور ، والمستقبل القادم الذي لا ندري عنه إلا أشباحا قاتمة ، يجب أن يكون المستقبل واضحا أمامنا .

ويردد في صدره تنهيدة عميقة :

* هل هي غزوة فاشلة أم غزوة بغنيمة ؟

لماذا تتحدث أمي عن المستقبل ، أو حتى تفكر فيه ، إنه سيكون حتما مختلفا عن اليوم ، لا بد من أشياء ستحدث صغيرة أو كبيرة ، تغير من الأمور والأشياء والقضايا ، وحتى الناس .

أصدقائي ربما يصبحون من سكان كوكب آخر ، وليس من سكان حينا ، والناس ربما سيكونون غير الناس ، أشكالهم ربما ستختلف عما هي عليه اليوم ، ربما تصبح أنوفهم أو آذانهم أطول ، وربما تصبح آذان الحمير والبغال أقصر وأجمل ، وربما تصبح كل الحمير الذليلة حمرا ذهبية مثل «الحمار الذهبي» في مراعي « مداوروش » ، لا بد لهم حينها من « سانت أوغوستين » جديد ، ولا بد لهم من أرض كـ « تاغست » و« مداوروش » و « هليوبوليس » ستكون قافلتهم

قافلة غير عادية ، والبراح ينفخ بوقه لينذر به القادمين ، وربما لن تكون هنالك حيوانات تماما ، أو أن وجودها لن يقتصر على كوكب واحد ، وربما أصبح الناس ساعتها ، قادرين على العيش دون قلوب ، ودون حب، دون إحساس أو مشاعر ، هكذا فقط يأكلون ويشربون ويتناسلون، وبينهم أنا وحبيبتي الملعونة عبر التاريخ ، والتي لا تأخذ حبنا بنفس الجدية التي آخذه بها أنا .

ما الذي انتظره من الغد وأسراره ، والتي لا تبدو جميلة أبدا وهي في عالم آخر غير هذا الكوكب بلونه الأزرق الزاهي المشرق ...

ما أجمل كوكبنا ، إنني لا أرضي عنه بديلا ، حتى ولو كانت الجنة، لقد تعودت عليه ، على جماله على الحياة فيه ، رغم المشاكل والمطبات والحفر والعذابات ، التي تتطهر كل مرة بدموع ساخنة وباردة .

ربما كان الكوكب الآخر يحوى ماء مخلوطا بماء الزهر أو ماء الورد.

وتذكر نساء عائلته والجيران والأحباب جميعا ، بدءا من والدته ، التي لا تشرب قهوتها عصرا ، إلا وهي مرشوشة بماء الزهر ، عملت هي نفسها على تقطيره وفصل عطره عن مائه ، في مواسم الزهر والورد ، عندما تصبح كل أسواق وأرصفة المدينة عبقة بأريج الربيع ورونقه .

كانت نساء عائلته ، ونساء المدينة كلهن يشربن القهوة ، يفضلنها ويقسمن بها :

* « وحق هذه الشاذلية » ...

نسبة لشيخ المعلمين « لحسن الشاذلي » الإمام المشترك بين شرق الجزائر وغرب تونس ، عندما كانت الأرض مغربا عربيا واحدا ، لحسن الشاذلي الذي كان يناول طلبته بالزاوية القهوة بنا ، حتى يتحملوا السهر للحفظ ، حفظ علوم الدين والدنيا ، لقد كان ذلك نوعا من جهاد النفس، من أجل العـــلم .

كوكب مخلوط بماء الزهر ، وآخر مخلوط بالملح أو الخل ، إننا لا ندري شيئا ، فلماذا المغامرة ؟

تطور العلم أمر جميل ونبيل ويدعو للفخر ، والعلماء يتسابقون كل يوم الى اكتشافات واختراعات جديدة ، لكن القليل منها فقط هو الذي سينفع البشرية على ما يبدو .

ألم يقترحوا القنبلة الذرية ويجربوها في صحرائنا على الأهالي ؟ وبعدها تلك الأسلحة الكيماوية والجرثومية ليقضوا على الإنسان بهذا السبب أو ذاك ، مرة باسم التخلف ، ومرة الديمقراطية ، ومرة الحرية ، ومرة الارهاب ؟

يبدو أن الطبيعة هي خلاصنا الأخير ، وليست التكنولوجيا ، شعور يجب أن يتطور في نفوسنا ، رغم ضغوط الواقع والعصر ، وعلومه المتقدمة ...

وتفطن من هواجسه ، لقد كان يهذي فعلا ، ورجع للماضي البعيد ، وقد كان ينتظر أمه مع الأخريات ، وهن يقدمن آيات الولاء والوفاء لقداسات ، قداستها في غيبيتها ، وجهلهم لها ولتفاصيلها ، وعجزهم عن التحدي لمعرفتها ، أو حتى السؤال عنها، ليقبلنها هكذا، كما هي أمس واليوم وغدا ، مسلمات لا تخضع لفهم ولا تحليل أو تفسير.

يكفيهن تحقيقا لأهدافهن ، أنهن وهن عائدات من هذا المكان الساحر والمسحور ، أنهن يشعرن بالكثير من الراحة والاسترخاء الذهني ، والصفاء الفكري ، لقد كن قاب قوسين أو أدنى من الروح العلية ، طابت قلوبهن بحب أقوى من كل أنواع الحب ، وصغرت كل قضاياهن ، وقد كانت كبيرة كا لجبال أمام هذا الحدث الأعظم والملكوت الغيبي .

إن المزار وسيد المزار، استطاع أن يحتوى كل الآلام ، ويمسح كل العذابات ، ويحول كل ذلك أملا ووعدا ورضا .

***

هنالك شخصيات تثير الانتباه، تعبر أيامنا ، فنشرها ، ونختزن تفاصيلها قد نكرهها أو نحبها ، قد تثير الدهشة أو السخرية أو الاحترام أو التساؤل فقط ، بعضها يصبح نموذجا نقتدي به بعض الزمن أو كل الزمن ، والبعض نكاد نقدسه ولا ننساه أبدا ، وبعضها الأخر يصبح مسطرة نقيس بها أحكامنا على الآخرين ، أو صورة نمطية نحكم من خلالها على الآخرين ، دون أن ندري أننا نسقط من البداية في مطب الأحكام المسبقة ، رغم أن الضربة التي توقعنا لا تقتلنا ربما تجعلنا أقوى ، هكذا برهنت الأيام للأفراد والجماعات ، أنه لا بد من الوقوع الوقعة القوية أو الوقعة الضعيفة ، والمهم أن ننهض منها من جديد ربما لننتظر وقعة أو وقعات أخرى .

من هذه الشخصيات ، صديقي مراد بل أخي الذي لم تلده أمي ، وصهري فيما بعد ، لأنني تزوجت أخته ، التي تشبهه كثيرا «نفيسة» ، صديقي مراد شاب جميل شكلا وروحا ، وإلا لم أكن لأحبه كل هذا الحب ، لكن بعض سلوكاته كانت دائما تخلق في ذهني علامات استفهام كبيرة ، كان يتصرف كشخص كبير وعاقل ، وليس لأحد أن يملي عليه تصرفاته ، ولا أن ينتقدها ، وكأن صفات الكمال اقتصرت عليه وحده .

مراد واضح ناصع الوضوح ، صريح مباشر ، لا يتعب معه محدثه بالبحث والسؤال ، يفهمه بسرعة ، لأنه لا يراوغ ولا يداري ولا يكذب، الجبان وحده هو الكذاب في نظره ، صديقي كالمرآة تظهر لك كل شيء على حقيقته ، لا تتعبك بالبحث والتنقيب عن الأشياء، إنك تجد في وجهه كل ما تريد، وفي ابتسامته المشرقة دائما أكثر مما تريد .

كنا في بعض سهرات الصيف نخرج معا بعد العشاء لنتفسح على أرصفة ساحة « لا بريش » هاربين من الغرف الضيقة والبيوت المغلقة في حينا الى البراح الفسيح ، تاركين المجال للنساء والفتيات في البيت المشترك ليتحركن بحرية ويسهرن ويمرحن دون عيون الرقيب من الرجال خصوصا الشباب ، نخرج معا حيث الناس جميعا يجتمعون رغبة في فسحة ليلية عليلة ، يأكلون المرطبات في الهواء الطلق ، ويتمتعون بكل شيء جميل خصوصا النظر لبنات المعمرين من سكان المدينة .

« لا بريش » ساحة كبيرة يزين وسطها ذلك النصب الذي يحمل تمثال « الديك » وهو نافش ريشه ، زهوا ورمزا للسيادة الاستعمارية .

لقد تعود الصديقان على « الديك » لأنهما يريانه في كل شيء في الأوراق الادارية ، وحتى الأوراق النقدية ، وغير ذلك من المطبوعات الرسمية .

ساحة « لا بريش » عند المعمرين ، هي ناديهم في الليل ، وفخرهم في النهار، حيث تبدو الساحة وقد توسطت أجمل البنايات المنجزة بعد احتلال المدينة في بداية القرن التاسع عشر، دار الأوبرا ، ودار العدالة ، ودار البلدية ، ودار الحاكم العام ، وكذلك الحديقتان ، حديقة الأغنياء وهي ممنوعة على الأهالي والكلاب ، والثانية للأهالي الفقراء وللكلاب ، وفوق هذا وذاك فإن الساحة وما فوقها هي الثغرة التي استطاع قائد حملتهم « الجنرال كلوزيل » في ذلك الوقت من بداية الاحتلال أن ينفذ منها للمدينة ويحتلها لكن بعد أن يقاومه سكان المدينة بيتا بيتا ، وحيا حيا ، ودربا دربا ، لينتصر عليهم بالعدد والعدة ، وينتصرون عليه بالموت ، وقد فضلوها على الاستسلام ، فيصبح لانتصار الجنرال طعم العلقم .

هو تاريخ قديم ، لكنه انتعش في الأيام الأخيرة ، وأصبح موضوع حوار ساخن ، كل مرة بينه وبين صديقه مراد .

ليس هذا ما يبعث كمال على التساؤلات ، حول سلوكات صديقه مراد فحسب ، ولكنه انطلاق مراد بنهم في الحوار حول كل ذلك بعدما يكون قد شرب كأسا أو كأسين من الخمرة في أحد بارات ساحة « لا بريش » بديكها المنفوش الريش ، الرامز للسيادة على غير أرضه .

كان مراد يشرب الخمرة ، وكمال يكتفي دائما بعصير أو غازوزة، وكم نصحه كمال بالتوقف عن ذلك ، لكن مراد يصده بقوة وهو يردد كل مرة :

* اهتم بحالك يا كمال ، ولا تهتم بحالي ، إنها الحال الوحيدة التي أشعر فيها بالراحة ، إنني عندما أشربها أشعر أن قيودي قد انفكت ، ولساني ينطلق ، وأقول كل ما أريد دون أن أفكر أبدا ، التفكير يتعبني يا أخي ، يجلدني كل مرة آلاف الجلدات ، يبعثر ذهني فلا يستقر على رأي، إنني لا أحب التفكير ، أحب فقط الحركة والعمل ، لماذا لا نتحرك دون تفكير ، نقوم بكل ما نريد دون أن نمهد له بعملية الهذيان ، والتي كثيرا ما تقف عائقا أمام أي فعل نريده ، ألا تفهم ؟ إن كأسا واحدة من شأنها أن تجعلني حرا طليقا في الزمان والمكان .

وعندما كنت استمع لمراد وأراه وأعذره ، بل وفي الكثير من الأحيان أتعاطف معه ، لم يكن يخطر ببالي أنه سيسبقني في هجماته ومبادراته ، التي كثيرا ما أنب عليها من طرف مسؤول النشاط الثوري بالخلية ، لأنه غير منضبط للأوامر ، إن عملنا شعاره الانضباط ، بل إن

الانضباط أهم شروطه ، كن شجاعا كما تريد لكن في الوقت الملائم ، وبعد تلقى الأوامر وليس وحدك وبمبادرة منك .

مراد يحتسي الخمرة بتلذذ كبير ، ولم يكن وحده يفعل ذلك من الشباب ، بل وحتى الشيوخ الذين كانت تؤويهم بعض أرصفة المدينة سكارى مدمنين مطرودين من الأهل والأسر منبوذين وكأنهم أصبحوا في عداد الأموات .

قال له والده يوما عند الحديث عن هؤلاء :

* ورغم ذلك يا كمال فإن شارب الخمر أهون كثيرا من الذي يتعاطى المخدرات ... الا ترى أن الشرطة تلاحق متعاطي المخدرات أكثر من ملاحقتها للسكارى ؟

إن الاستعمار يحاول أن يحافظ علينا أصحاء لخدمته، وخدمة مستعمراته، سواعدا وعقولا ، إننا بالنسبة إليه الجنود عند إعلانه لحروبه ، والبناة في عملية التعمير والبناء، عكس ما يفعله مع جيراننا ، إنه يراهن على بلادنا وشعبنا أكثر ، إننا بالنسبة إليه جزء من الوطن الأم ، لذلك طال استعماره الاستيطاني لبلادنا .

لكن مراد لم يكن ليفقد السيطرة على نفسه ، وهو يفعل ذلك كل مرة بحضور صديقه كمال ، والذي يدرك مطمئنا أنه لن يفشي سره أبدا ، لا يفقد السيطرة ، بل تراه صباح تلك الليلة ، وقد خرج من البيت قبل صديقه حليقا نظيفا ، تفوح من شعره رائحة دهن « القومينا » موضة

تسريحة ذلك العصر ، يقفز درج البيت المشترك المهترىء في بعض أركانه، كان يقفز كغزال شارد ، لا يمكن أن يكون طريدة لغيره في يوم من الأيام، وكثيرا ما كان يتم قفزاته بتصفيرة من فمه نداء لصديقه الحميم كمال ليستعجله في النهوض أو الخروج ، ليلتقي الشابان خارج البيت في أعلى زنقة « حلموشة » بحيهم « سيدي جليس » يلتقيان في مصافحة خاصة بأن يضرب كلاهما كفه في كف الآخر، لمسة احتضان وحب ، ثم يفترقان في آخر الحي عند الطريق الجديد ، كل الى شغله ، كمال يفتح دكان والده الصغير لبيع البقول ، ومراد لورشته في مصنع التبغ « باسطوس » المصنع الذي عوده التدخين منذ بدأ عمله هناك ، وحتى لو لم يرغب في ذلك مباشرة ، فإنه وهو داخل المصنع كل شيء فيه جسمه وأنفه وفمه ولباسه مجبر على التدخين ، وقد أصبح مناخ المصنع ومكانه والمحيط كله تبغا في تبغ .

هذا الولد مراد ، له من عوامل التأثير على غيره في الكلام والسلوك ما يعجز الغير عن تفاديه أو تجنبه ، وكمال كان من هذا الغير ، لكنه لم يتأثر بمراد ، إلا فيما هو إيجابي فيه وجميل ، ورائع ، إرادته ، رجولته ، غيرته ، شهامته ، أما عدا ذلك فكمال اقدر من صديقه في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه ، قدرته على الحب ومعاناته ، على ضعف الحب ، وربما مراد أيضا يملك كل ذلك من مشاعر وأحاسيس ، لكنه كثيرا ما يعكس تأثيرها على نفسه سلبا ، سلبا في نظره وهي تصدر منه ،

اما وأنها تصدر من غيره ، فإنه لا يري مانعا في ذلك ، إنها مشروعة عند غيره ، غير مشروعة عنده ، وكأنه يحرم على نفسه ما يحلله للآخرين ، وكأنه خلق من عينة غير عينات الآخرين ، كان وكأنه يعذب نفسه بحرمانها من كل شيء جميل ، الحب وقوة وضعف الحب ، وكل المشاعر الانسانية الجميلة الرائعة رغم مضاعفاتها .

كان مراد شابا غير عادي ، أو هكذا يريد أن يكون ، وهكذا كان وانتهى ، نهاية غير عادية عند كل الناس ، وقد دخل الجميع في عالم جديد ، ثورة ونضال وفداء واستشهاد في عز الشباب ، وقضية تجدد نفسها مع كل جيل ، قضية تحرير الوطن، وإخراج المحتل من الأرض، وقد كبس على أنفاسها مدة قرن وربع قرن ، لم يحاول فيها أن يستفيد من خيرات هذه الأرض فحسب ، ولكنه هدف الى تغيير الإنسان فيها ، بل إبادته ، واستبدال إنسان بإنسان وحضارة بحضارة ، غير مكتف بما فعل الاستعمار ببلدان أخرى ، حيث استولى فقط على الثروات ، وأبقى على الإنسان فيها كما هو بعاداته وتقاليده وحضارته وحتى بتخلفه ، ربما للأمر جانبه الإيجابي في السبق للتطور والمدنية ، ولكن ذلك لا يبرر الثمن المدفوع وهو حرية الإنسان وكرامته وسيادته على أرضه .

عندما وقعت أحداث « الثامن ماي 1945 » كان مراد وأعيالها ، مثل صديقه كمال ولو أنهما كانا صغيرين ، لكن الحالة اليائسة التي كان عليها الناس في المدينة وهم يتعاطفون مع الآلاف من ضحايا المظاهرات

السلمية ، التي قامت في عدة أنحاء من البلاد ، قد تركت بصماتها على قلوب وعقول الأطفال أيضا ، وعلى سلوكاتهم وأدركوا أن هذا الوطن ليس بحالة طبيعية أبدا ومنذ أمد بعيد .

قال مراد لصديقه كمال يوما وقد شرب أكثر من كأس :

* والله يا أخي عندما أرى يهوديا أو نصرانيا ، تأخذني حالة غريبة ، ولولا بقية من عقل ، لقتلت كل من وجدته في طريقي منهم ، انظر إليهم ، لهم كل شيء ولا شيء لنا سوى الفقر والحرمان ، والبيوت والأزقة ، والحمير وقرب اللبن التي تملأ ساحة حينا يوميا ، قوتنا الوحيد .

يلبسون أجمل الملابس ، ويأكلون ألذ الطعام ، ويركبون السيارات، ويتعلمون وأطفالهم ، انظر ، أنظر ، كم أتمنى أن تلبس أختي نفيسة مثلما تلبس نيكول وسوزان وراشيل ، إنها أجمل منهن جميعا أليس كذلك ؟

ويسكت ، وكأنه فقد القدرة على الوصف والكلام ، وطار منه خيط الموضوع مع خيوط أخرى متشابكة ، لا تفسير ولا حل لها في نظره على الأقل اليوم ، رغم أن الأشياء لا تأتي هكذا صدفة إن لها دائما تفسيرا ما .

إلى أن تأخذه وصاحبه كمال عاصفة الثورة مع الآخرين ، وكأنها غيث سيطهر كل شيء الجماد والحيوان والإنسان ، يروي أرضا صحراء ونفسا أكثر تصحرا ، فيقبل عليها وكأنه وجد ضالته المركونة في وعيه

البعيد ، فيقوم بنشاط القليل منه فقط ، هو الذي يعلم به صديقه كمال ، أما الكثير فهو من حقه وحده ، لا يطلع عليه أحدا ، ليس فقط لأنه مجبر على الكتمان ، بل لأن الكتمان والصمت من طبيعته الملتصقة بنفسه وعقله ولسانه ، لولا بعض الكؤوس كل مرة كانت تخونه فيبوح ببعض ما في نفسه لصديقه العزيز .

إلى أن تكتشف الشرطة الاستعمارية سره ، بعد أن تلقي القبض على رئيسه المباشر ، والذي صبر على التعذيب ساعات ، سمحت للأوامر أن تصدر لمراد بالاختفاء ثم الهروب من المدينة والالتحاق بالجبل حالا ، ليلقى بنفسه في أول معركة شرسة وهو المدرب على السلاح بالمدينة ، ويقضى فيها ، وكأنه لم يكن في يوم من الأيام ملء السمع والبصر ، لقد حقق أهدافه كلها في التميز والغرابة والتفرد ، لقد كان موعودا بأقصى آيات التضحية والاستشهاد .

* لطالما سكنني صديقي مراد ، وكم يحلو لي عندما أفكر أنني أنا أيضا سكنته ، معه تنهار حدود نفسي ، وتتفتح أبواب روحي المغلقة ، في الكثير من الوقت ، واليوم وهو في عداد الأموات ممن يسمون أحياء لا يمكن أن يموتوا رغم أنهم ميتون ، أجدني متأرجحا بين الوهم والواقع ، وأنا أفتقد روحه الجميلة ، ومروءته ، وابتسامته ، وقد امتزجت بها دائما خطوط من الحزن المبعثر، دون تحديد ، لقد افتقدت فيه مرآتي التي

أنعكس فيها بصدق ، ولم أعثر على صديق مثله ، ببساطة لأنني لم أبحث ولا أريد أن أعثر ، لأنني أعتقد مسبقا أنني لن أجد له مثيلا .

***

في بيتنا المشترك بالقصبة ، حالات ونماذج بشرية مختلفة ، ومن هذه النماذج شخصية «خالتي زوينة الخضراء» جارتنا ، هي امرأة في الخمسين ، قصيرة القامة ، جميلة الوجه ، وأطراف جسمها هي أقرب لأطراف أجسام الأقزام من أطراف العادي من الأجسام البشرية ، كان كل شيء فيها صغيرا ، لكنه مستقيم كامل بالنسبة للقامة ، لا ينقصها عضو من الأعضاء ، لكنها كانت كدمية ، كانت كصغيرات القرن السادس عشر في أوروبا ، فتيات يلبسن لباس النساء وأعمارهن لا تعدو العاشرة ، إن الفنانين في أوروبا أبدعوا كثيرا في تصوير هذه الظاهرة وقتها، وجدران وأسقف القصور التاريخية في أوروبا مليئة بلوحات تمثلهن، اللباس لباس امرأة، والزينة زينة امرأة، والتبرج تبرج امرأة، والجسم جسم طفلة، وعند مشاهدتك لهن ، تعتقد أن ناظريك لا قدرة لهما على

التمييز ، هل هن بنات صغيرات ، أم سيدات كبيرات ، يتأرجحن بين الطفولة والنضج ، فيفقدن الهوية النهائية ، ويدفعن النظر للانحراف الذهني، والخيال المضطرب ، كذلك تتأرجح شخصية « زوينة » شكلا ، وكذلك تتأرجح مضمونا بين ملاك وشيطان ، بعضهم يعتقد أنها ملاك ، وهي تحفظ كتاب الله ، وتشفى بقراءته وكتابته في شكل أحجبة بعض العلل والأمراض ، وتقضي على بعض المعوقات في الحياة ، فهذه عانس جاءت تلتمس فك عقدها في الزواج ، وهذه زوجة عقيم جاءت تستعجل الفرج في مولود يملأ عليها حياتها ، ويكمل صورتها مع زوج لا يرى في المرأة كمالا إلا بالإنجاب ، وهذا عاشق ولهان جاء يلتمس عملا وأسبابا لمن يحب حتى تعشقه وترضى عنه .

كثيرة هي الحالات التي تمر على خالتي زوينة ، لكن ما يبعث على الدهشة في هذه المرأة ، هي غرفتها في بيتنا المشترك الكبير ، غرفتها كانت واسعة جدا على شكل مستطيل ، تعيش فيها وحدها ، وقد فرشتها بشكل مختلف عن أفرشة الغرف الأخرى في البيت الكبير ، ستائرها خضراء ، وسجادها أخضر ، والصندوق الحاوي لأشيائها النادرة قد زينت رسوماته بالطيور الخضراء ، والأوراق والزهور والنجوم الخضراء ، لتلبس هي في هذا الجو الأخضر لباسا أخضر ، ومنديلا أخضر، يخفي شعرها الأحمر ذي الظفائر التي يفوق طولها ذراعيها ليصل الى آخر الفخذين ، ويخيل للمرء وهو يدخل غرفتها أن أنواع وروائح العطور

والبحور التي تستعملها لونها أخضر، ودخانها أخضر، وجاءت من جنة خضراء .

كانت خالتي زوينة ، أول من قصدت والدتي عندما كنت أعاني من أزمة حبي لراشيل ، قصدتها شاكية باكية لتطمئنها المرأة الخضراء المتأرجحة بين الطفولة والنضج ، بأنني سأشفي وسأتزوج كما تحب أمي لي ، وكانت تقصد نفيسة إنها تعلم كل شيء عن الأمر ، عكس الجارات الأخريات .

لكن خالتي زوينة ، كانت أيضا في نظر آخرين ، لا تمثل سوى شيطانا رجيما ، يشرك بالله ، ويدعى القدرة على تغيير أقدار الناس ، وكان من بين هؤلاء الآخرين والدي ومعظم الجيران من الرجال ، لذلك كانت أمي تخفي دائما عنه لجوءها إليها في كل وقت ، وأخيرا في محنتي مع اليهودية .

كان والدي وجيرانه من الرجال لا يؤمنون بهذه الخرافات والشعوذات ، التي كثيرا ما تقع النساء فريسة سهلة لها ، وكأنهم كانوا الأقدر على الفهم من النساء ، في ذلك الوقت ، وأكثر وعيا منهن ، بسبب الدروس التي كانوا يتلقونها في المساجد ودور العلم ، رغم أن النساء أيضا ومنهن أمي كن يتلقين الدروس كل مساء في الجامع الأخضر على يد الامام ابن باديس ، لكن ربما لم يكن ذلك كافيا ، مثل الذي كان يتحصل عليه الرجال ، أو كان أضعف من قوة وقهر العادات السائدة .

لكن الذي حدث فيما بعد أن أمي تيقنت أن الشفاء الذي شملني الله برعايته ، هو من صنع وبركات خالتي زوينة ، وسيدي محمد الغراب، وسيدي راشد وغيرهم من أولياء الله ، وليس لغير هؤلاء الفضل في ذلك أبدا ، إن الذي حصل هو نتيجة رضا الأولياء والصالحين عليها ، وعطفهم على حالتها وإعجابهم بنيتها الصافية وقناعتها بقدرتهم .

وكم تساءلت داخل نفسي وقتها وفيما بعد ، هل خالتي زوينة هذه المرأة الصغيرة الخضراء ملاك أم شيطان ؟ والى اليوم لم أحصل على إجابة ، رغم أنني كنت ألوم أمي ، وأتهمها بالشرك بالله عندما تتكل على البشر مثلها ، دون الاتكال على الله وحده وعدم الإشراك به .

لم أحصل على إجابة ، لأنني بداخلي كنت أخزن علامات استفهام كبيرة، أرجحتني الى اليوم بين الشك واليقين، حتى بعدما أدركت عبر دراستي للفلسفة أن اليقين المطلق بدايته شك مطلق .

وعندما توفيت أمي بعد وفاة والدي بخمس سنوات ، بكتها خالتي زوينة بكاء صادقا من القلب ، وغيرت ملابسها من اللون الأخضر الى اللون الأسود حزنا وحدادا .

لقد أحبت المرأتان بعضهما ، وجمعت بينهما ليس الجيرة فحسب، ولكن تلك الثقة المطلقة ، والانبهار والاعجاب الذي كان يصدر عن أمي تجاه جارتها المفضلة ، هذه الجارة التي كانت الملجأ والملاذ لها في كل الظروف والحالات ، حالات الضيق واليأس ، إنها لم تكن كالأخريات

من الجارات، عندما تسمع كلمة أو خبرا تعيده على الأخرى ، ثم الأخريات ، ليتفشى الخبر بين جميع من بالبيت الكبير، ثم يتجاوزه لمن بالحي والشارع ، حتى يصل للرجال ، وهذا ما كانت تخشاه أمي ، فكانت لا تتحدث ، ولا تتنفس بهمومها ، إلا مع خالتي زوينة ، لأنها فيها شيء لله مع من يقصدها ، ومن قصدها ، فكأنما قصد وليا صالحا أو مقام ولي ليس بينه وبين الله حجاب .

وليس هذا هو السبب الوحيد لانبهار أمي بهذه المرأة ، إن السبب الأهم هو أن المرأة كانت عندما تبدأ في تلاوة القرآن ، وتسمع أمي ترتيله، تقول فجأة أن جسمها يقشعر، وتبرد أطرافها ، وتصيبها السكينة والخشوع ، وتكاد تدخل في غيبوبة ، وكم جئتها بكوب من الماء ليساعدها على الرجوع لحالتها الطبيعية، بعد أن تحمد الله وتشكره على كل الأحوال ، وتدعوه أن يسامح والدها ، الذي هو جدي لأنه حرمها من نعمة فك الخط وقراءة المصحف الشريف على وجه الخصوص .

كانت المرأة الخضراء كثيرا ما تكتفي من المريدين والمريدات المترددين على البيت الكبير ، كل يوم من بعد صلاة العصر ، الى حين صلاة المغرب ، أشكال وألوان من الناس يشتركون في أمر واحد ، هو هذه السحنة الحزينة التي تعلو وجوه الرجال ووجوه النساء ، عندما يترعن الخمار والملاءة السوداء وإلا لماذا يقصدون المرأة الخضراء ؟

قلت كانت كثيرا ما تكتفي من هؤلاء جميعا بوالدتي ، وأشباه والدتي من الصادقين ، فا لقناعة والثقة لا يمكن تغليفها بالنفاق والرياء في رأيها ، إنها لا تريد لا المال الكثير ، ولا الهبات ، ولا الهدايا ، إنها مكفية اقتصاديا ، مات زوجها وترك لها الجمل بما حمل كما يقولون ، تركها شابة لم تغرف من لذائذ الحياة ، إلا تذوقها الأول ، وقد تزوجها بعد عدة زواجات له ، زواجات كان يرجو من ورائها الخلفة والذرية ، دون أن يعترف يوما وهو يكرر الزواج ، أنه هو السبب وليست النساء العديدات اللائي تزوجهن ، تركها ومات بداء لم يكن يعرف له اسم في ذلك الوقت ، وهو سرطان الجلد ، كان كل مرة يعالج بدواء يوصف له ، حتى أنه مرة صبغ جسمه كله بمادة زرقاء وصفها له أحد الناس من المحتالين المدعين دون جدوى ، ليموت ويدفن أزرق اللون ، وكنت اتساءل لماذا لم تعمل على شفاء زوجها ؟

وعندما مات لم تتزوج زوينة من بعده ، رغم نصائح بعضهم ، لكنهم لم يلحوا في ذلك ، كما يحدث عادة مع كل شابة صغيرة ترملت ، خوفا عليها من الانحراف أو كلام الناس ، لم يلحوا ، لأنهم كانوا قد أدركوا أن الأرملة امرأة مباركة ، لا رغبة لها في الدنيا ، تقية صالحة ، همها الوحيد أن تقدم خدماتها الخيرة للناس المهمومين ، لتربح بذلك حسنات تضاعفها كل مرة .

***

من النماذج البشرية التي أتذكرها أيضا جارنا « عمي أعراب » وهو الآخر نموذج فريد من نوعه في بيتنا ، إنه نزح من ناحية القبائل الكبرى وهو شاب صغير ، جاء للمدينة كغيره من الحالمين بالمدن الكبرى، يبحث عن عمل وعن مستقبل ، وسرعان ما يجد العمل والمستقبل أيضا ، ليستقر ويتزوج من أحسن العائلات وينجب أطفالا كالزهر.

هذه هي مدينتي تستقبل من يدخلها بالأحضان ، وتضمه بحنان ورعاية ، راعيا كان أو خماسا في قريته ، ليصبح بعد ذلك من بين الأعيان، طبعا نتيجة عمله وكده واجتهاده أيضا ، إضافة الى أن مدينتي يتسم أهلها الأصليون بالتقى والايمان ، إنهم لا يميزون بين الناس ، لا في اللون ، ولا في الجهة ، ولا في العرق ، يكفي أن ضيفهم يكون صالحا

ونشيطا وجادا في عمله ، عند ذلك تفتح أمامه كل الأبواب ويحظي بالرعاية والمساعدة ، ويتزوج أجمل البنات ، ويصاهر أرقى العائلات ليصبح الداخل للمدينة مدينيا بعد وقت قصير في عاداته وسلوكاته ومظهره وحتى في لغته ، يتمدن هكذا بسرعة وهو سعيد بذلك ، وينسى بسرعة أيضا أن أصله وجذوره من هنا أو من هناك ، معتزا بانتمائه الجديد للمدينة التي كثيرا ما تهضم ولا تهضم ، تؤثر ولا تتأثر ، تعطي ولا تأخذ ، في تسامح وتضامن وتواضع .

« عمي أعراب » كان يتعلم ليلا في أقسام محو الأمية ، ثم تدرجت به معارفه ، فبدأ يمارس السياسة ، والتحق بالحزب الشيوعي ، وكان يعد زوجته الجميلة بهدية ثمينة ، إذا نجح زعيمه بالحزب في الانتخابات ، وبعلقة ساخنة إذا لم ينجح زعيمه .

رهان لا يراهن به ، إلا مع زوجته ، فهي الوحيدة التي يمكن أن تقبل منه مثل هذا الرهان الظالم المجحف ، طاعة وحبا .

لكنها في يوم من الأيام يفيض بها الكيل ، فتغضب وتطلب منه الطلاق فيتوسل إليها ويوسط أهل الخير لا سترضائها ، وقديما قالوا :

* لا تظلم الضعيف أو الجبان ، لأنك بذلك ستعلمه الشجاعة .

***

من النماذج التي علقت بذهني جارنا « عمي أحمد شمينو» يسمى كذلك ، لأنه يعمل بمحطة السكة الحديدية في تنظيف عربات القطارات المارة بالمحطة كل يوم .

« عمي أحمد شمينو» كنت أكرهه كرها شديدا ، وكذلك كان صديقي مراد لا يحبه ، بل يتمنى موته كل مرة ، كنا نكرهه جميعا ، لأنه كان رجلا قاسي القلب ، قبيح الروح ، كان دائما غاضبا مكفهر الوجه، مضطرب الأحوال .

وكان كثيرا ما يصب غضبه وغيظه على اقرب الناس إليه ، إبنه « صلوح » الذي كان فتى رقيقا وديعا ، فكان كل مرة يشبهه بالبنات ،

ويعيره لآنه كان يتحمل أذى أقرانه ، ولا يرد عليهم بالمثل ، ولا يؤذي أحدا .

كان يضربه كل مرة بسوط مصنوع من جلد الحيوان ، سوط يابس معلق دائما في وا جهة الغرفة ، وكان « صلوح » سواء ضرب في اليوم أو لم يضرب ، يشعر بوقع ذلك السوط على ظهره ، كلما قابله معلقا وهو داخل أو خارج من الغرفة كان « صلوح » معذبا أبدا ، إن لم يكن بالواقع فهو معذب بالخيال .

قال والدي يوما ، معلقا على علقة أخذها « صلوح » ليسمع كل الجيران بكاءه وأنينه :

* لله في خلقه شؤون ، ما هذا يا رب ، الله يهديه ، لماذا يفعل ذلك ، ومع فلذة كبده ؟

لكن « عمي أحمد شمينو» لم يهده الله ، لأنه لم يتوقف عن سلوكه ، إلا عندما رحل عنه « صلوح » هاربا من البيت دون رجعة .

و« عمي أحمد شمينو» بدل أن يبحث عن إبنه ليرجعه للبيت ، كان يعكس حزنه وخطأه في الشجار مع زوجته ، متهما إياها بأنها هي التي أفسدت الولد وشجعته على الهرب ، الى أن هربت منه هي أيضا عائدة الى أهلها بإحدى دواوير جيجل .

***

أما الشاب « حميد » ابن جارتنا مسعودة فقد كان صديقا لنا وأخا ، لكنه كان أعمى فاقدا للبصر ، يتيم الأب ، الذي ورث عنه ضعف البصر الى أن أصبح أعمى نهائيا .

كان حميد خفيف الظل ، قويا جميلا وسيما ، يأخذ العاهة التي يعاني منها مأخذا غريبا ، يختلف عن أي مكفوف قابلناه ، وأنت معه لا تشعر أنك مع أعمى أبدا ، إنك تشعر وكأنك مع شاب لا ينقصه شيء ، في كلامه أو حواره أو سلوكاته، حميد لا ينقصه شيء ، سوى نور العينين، كان رجلا كاملا ، إضافة لروحه المرحة ، ونظرته الساخرة للحياة.

اصطدمت به مرة في رواق الدار ، فعرفني ثم عقب ضاحكا :

* ماذا بك ياكمال ؟ هل أنت أعمى ؟

وقال لي يوما ونحن نتبادل حديثا ذا شجون :

* كمال ، يا صديقي العزيز ، أنت تتكلم عن النهار والليل ، كيف تريدني أن أعرف أن الدنيا ليل أو نهار ؟ إنني من كثرة عماي أصبحت غير قلق على البصر، بل إنني أرجو أن أبقى كذلك لقد تعودت...

وساعتها وهو يقول لي ذلك ، بكيت ، ولو أنه لم ير دموعي ، وحمدت الله على نعمة البصر ، لتهون علي نقمة الحب .

بدأت علاقتي بحميد في شكلها القوي ، عندما حاولت يوما مساعدته على الدخول للبيت المشترك ، وقد فاجأتنا الأمطار ، لكنه رفض مساعدتي قائلا في غبطة حقيقية :

* دعني يا رجل ، أتمتع بالمطر ، إنها تمسح آلامي ، ألا ترى أنها دموع الرب ، وهو يبكي على المظلومين من عبيده أمثالي ؟

وكثيرا ما كان يعبر لي عن حبه قائلا :

* كلهم يقولون عنك أنك جميل ووسيم ، أنني شخصيا لا أرى فيك شكلك ، بل أرى فيك معدنك ، الشكل للعين الناظرة ، والمعدن للعقل البصير .

ومعه فقط عرفت ما الفرق بين الشكل وبين الجوهر والمضمون .

* أين أنوارك من أنوار الفيلسوف « كانط » وأين تجربتك في صعودها وهبوطها من تجربته ؟ إنه لا بد أن لكل واحد منا تجربة مهما كان شكل ومضمون هذه التجربة ، إنها حق لكل واحد منا ، لا يمكن أن يسلبها منه أحد .

لتكن لك الشجاعة يا صديقي على استخدام فكرك وروحك ، إنك بذلك تصبح مستنيرا ، ولك أنوارك مثل « كانط » نفسه ، تصبح فيلسوفا ، لكن اجعل أنوارك تسلط على روح الحياة أكثر من ماديات الحياة .

ها أنا أقع مرة أخرى في فخ العجز عن البوح ، هذه العملية الخطيرة والمهمة الصعبة ... كم أتمنى أن أكون كالشجرة وهي تبوح بسرها عبر الأوراق الصفراء المتساقطة ، والقمر وهو يبوح بأشجانه من خلال طلاته الخجول عبر سحب متناثرة ، والبحر وهو يبوح بجواهره ، والفضاء بأنينه ...

إنها سيمفونية رائعة ، ينصت لها الإنسان ، وهو صامت غير قادر على البوح .

ها أنا أتنازل مرة أخرى عن أشياء ، اعتقدت يوما أنها مبدئية ، عند ما أرى أن هذا التنازل يحمي راحتي ، ويديم لحظات هنائي ... إننا كثيرا ما نخاف من الاضطراب الذي قد يصيب حياتنا بسبب هذه

المبدئيات الصغيرة ، والتي كانت عظيمة في يوم من الأيام ، وقزمها بعضهم بإلحاحهم وإصرارهم على الرداءة .

***

هنالك حالات نعجب بها ، أو حتى نحبها ، وهنالك حـــالات نرثى لها ونتألم، من تلك الحالات حالة جارتنا «العارم» وزوجها «رابح » شخصيتان متناقضتان ، بل هما على طرفي نقيض ، ورغم ذلك جمع بينهما الزواج وخمسة أطفال ، كيف حصل ذلك ؟ لا أحد يدري ، بل الجميع يؤكدون أن ذلك حصل لأن ذلك قضاء وقدر ، وقبل أن يتزوج النـــاس على الأرض يكونون قد سبق وتزوجوا في السماء ، ولا أحد من الجميع يتعب ذهنه ، ويحلل ويفسر ويضع الأسباب والمسببات ...

يحصل الزواج دون رضا الطرفين ، ودون أي توافق اجتمـــاعي أو ذهني أو شكلي ، ودون أي تقارب في السن ، أو في الميول والطبـــاع ، ربما كان لكل طرف منهما أحلام أخرى ورغبات ، دون الإفصاح عنها

للأولياء ، إن ذلك يعتبر وقاحة وخروجا عن العرف والعـــادة ، والأولاد إنما خلقوا لطاعة أوليائهم فقط ، فهم أدرى بمصالحهم .

ورغم ذلك أنجب عمي رابح من العارم وأنجبت منه خمسة أطفال.

تنام على الضرب ، وتستيقظ على السب ، وتطرد من الغرفة الى السقيفة هي وأطفالها ، لتنام فيها كل مرة ، حتى يطلع النـــهار لتـــذهب وتغضب عند أهلها أياما ، ثم ترجع له باكية متوســـلة ، لأن أهلـــها لا يريدونها إلا وحدها ، وليس مع خمسة أطفال .

وتستقبل العارم زوجها ، كل ليلة مخمورا ، قذرا برائحة الخمـــر والتقيؤ والبول ، لتقوم على تنظيفه ، فينام للصباح ، وعندما يستيقظ يعيد الكرة معها ضربا وشتما وطردا في ليالي الشتاء الباردة .

ورغم ذلك أنجبت منه وأنجب منها خمسة أطفال ، كيف حـــصل ذلك ؟ لا أحد يدري ، ولا أحد يجتهد في التفسير والتحليـــل وإعمـــال العقل ، سوى أن ذلك قضاء وقدر ، ولا مفر من القضاء والقدر والإيمان به خيره وشره .

لكن عندما كبر الأطفال الخمسة ، هرب يوما أكـــبرهم ثم تبعـــه الإخوة الآخرون واحدا بعد الآخر ، كل الى مكان ، ربما حاولوا إحداث بعض التغيير فيما عجز عنه القضاء والقدر . .

* هذه كانت قصة العارم وزوجها ، فهل قصة حياتك منفـــصلة عن قصة حياة غيرك ؟ ربما هي كذلك ، وربما قصتك هي الجزء الثاني أو

الثالث من موسوعة حياة الآخرين، وتبقى أجزاء أخرى كثيرة يــصنعها آخرون ، أنت لا تعرفهم ، ولن تعرفهم لأن الزمن يتحرك ويستمر ، أما أنت والآخرون بشروركم وصلاحكم ، فستنتهون مهما بلغ بكم العمر .

رغم أنهم يقولون أن العمر ليس بعدد السنين بل بمحتواها ...

***

الريح تصرخ في عمري مدوية هائجة من جديد ، والطريق كان طويلا وأصبح أطول .. ورغم ذلك تحملته ومشيت فيه بقدمين تـــضعفان كل مرة ، لتتحسسا موطئها كل مرة ، وتشعران مع كل يوم يمـــضي أن الدروب أصبحت ذات نتوءات حادة ، نتوءات أشد إيلاما ، إنها دروب ليست في حنان دروب السويقة ، رغم النتوءات أيـــضا ، إنهـــا دروب تختلف عن كل أنواع الدروب التي قطعت .. أليست الاستثناءات تأكيدا للقاعدة ؟

دروب السويقة هي روح المدينة ، ومدينة بلا روح مدينة ميتـــة ، مدينة بلا وجه ولا قلب ولا هوية ، مدينة بلا اسم سوى في حالة الهروب من الأمس واليوم والغد الى الفراغ اللانهائي .

هذه الدروب بيني وبينها حنين من نوع خاص ، يدغدغ الشوق المسافر في أحشائها كل كوامن أحشائي ، إنها هي التي صنعت وتصنع كل مرة مشاعري وأحاسيس وأحلامي ، بيوتها المتعانقة البالية تعلم الحب وتزرع الدفء ، وتتكتم على الأسرار الجميلة وغير الجميلة، إنها أبدا حية في قلبي وعقلي، لأن الحب وحده هو الذي يستطيع أن يهزم الموت .

فهل أنا أحبها هي كدروب دافئة ، أم أنني أحب فيها شخصا بعينه ؟ هل أحبها كمدينة أم أحبها ككائن حي جمع كل الصفات الجميلة عبر التاريخ ؟ ربما أحبها كتاريخ أريده أبدا حيا متحركا منافسا لمفاصل حيوية لتواريخ أخرى .

لماذا تصطدم أشواقنا دائما مع الجدران المظلمة الباردة، ترى من سرق شبابي وشبابها ؟

* آه لو يعيد الزمان نفسه ، ونبدأ أنا وأنت من البدء ، من جديد حتى لا نصاب بعطش الأيام ، لا تتركي روحي وروحك ترحل مع أقدام الزمن القادم الخاوي من الروح والحس والمشاعر الجميلة .

احتضني شوقي في سجن دروبك ولا تطلقي سراحه خوفا من علامات التشفي والغيرة والحسد ، وسامحيني فأنا قد سامحتك .

أحيانا نقلب البيت كله بحثا عن صرصور دون أن نقبض عليه ، كذلك نفسي بحثت عبر كل البيوت والأزقة ، فلم تجد لها دفئا كدفئك ولا حنانا كحنانك .

إنه أين يولد المرء ، يولد معه الحب والأمل ، وحياة بدون حب ليست حياة .

ألم يقل شاعر الهند « طاغور» من الحب خلق العالم ؟ وبالحب يبقى ، والى الحب يتجه ، وفي الحب ينتهى ؟

***

هاهو يرجع لبيته ، وقد عفر الغبار وجهه المغترب ، حتى وهـــو جامد في مكانه ، كلا هما اغترب اغترابا ، لا اسم له ولا صفة ، هـــاهو يملك بيتا يرجع إليه كل مرة ، وكأنه محور الأرض في دوامـــة تحركاتهـــا الكثيرة الملتوية والشاقة .

في الماضي كان يتصوره أجمل البيوت وأنظفها ، واليوم لا يـــدري لماذا يجده وكرا ، لا يليق برجل محترم مثله ، زادته الـــشعيرات الفـــضية الغزيرة ، التي تزين شعره وقارا وهيبة وغموضا وأسى .

كم رأى في غربته من مساكن وعمارات وقـــصور ومتـــاحف ، وكم رأى من فنادق وقاعات وفرش ، وكم جال في أروقـــة مفروشـــة

بأجمل السجاد ، يلفه فيها جو العطور المستترة وراء عـــشرات الـــرؤي والأخيلة ، كم ضمته مكاتب وأرائك وقاعات ودور مسارح وعروض ، كم وكم ... لكنه لم يكن ليضعها أبدا موضع المقارنة مع تلك الـــدروب والأزقة الضيقة، وبيت فيها يحوي غرفتين لا تصلحان ردهة صـــغيرة في بيت من البيوت التي رأى ، وحيث أقام في رحلاته المتعددة الملتوية .

لا يقبل المقارنة في هذا المجال أبدا ، عن عمد لا يريد المقارنة لأنه لا وجه للمقارنة في نظره ، وإنه يفضل بيته هذا الصغير المطل على أكـــبر الجسور وهي في حوار دائم متناغم مع وادي الرمال ، وكل شعاع نـــور من إحدى نوافذ المدينة الساحرة ، يجر وراء ه حكاية حـــب ، وحكايـــة أمل، وحكاية يأس .

يفضله على كل بقاع الأرض الأخرى ، فقط لأن قلبه هو الـــذي حكم بذلك ، إنه كثيرا ما يلغى عقله في هذه المعادلة، يشله بشلال مـــن العواطف والذكريات ، التي كثيرا ما فاض بها قلبه المتعب ، وهو يرجـــع لبيته الصغير كل مرة ، لقد غاب عن مدينته طويلا ، فهل تغيرت المدينة ؟

إنها متغيرة كليا في ناظريه ، لكنها لم تتغير في قلبه الطفولي ، إنـــه كل مرة يراها بعيني طفل وصبي وشاب ، بعيني البداية ، بداية الشروع في عالم الأحاسيس والوعي بالأشياء ، إنها ستبقى في قلبه ووجدانه ، قصيدة فكر ولون ونغم .

هاهو يرجع إليها ككل مرة ، ولا يعثر على الكثير مـــن سماتهـــا ورموزها ، غابت جميعا عن الواجهة ، غابت أو غيبت ، إن بفعل الحيـــاة أو بفعل الموت .

أين عمي « حسين الحلواجي » في حي الأربعين شريف، وأصابعه الطويلة وهي تلعب بألوان السكريات والحلوى ، يرمي العجينة الحلـــوة على الرخامة العريضة البيضاء لتندلق سائحة ، تكاد تسيل على الجوانب ولا تسيل ، لأنه يلحقها بملعقته الخشبية العريضة ، متحكما فيها ببراعـــة فنان .

كم تمنى عمي « حسين الحلواجي » بأن يختم حياته بحجة الى بيت الله الحرام .

كان يوما يسير مع مراد أمام حانوت والده عمي حسين، عنـــدما استوقفهما الرجل ، معطيا لنفسه فرصة للراحة من تعب الـــصراع مـــع العجينة الحلوة ، وهو يقول :

* ماذا أيمر الأولاد على آبائهم ولا يسلمون ؟

ليجيب مراد والده بابتسامة حنون :

* كلا يا والدي ، إننا فقط نستعجل السير لقضاء حاجة هامة .

* وما هي هذه الحاجة الهامة ، التي تمنع الولد من الـــسلام علـــى أبيه؟

ليجيب كمال والد صاحبه قائلا :

* عمي حسين ، قيل لنا أن هنالك في شارع فرنسا مكتبا لليد العاملة ، ونريد التسجيل فيه ، علنا نحصل على عمل أحسن ، كما تعرف إننا أولى بذلك ، ونحن حائزان على مستوى البكالوريا من التعليم .

ويندهش « حسين الحلواجي » من غباء نفسه ، ها هم الأولاد أكثر وعيا منه، وأكثر حرصا على العمل والمسؤولية، ماذا يريد أكثر من ذلك

ويقطع مراد أفكار والده في عتابه المضمر لنفسه ، وهو يقول في مرح :

* أتعرف يا ابي ، إنني لو قبلت في هذا العمل ، لحققت رغبتك في زيارة البقاع المقدسة ، شغل عام واحد يكفي لتحقيق هذه الأمنية .

ليقاطعه عمي حسين ، وكأنه لا يريد أن يخلط الهزل بالجد :

* اسمع يا مراد ، إنني سعيد بكلامك ، ولكن الحج الذي أريده ، إنما أريده بمالي أنا ، بعرق جبيني أنا ، وليس بمال أحد ، حتى لو كان أنت، صحيح أن الإمام في الجامع ، قال لنا أن الدين يقول :

* « أنت ومالك لأبيك » لكنني شخصيا ، لا يمكن أن اشعر بحجتي كاملة ، إلا إذا تعبت أنا عليها ، إن المغفرة ، التي أطلبها ستتجمع مع قطرات العرق الحلال ، التي تسقط من جبيني أنا ، وليس أنت .

ليلفهما هو ورفيقه الدرب الطويل ، في مسيرة لا هي من أجل الوصول لمكتب اليد العاملة، ولا هي من أجل العمل، إنها مسيرة لا

يعرفان لها نهاية ، رغم معرفتهما بالبداية ، وحتى البداية لم تكن بداية ، بمعنى البداية ، لقد كانت تلك الصدفة أو الظروف التي تضعنا أمام وضع ما من الأوضاع لا نختاره ، ولا نتحمس له ، لكننا لا نهرب منه ، لأنه ومع الأيام يصبح اختيارا وعشقا وعبادة ، يعيش معنا كا لهواء الذي نتنفس ، وكا لماء الذي نروي به عطشا طويلا ، طوله بعطش الأيام والأجيال ، والفكر المتيقظ فجأة مع الوعي والشباب والكلمة المكتوبة وحركة التاريخ .

ها هما يسيران بخطى سريعة ، لكن الى مهمة أخرى من المهام التي وجدا نفسيهما في خضمها دون تفكير أو اختيار .

إنه كاذب ذلك الذي يقول أن الفدائي أو المجاهد الشاب في ثورة تحرير البلاد، قد ينشط ويعمل بعد تفكير أو اختيار ، إن ذلك غير صحيح البتة ، فالشباب الذين لبوا نداء الثورة ، وشاركوا في فعالياها وانتصاراها، وحتى الهزاماها ، وأبلوا البلاء الحسن في المدن والجبال وفي الزنزانات والتعذيب البشع ، دون أن يفشوا سرا من أسرار رفاقهم ، وبرامج ومشاريع الخلايا الفدائية ، هؤلاء الشباب معظمهم وجدوا أنفسهم وأرواحهم فجأة أمام عتبات المقصلة ، مرجعيتهم الوحيدة هي الحرية والموت من أجلها .

إنهم لا صلة لهم بالتخطيط والأوراق والتنظير ، مثل أولئك الذين كانوا بعيدين عن الميدان بآلاف الكيلومترات ، أولئك الذين كثيرا ما

كانوا يطلقون على أنفسهم « الزعماء» والذين كانت الكلمة ، والنظرية، ولعبة السياسة تتحكم في قراراتهم وسلوكاتهم .

أنهم لم يكونوا في الميدان ، مثل مراد وكمال ومريم ، لذلك سمحوا لأنفسهم بالتزعم والتحدث باسم الآخرين ، دون أن ينالهم مـــن واقـــع وآلام الواقع شيء ، وربما نسبوا لأنفسهم في يوم ما ، كل انتصارات هذه الثورة دون هزائمها .

***

في الواجهة غابت عن المدينة ، سمات كثيرة ، فها هو رفيق لهوهم « حمانة » ذلك الكائن المتارجح بين العقل والجنون ، الصعلوك الواعي بما حوله ، الطيب الوديع ، الذي لا يؤذي أحدا ، بل يهرب من الأذى وهو يبتسم للأشرار كالأبله ، ليسامحهم كل مرة .

رفيق لهوهم « حمانة » لا اثر اليوم لصولاته وجولاته في الشوارع الخلفية للمدينة ، مرتديا ملابسه التقليدية البيضاء، وصدريته مزينة بنياشين وأوسمة مزيفة ، حافيا حاملا في يده عصا غليظة ، يلوح بها ذات اليمين وذات الشمال ، خاطبا في الناس ، وكأنه جنرال يوجه جيشه قبل

الدخول في المعركة، مرددا دون كلل أو ملل ، هستيرية تجعل اللعاب الأبيض يغرق شفتيه :

* « **حرك حرك .. طاحلو سرواله في البطحا .. ما احلى هذ الشطحه** »

ثم فجأة ينزع سرواله ، لتبدو عورته ورما ملتهبا بشع المنظر، فيهرب المارة ساخطين عليه باللعنات والسباب ، وتتغلق النساء في ملاءاتهن السوداء ، وكأنهن لم يرين شيئا ، درءا للحرج أمام نظرات المارة الفضولية .

كانت جارات أمي تحكين :

إن « حمانة » عندما وضعته أمه بعد مرحلة عقم ، خافت عليه من حسد الآخريات ، فأنكرت أن مولودها ذكر ، وأخفته عن أعينهن ، حتى يكبر دون عين حسود ، لكن الذي كان يكبر فيه وحده ، إنما هو عورته وجنونه .

* إن الله انتقم منها ، لأنها لم تعمل بالآية الكريمة : « **وأما بنعمة ربك فحدث ..** » .

هكذا كانت تقول أمي وجاراتها .

حكاية بقيت عالقة في ذهن كمال ، كلما تذكر الرجل العاقل المجنون ، ولا يدري هل يضحك عليه أم يشفق لحاله ؟

« حمانة » لا يضحك أحد من تصرفاته ، فمشاعر الناس نحوه كانت تتارجح بين الاستنكار والخوف من غضب الله ، أو على الأقل التحفظ ، وكأن الرجل يجمع في نفسه بين خبث الشياطين وبراءة الملائكة.

كانت البيوت تفتح له ، ليتربع في صحن الدار المشتركة ، بين مجموعة من الجارات ، دون حرج منه كرجل ، إنه بالنسبة إليهن ناقص رجولة ، وهو معتوه ، ولا خوف عليهن من نظراته أو كلامه ، إنه لا يعي شيئا مما حوله، فلماذا تتحجبن منه وتخفين وجوههن ببرقع أو نقاب؟

كان يقدم له أكل كثير من طرف الجارات ، لكنه لا يأكل إلا أكلا واحدا ، وتعتبر التي أقبل على أكلها امرأة محظوظة ذلك اليوم ، وصدقتها مقبولة كل القبول ، أليس رجلا درويشا من أولياء الله ، لا حيلة له ولا نية سيئة ، مثل ما يوجد عند العقلاء .

إن « حمانة » في نظرهن مرابط ، وتقي صالح يتأرجح بين العقل والجنون ، وكل تصرفاته إنما تصدر عن قوى غيبية لا تفسير لها عند البشر.

ومثلما غاب « حمانة » عن واجهة المدينة وشوارعها ودروبها ، غابت أيضا « جعيدرة » تلك المرأة الجميلة ، التي تغطي رونقها أكداس من الأوساخ والقاذورات ، « جعيدرة » بأسمالها البالية وهي تعيش على أرصفة الشوارع ، تتحرك هنا وهناك وهنالك ، لا تدري عن نفسها

شيئا، لا تتكلم أبدا ، تنظر فقط للآخرين من حولها نظـــرات بلـــهاء ، نظرات لا تقول شيئا خالية من أي تعبير ، توحدت عنــــدها الابتـــسامة بالدمعة ، واليقظة بالغيبوبة ، والوعي بالضياع ...

« جعيدرة » كانت لعبتهم الثانية بعد « حمانة » كلمــا رأوهــا صاحوا بصوت واحد :

* **« يا م جعيدرة ، لابسة قنيدرة ... »**

ليلاحقوها أسرابا أسرابا في لهو ومرح ، فتهرب هي منــــهم ، ثم تأخذ الحجارة لترميهم بها مدافعة عن نفسها كأي حيوان يشعر بالخطر .

كانت كل مرة يغتصبها احدهم من المشردين أو غير المشردين ، لتحمل حملها، ثم تضعه في أحدى الدور الكثيرة ، بـــين شـــفقة النـــساء وسخط الرجال ، ليؤخذ رضيعها من طرف إحدى النساء المحرومات من الإنجاب ، كل مرة لتبنيه وتربيته ، دون أدنى مسؤولية أو مؤاخذة ، لا من « جعيدرة » ولا من أحد آخر غيرها ، ولا حتى من الـــسلطة القانونيـــة بالمدينة ، لأن السلطة بعيدة جدا عن حياة الأهـــالي في هـــذه الأحيـــاء الشعبية.

فاين هي « جعيدرة » اليوم ؟ لعلها ضاعت وغابت مـــع سمـــات أخرى ورموز طبعت المدينة القديمة ببصماتها المعقدة والبسيطة ، في آن ، ولونت أيام الناس بمختلف ألوان المشاعر والأحاسيس .

إن حالة من هذه الحالات الكثيرة ، لا بد لها من مصدر ومرجع وسبب ، وكم هي مليئة حياة المدينة بهذه الحالات .

لكنها بالنسبة لكمال ، هي حالات كونت لمعالم الصورة الشمولية في ذهنه ، صورة مدينته التي يحاول اليوم أن يبكيها أو يرثيها أو يضمها الى صدره ، ليجدها اليوم صورة دون معالم ولا تفاصيل إلا في ذهنه المتعب .

صحيح أن تفاصيل مدينته كثيرة ، لكنه لا يذكرها جميعا ، وكأنها عبارة عن أخيلة جامحة ، لم تكن يوما ما واقعا محسوسا ، إنه سعيد بأن يذكر بعضها ولو جزئيا ، إن ذلك دليل على إنه لم يخن مدينته ، إنها بعض منه ، فكيف ينسى بعضا منه ؟

قال لأمه يوما ، وهو يتأملها ويعجب بحنانها ورقتها وتضحياتها :

* أيتها العزيزة، إذا كانت هنالك في الآخرة جنة ونار، فإن كل الأمهات، بل كل نساء العالم سيدخلن الجنة ، حتى العاهرات ، والفاجرات، بل وحتى « جعيدرة » .

***

المرأة بالنسبة لكمال هي ذلك الكائن الجميل الرقيق المهـــذب ، بدءا من أمه « عتـــيــقة » وعـــرجا علـــى « نفيـــســـة » و« زوينـــة الخضراء » و « بهيجة » أم صديقه الشهيد « مراد» الذي لم يلق له مثيلا فيما جاء بعد من أيام حياته شهامة وذكاء، إنه أخ نفيسة مشروع حياته ، ومشروع أم أطفاله ، الذين لم يأتوا أبدا ، ليبقى وحيدا ، يعتبر كل الناس أهله وكل الأطفال أبناءه ، ليبقى صورة فريدة لا نسخة منها بعد رحيله .

تبقى حبيبته « راشيل » والتي حاول أن يصنفها بين هؤلاء جميعا، أو يجد لها موقعا مشتركا أو خاصا فلم يستطع، لتبقى في ذهنه وذاكرتـــه دون تموقع سوى أنها نوع من الخيال أو الوهم ، والذي من كثرة جمالـــه

ابتعد عن الواقع والحقيقة ، هل لأنه لم ينلها ، يتصور ذلك ، أم لأنها هي كذلك ، في الحقيقة ليس يدري ؟ ...

المرأة بالنسبة لكمال ، هي ذلك الكائن المظلوم المهضوم الحقوق ، المتعب من مشاق الحياة ، بدءا من المشقة الأولى التي هي الرجل .

* كيف تحصل هذه المشاق ، وكلاهما الرجل والمرأة خلقا والتقيا من أجل بناء حياة ؟

كلاهما واحد ، لأن أحدهما يكمل الآخر ، وبدون هذا الآخر لا تكتمل الصورة الإنسانية .

عندما كان صغيرا كان يستمع لدعوة ضرورة تمجيد الزوجة لزوجها ، وكيف يجب أن تطيعه وتحافظ عليه ، حتى لا يأخذه منها الشارع ، أو تأخذه منها امرأة أخرى ، كان يستمع لذلك بكل تقديس ، دون أن يفكر في كيف ولماذا وهل ؟ إلى آخره من علامات الاستفهام ، التي من المفروض أن تصدر عن عقل يفكر ويهتم ويريد أن يفهم ، كانت الأجواء المحيطة به ، والمناخ الاجتماعي كله ، لا يسمح له بإعمال عقله في هذه الأمور ، بل إنه شخصيا لم يخطر بباله أن يعمل ذهنه في ذلك ، مثلما جعل ذهنه يعمل في أمور أخرى كثيرة ، وكأن قضية المرأة والرجل أمر من القداسة بحيث لا يجب الاقتراب منه، أو لمسه، أو حتى التفكير فيه، أمر عزيز جدا ، لكنه عرضة لأشكال من الذل والإهانة بتكتم شديد واحتشام أشد ، يدركون جيدا أن المرأة أمر عزيز ومقدس ، مثله تماما مثل

الأرض والعرض ، لذلك عندما يخطئون نجدهم يخفون خطيئتهم ويتكتمون عليها ، إنهم يدركون أنهم مخطئون في حق هذا الأمر المقدس، وأن ما يفعلونه بإذلال المرأة وإهانتها، إنما هو جريمة إنسانية ، مثلهم مثل الذي يجرم ثم يحاول أن يخفي جريمته ، لا يتكلم عنها ، ولا يترك من حوله يسهبون في الحديث عنها ، إن المرأة في رأيهم مقدسة ، حتى وهي تعاني من الإذلال والعذاب وهضم الحقوق من طرفهم .

وهاهو اليوم يكفيه عزاء ورضا ، أن أمه الحبيبة كانت تحتل مكانة غالية في قلب والده ، ولم يحصل أن مسها والده يوما بكلمة أو إشارة مهينة ، أنها هي أيضا لم تكن تقوم بأي سلوك يستدعى ذلك ، كما يبرر بعضهم ، كانت كالنسمة العليلة التي تحي ولا تجرح ، وهي تتكلم أو هي تمشى أو هي تعمل ، إنها لم تكن تعرف لفظ « لا» نعم فقط هي اللغة الوحيدة التي تتقن ، حتى عندما عرفت ماساته في حبه ليهودية ، لم تقل شيئا شائنا في الفتاة ، استعملت في تبرير رفضها الجانب الديني ، وجانب التقاليد والأصول المعمول بها ، لكنها لم تتعرض بسوء للفتاة من حيث هي فتاة ككل الفتيات ، وكذلك كانت سلوكاتها بالنسبة لجاراتها ومعارفها .

نموذج أمه يمنعه من أن يفكر في أمر آخر، بالنسبة للمرأة ، أو كيف يجب أن تكون ، ولماذا يقولون عنها كل ذلك ؟ ولماذا يلزمونها بأمور كثيرة لا يلزمون بها الرجل ؟

إنه لم يسمعهم يقولون كيف يجب أن يحافظ الرجل على إمرأته ، وكيف يجب أن يعاملها حتى لا تشذ وتنشز وتصل الى ابغض الحلال ، وكأن الواجبات كلها من مسؤوليات المرأة وحدها ، والحقوق كلها من مكاسب الرجل .

رغم أن الرجل خلق كاذبا أبدا ، وظالما أبدا ، ومستهترا أبدا ، هكذا كان يقول والده ، وهو يتابع أخبار جارهم رابح وقسوته على امرأته العارم ، وتشريده لأسرة كاملة ، كان يمكن أن تكون لبنة سليمة إيجابية في البناء الاجتماعي .

وهاهو اليوم ستون زمنا ، وستون ذكرى ، ينوء بها كاهله ، ليتأكد وهو يعود اليوم ، أنه وفي هذه المدة الطويلة ، لم يعرف ، ولم يلتق بنساء أخريات غير رفيقاته في معركة المدينة .

حسبه من ماضيه القريب البعيد ، امرأة واحدة أحبها ولم يتزوجها، وامرأة تزوجها ولم يحبها ، إلا بعد أن فارقت الحياة ، ليس بإرادته كان ذلك ، إن الموت هو الذي تدخل بعنف وفجائية مفجعة فلم يترك له فرصة ليحبها ، انتقم الموت من ظلمه وخيانة قلبه ، فأخذها بعد أن هدأت نفسه واستراح قلبه لأمور أخرى ، أصبحت تمحو غيرها من الأمور شيئا فشيئا ، لكن بصورة أكيدة ، نجاح في عملية فدائية — تحقيق لمهمة عسيرة ، تبليغ لرسالة أو وثائق أو أوأوامر وأسرار هامة .

كل ذلك وغيره كان ملجأ ومهربا له من غصة الندم ، التي سرت مرارتها في نفسه وروحه ، ليهرب منها كل مرة إلى أمور أخرى ، فرضتها المراحل والظروف وتدحرج الأيام علـــى بعـــضها ، وتغـــير الأحـــوال والأسبقيات الجديدة ، التي كانت تفرض نفسها عليـــه وعلـــى رفاقـــه ورفيقاته في مدينته الغارقة في بركان الفداء والتضحية ، لتتحـــول أمـــور كانت بالأمس أولويات إلى آخر القائمة من اهتماماته .

فهل البشر أبناء غبار النجوم ، وهي تتفتت بفعل انفجار المذنبات؟

هاهو يصبح « سقراطا» في محاوراته ، كثير السؤال قليل الجواب ، غير حاضر البديهة ولا لاذع السخرية إلا على نفسه .

***

خرج كمال من بيته الصغيرالمترب ، متوجها دون تخطيط للطريق الى مقبرة المدينة ، إنه بذلك يحاول أن يجعل من الماضي حاضرا حيـــا في الحركة والنظرة ، إنه هوس لذيذ هذا الحنين الى الماضي .

لكنه وقبل أن يصل الى المقبرة صادفته مقبرة أخرى ، مقبرة اليهود بسورها العالي في « باب القنطرة » وقد طلي باللون الأصـــفر ، ومـــوتى اليهود في سباتهم بين الورد والزهر معززين مكرمين في أرض تحترم العقائد والديانات .

وتساءل لأول مرة :

* لماذا كلما ذكر اليهود ذكر اللون الأصفر ؟ هاهو يربط في ذهنه رغما عنه ، بين اللون الأصفر وبين تلك الحلي الذهبية ، التي كانت تزين واجهة محل حبيبته راشيل ، وهدية أمه التي ساهمت في اختيارها ، ولم ينس أن القرأن الذي كان يحفظه كله ، عندما وصف بقرة بني اسرائيل ، ذكر أن لونها اصفر فاقع .

إنه يعلم أنه لكل شيء سبب ومرجع وخرافة ، ولا شيء وضع هكذا دون تبرير أو تفسير ، لا الاسم ولا اللون ولا العادة ولا الحركة .

وقف وسط الجسر ، وهو يظلل القصبة ، ورجفة تأخذ بمجامع قلبه ، ووجدانه ، وفي سره كان يردد وكأنه يصلي :

* آية أغنية هذه التي أرى وأسمع وألمس ؟

الزلزال واقع ولكنه فوق الجسر سيكون أقوى دويا ، لأنه يصيب النفس والعقل ، ويزعزع أركان الشخصية ، ويمزق وشائج الهوية ، ألسنا معلقين بين فضائين أو أكثر ، لا قاعدة نقف عليها ولا جاذبية تشد من أزرنا ، وتحول دون سقوطنا نحو الهاوية ، فلماذا لا نموت واقفين كالشجر، حتى ونحن على الجسر ؟

* إنك لست وحدك في هذا الفراغ المهول ، نفسك فارغة مثل نفوسهم ، تشعر بالخواء والهشاشة ، إنك سهل التكسير ، توشك على التحطم ، وذهنك يرتطم بلا شيء ...

* إنكم لا تفهموني ، أنا اريد أن أرى العالم من خلال حبة رمل ، والفضاء من خلال قطرة ماء ، والحياة كلها أريد أن أراها مسكونة في دمعة عاشق .

ويخرج من الجسر ، يستعيد بعض هدوئه بعد ثورة فكرية عاتية ما فتئ يستهزئ بها وبنفسه .

طريقه الى المقبرة ، أرادها أن تكون مديدة في الزمن والمساحة ، أراد أن لا يختزنها في دقائق أو ساعات ، لأنها في ذهنه وقلبه ووجدانه ، تحوي عمرا كاملا ، أو على الأقل عشر العمر ، الذي يريد أن يبقاه في هذه الزوبعة التي تسمى الحياة .

وسمع الأذان يلعلع في فضاء المدينة تردد صداه فضاءات الجسور وما تحت الجسور وعمق الجسور ، إنه أذان صلاة العصر ، ولكل أذان وقت ، وأذان المغرب لا يمكن أن يكون قبل أذان العصر ...

إنها المآذن ، هذه الصواريخ التي لا تنطلق حربا ودمارا ، كما أرادها أحدهم يوما ، لتنطلق اليوم تطرفا وتشيعا وغرابة ، دمارا من نوع آخر اشد خطرا وأبشع فعلا ، بعد أن خلقت لتنطلق سلاما وتسامحا وعدلا وإنسانية غاية في التحضر .

كمال لا يريد للطريق أن تكون لها نهاية ، أية نهاية لغربته عنها ، إن هذا النوع من النهاية التي يريد لا وجود له ، النها ية الوحيدة الموجودة ، هي سفره نحوها ، سفر طفل صغير يعود لأحضان أم عجوز

مترهلة ، فقدت كل العنفوان المحفور في الذاكرة ، وكل الجمال الممهـــور بالحنين .

إنه لا شيء يضيع في هذه الزوبعة ، التي يسموها الحياة، إنما يركن فقط في أحد الأركان والزوايا هنا أو هنالك، أو ينام في إحـــدى خلايـــا الذاكرة ، التي لا تزال حية ، رغم أعراض الزهايمر ، يرقـــد في ســـبات الزواحف ليستيقظ كلما حان الوقت لإ متلاك الحلم .

هاهو لا يريد أن يختزل الزمن ، بل يمدده عـــبر الـــستين عامـــا الضائعة، ويحاول أن يمده بالقوة والاستمرار والتمدد ، رغم أن ما ينـــوي القيام به هو زيارة مقبرة المسلمين وليس اليهود ، وكل ترابها يـــستدعى خفة الوطء .

كان يمشي وهو محتار :

* هل هي فعلا سنوات ضائعة ؟

ولماذا يستعمل هذه الكلمة الكبيرة ؟

ربما لذلك أسباب ، أهمها ليس طافيا على الذاكرة وأيسرها أنـــه اليوم وحيد ، يدخل أبواب الشيخوخة ، بل أبواب النهاية بخطـــى ثابتـــة وسريعة وغير مترددة .

المقبرة التي تضم رفات والدته التي أحبها كما لم يحب ولـــد أمـــه أبدا، ورفات نفيسة التي تزوجها دون حب ، ورفات والده الذي كـــان ميتا دائما ، وهو يعاني كل مرة من حلم لا يتحقق ، ومرض لم يكن لـــه

أي دواء في ذلك الوقت ، إن مرضه اليوم له علاج وصاحبه يشفى ويعيش ، فكيف للعلم أن يغير من آجال البشر ثم يتأخر في الظهور ؟

يريد للزمن أن يكون حيا ، حتى وهو يقصد مدينة الأموات ، إن الموت يسمح لنا برؤية جمال الحياة ، لكن ليس هذا الذي كان يقصده كمال بتمديد الزمن كما هو ممتد في ذهنه وجوارحه ، لأنه يعني حياة كلها ، الذي يقصده كمال هو حالة الهروب التي يريد أن يلجأ إليها من حاضره ، وهو حاضر لعالم لم يعجبه كما كان ، لقد اكتشف أنه ما يزال مبهورا بالعالم القديم ...

* هل هو ضد التقدم ؟ هل هو ضد التطور ؟

* كلا ، التقدم يجب أن لا يرعب أحدا ، إنه أمر رائع وجذاب ، إنه جميل أن يقبل الإنسان على الجمال والإبداع والابتكار للوصول لمستوى التنافس مع الآخرين ، وإثبات الذات ، إن المال هو المال والعقل هو العقل ، تبقى الإرادة فقط حيث يمتلكها هذا ويفتقدها ذاك .

هكذا أجاب نفسه ، وهو يحاول أن يقطع الطريق للمقبرة على قدميه ، حتى يتملى كل شيء بناظريه ، ويتأمل كل شيء بقلبه ، ويستعيد كل أحداث الزمان والمكان بذهنه المتحفز ، إنه يريد تمديد الزمن بعد استرجاعه ... وكأنه انخدع بسرعة مروره وانطلت عليه خدعته ، فهل يقدر على استرجاع الزمن ؟.

ربما تمنى يوما أن يكون العالم بين يديه وحده ، ليسيره كما يرغب ويريد ..

ربما تمنى ذلك من قبل ، أما اليوم فرغبته فقط أن يعثر على بعض من خيوط النسيج المبعثر بألوانه داخل الذاكرة ، بعض الخيوط الملونة عن الشباب ، وعن رائحة أحباب وأصدقاء .

لقد كان له أصدقاء كثيرون ، ولم يكن يحبهم وقتها ، وهناك من لا تربطه بهم أية علاقة ، ولكنه كان يحبهم ، هذا ما كان يحصل له ، لكنه اليوم يجد نفسه يحبهم ويشتاق إليهم جميعا ، هل لأنهم اليوم غير موجودين؟

إنها الحقيقة التي لا تدهشه بتناقضاتها ، إنه اليوم يتمنى لو أنه يلتقى جميع معارفه ، الذين أحبهم والذين كرههم ، إنه اليوم مستعد أن يحبهم جميعا دون استثناء .

إنه يريد الماضي بجميع أحداثه وتفاصيله، يريد الماضي بإيجابياته وسلبياته، بآلامه وأفراحه ، بلحظاته السعيدة الساذجة ، ولحظاته العسيرة والمعقدة .

لقد علمته الحياة أن في التاريخ أحداثا تدخل من أوسع الأبواب ، وهنالك أحداث لا تدخل أبدا ، وكأنها لم تحدث أصلا ، أو تكنس في غبار التاريخ ، لكنه اليوم يعتقد أن أحداث حياته دخلت وخرجت من أوسع الأبواب ، حتى ولو كانت خاصة أكثر من عامة .

كم عاش من أحداث ووقائع فيها الحلو والمر ، وأحداث ماضيه وماضي مدينته ، يراها اليوم حلوة كلها ...

لقد ضاعت منه تلك الأيام وضاعت معها معالم المدينة الظاهرة والمستترة ، وضاعت مع كل ذلك الأحداث الصغيرة والكبيرة ، الجميلة والقبيحة ، ورغم ذلك لا زال يرى مدينته وهو يخطو على عتباتها العجوز، يراها حبها وطن ، ووجهها وطن ، وقلبها وطن ، ودروبها عمق أعماق الوطن .

لم يعرفه أحد وهو يحدق في وجوه الناس ، فقط أثار فضولهم بهيئته وهندامه المبالغ فيه بالنسبة لهم كمواطنين عاديين ، وماعدا ذلك لا أحد حدق في وجهه ، أو سأله من تكون ؟ أو رحب به ، أو احتضنه بشوق الغائب الذي عاد ...

* ماذا عملت فينا السنون ؟ هل ذوبت فينا الحنين ؟ وهل الفرقة هي التي تزرع النسيان ؟ أم التغيير هو الذي يمحو المودة ؟

إنه لا يعتقد أن كل ذلك من شأنه أن يغير شيئا في نفسه هو ، لا الزمان ولا المكان استطاعا أن يفعلا ذلك ، وهو يعذر كل هؤلاء الذين لم يعرفوه ، ولم يأخذوه بالأحضان ، إنهم من جيل آخر جديد ، جيله هو ذهب ، راح ، إما بالغربة أو بالموت ، جيله انتهى أو يكاد ينتهى ، وهذا جيل آخر ، بفكر آخر ، وقناعات أخرى ، وسلوكات أخرى ، فلا يحاول أن يفرض نفسه عليهم ، وليسامح جفاءهم وإهمالهم ، سيسامح

الجميع لأنهم حاضره ومستقبله وماضيه ، إنهم جميعا بماضيهم وحاضرهم محتوى مدينته ، وروحها التي هو مستعد أن يفرش لها رموشه لتدفئها من حسد الآخرين والأخريات .

* فهل تكفيها رموشه ؟



* **أين** الرفاق ؟ وأين الأصحاب من كل هؤلاء الناس ؟

* عن أي الناس تبحث ؟ عن أي شيء تبحث ؟ عن الذي مضى، عن جناحيك وأنت شاب ؟ عن قلبك الصغير أم قلبك العجوز ؟

ذهب الرجال كلهم ، تناثروا كحبات مسبحة تقطع خيطها ، سقطوا سقطة غريبة ، سقطتهم كانت داخلية ، سقطوا سقطة تسكن الحنايا ، انطرحوا أرضا كأعجاز نخل خاوية ، نخرها دود تولد في الداخل، في الجذور والأحشاء قبل الفروع والأوراق ، ضيعتهم سموم وردت مع آخر البضائع المستوردة خفية ، وعلانية ، لم يحتملوا السقوط ، فغابوا عن الوعي ، صرعى من أثر خيانة غير مرئية ، إنهم لم يتذوقوا قبل اليوم خيانة مثل هاته الخيانات ، التي عرفوها قبل اليوم كانت بشجاعة ، كان لكل

من الجانبين معسكر، للوطنيين معسكر ، ولغيرهم معسكر ، وبين الجميع حدود عريضة ، لا ترى بالعين ، لا تحسب ، لكنها تعاش كالماء والهواء ، وتجعل لكل واحد أوصافه ووسائله وأهدافه.

وما أكثر ما صادف في حياته العملية من انتهازيين ووصوليين ، رآهم كذلك الثعبان الذي يغير جلده كل مرة ، ويزحف على بطنه للوصول الى الغاية ، دائسا في طريقه كل غال وشريف ، للوصول الى غايات غير شريفة ، غايات أنانية ، تقدس الأنا ، بعيدة عن هموم الآخرين ومصاعبهم ، أنانية تدوس كل ما يعرقل عملية الوصول .

* هل تغيرت سلوكات هؤلاء الناس الذين كان يعرفهم في الزمن الصعب ؟ أم إنها اختفت فقط في لهيب ووهج ثورة المباديء والشعارات الجميلة ، عندما كان البيت لا يسع إلا أصحاب المباديء والأخلاق ، اختفت انتهازيتهم ، وسكنت ، لتستيقظ من جديد ، وتزدهر في زمن مترد بلا مباديء ، ولا قيم ، زمن مكيافيلية الأمير ، وقد طبقت ببشاعة ووحشية من طرف أكثر من حقير .

حتى الخيانة أحسبني أراها تحتاج الى شجاعة ، خائن شجاع خير دائما من خائن جبان ، خائن يطعنك في صدرك خير من خائن يطعنك في الظهر ، أو أنت نائم ، خائن مستغل أجبن من خائن نزيه .

تسألني :

* وهل هناك خائن نزيه ؟ وهل الخيانة إلا خيانة ؟ والخائن خائن أبدا بغض النظر عن شكل خيانته ؟

* صدقني ، خائن صريح يعلن عن نفسه ويصبح عـــدوا لـــك ، فتعرفه وتحذر منه ، أو تجابهه ، ويمكن أن تعفو عنه ، خير ألف مرة مـــن خائن منافق لا تعرفه .

وصدقني أن لكل أمر وجهان ، وجه نظيف ، ووجه قـــذر حـــتى الخيانة ، وأن هناك عميانا يقودون عميانا في غالب الأحيان .

ولعلك تقول لي : أن الخيانة كلها قذارة ونذالة وانحطاط بشري ، فأقول لك : أن كل شيء بمقياس ، والمقاييس نسبية ، وهؤلاء الرجـــال الذين لم يبق منهم سواك خدعهم خائن جبان نذل ، رجـــل في ثيـــاب الرجال ، لكنه غير رجل البتة .

« رجلة » الرجل هي « رجلة » شعبه ، وشعب بلا « رجلـــة » ليس بشعب ، هو « غاشي » كما قال أحدهم و لم يخطيء ، ولـــو انـــه وصف موجع .

غاشي يقتل نفسه كل يوم في زحمة الأفكار ، وعرق الأجـــساد ، ينتحر كل دقيقة ، يتلاشى كل لحظة ، ليضيع أخيرا في غبار التـــاريخ ، ينفى ماضيه ، فيقتل بذلك حاضره ومستقبله ، لأنه يكـــون قـــد ذبـــح ذاكرته، يزحف على بطنه ، ويقبل اليد النظيفة واليد القذرة مـــن أجـــل حاجة مادية تافهة ، إنه يفكر ببطنه ، ببرازه ، بجزئه السفلى ، لا يرفـــع

رأسه ، راكع ذليل أبدا ، غريزة تمشى على قائمتين ، تتبع كل من رمـــي لها بعظم .

* سأشتري مسدسا لقتل الفئران ...

* إنهم لا يقتلون الفئران بالمسدسات ...

* ولماذا لا نفعل ؟

* لأن نوع السلاح يكون من نوع الضحية .

* لكنهم بشر في نفوس فئران .

* حتى لو كانوا كذلك ، إننا لا نــرى نفوســهم ، بــل نــرى أجسادهم فقط .

* إن لهم قلوب ونفوس فئران ، تتسلق كل شـــيء للوصـــول الى أهدافها ، ثم تختفي .

* حتى لو كانوا كذلك، إنك لا تملك أي دليل على ذلك ، إنك فقط لا تحبهم ، لأنك لا يمكن أن تحب من عبثوا بإنجازاتك ومبادئك ...

* إنهم لم يفعلوا ذلك ، فحسب ، لقد عبثوا بالتاريخ ، وحاولوا تغييره لصالحهم ، كيف يمكن أن تحب سارق انتصاراتك وتضحياتك ؟

* لم يبق أحد من الرجال سواك ، أتراك تتمرد على الوضع ، تريد أن تثبت أن تبقى كشمعة يتيمة داخل العتمة ، كنجم تائه عـــن نجـــوم أخرى ، معظمها أفل ، كرمز من رموز الزمن الشهيد ، في انتظار أن تأفل أنت أيضا ، والجرح الحارق بين يديك ...

لا تيأس يا **رفيقي** ، **إنك** كالجسر القوي يربط بين جسور أخرى، متواصلة عبر الزمن، بحبال ليست من فولاذ ، بل مــــن فكـــر صـــحيح حريري ، لكنه في قوة الفولاذ أو أقوى .

لقد قالوا قديما :

« **لأن تشعل شمعة خير من أن تلعـــن الظلام** » .



وحلم يوما بعد أن علم حقا ، رآهم ينبشون القبور ، فتخـــرج لهم الأجداث لتمسك بتلابيب النابشين ، تخرج قامات ممدودة دون ترنح، تنغرس أظافر أقدامها العريضة في التربة كأعمدة معبد روماني ، وتكتسي فجأة باللحم والدم ، وتزرع بالروح ، فيهرع القردة النابشون هـــاربين مفزوعين ، وهم الذين ادعوا الغيب والنبوة ، يتقاذفهم الهلع والرعـــب ، وكأنهم يهود صحراء سيناء زمن التيه .

حلاجون جدد في جبة جديدة، يغتالون السلام والبراءة ، باســـم الحب يزرعون الحقد ، وباسم العقل الأكبر يفتكون بالعقـــل الأصـــفر ، أغضبوا الرب فلحقنهم اللعنة الأبدية ، أليست الفتنة أشد من القتل ؟

وعندما التقى كمال بأحد حراس المقبرة سأله بمرارة :

* ترى ماذا يعني أن تنبش قبرا على بقايا شهيد ؟

ليجيبه الرجل وهو يبتسم ابتسامة مزجت بين السذاجة والأمل :

* لا تخش شيئا الآن ، فلن يتكرر ذلك ، إنه لا عمل لي هنا سوى هذا المفتاح ، لقد قررت الاحتفاظ به ، بعدما رحل الرجال جميعا ، لقد دخلت المعركة من جديد من أجل هذا المفتاح .

كان الحارس بملابس رثة ، ووجه نظيف نير ، وكأنه فرغ للتو من عملية وضوء قانتة والمفتاح يبرق ويملأ كفه .

* تعني أنك هنا لحراسة المقبرة ؟

* سمها كما شئت ، سمها مقبرة ، سمها حديقة ، سمها جنة ، سمها متحفا ، سمها مدينة الأسلاف ، أطلق عليها ما شئت من الأسماء ، المهم أنني هنا لحراسة الجميع ، أليس لكل واحد منا أمانة نائمة هنا ، وعمرها ممتد في الأزل والأبد ؟

* إنك تغلقها إذن ما دام معك مفتاحها ؟

* نعم أغلقها ، وإلا ما فائدة المفتاح ... إنني لا أفتحها إلا في المواسم والأعياد ، للترحم وقراءة فاتحة الكتاب ، إن كان ذلك لا يزال مجديا ، لقد انتهى عصر الاستشهاد ، ولا شهيد بعدهم ، الاستشهاد أصبح ذا دلالات أخرى غير ما كنا نعرف ، فلماذا تبقى مفتوحة طول الوقت ؟

هاهو الرجل الخارج من عملية وضوء قانتة ، يسكن أعتاب الجنة، على تلك الربوة المسكونة بالأرواح ، وقد فقـد الـذاكرة ، وترنحـت ابتسامته بين السذاجة والأمل ، في لا شيء سوى مفتاح كبير براق يمـلأ كفه العريضة .

ما أسعده ، وهل هناك من بقيت له ذاكرة ، أو ابتسامة صافية ، يبدو أن الناس أصبحوا يهربون للراحة بفقد الذاكرة ، وادعـاء الجنـون هروبا من الواقع الصعب المرير .

وهل هي في النهاية إلا عظاما نخرة ، رغم الحلم الطويل ، فلا تسع لفك الأحاجي والأحلام أو تفسير الأشياء ، وإعادة الاكتشاف والتأويل ، إن ذلك سيكون فوق طاقتك ، دع الحياة تدير شؤونها غصبا عنك .

هاهي ريشته تصنع دوامة لونية مضيئة من الأفكار ، تخفي تحتـها وحولها الكثير من السواد والضبابية ، التي كثيرا ما تسبق غيثا من الدموع، التي لا تعرف لها مواعيد معينة .

« نيسابور» كان قديما يعالج المجانين وألف كتابا سمـاه «عقـلاء المجانين» فهل أصبح الناس اليوم في حاجة لهذا الكتاب ؟

* إقرأ الكتاب من جديد ، إن الكتاب ليس ملكا لمن اشتراه ، بل هو ملك لمن قرأه ، ورتب أوراقك من جديد واستعن بما مر عليك مـن أحداث ، وابدأ بمصالحة نفسك ، إن نفسك هي عدو نفسـك ، حقـق المعادلة التي عشت كثيرا تبحث عنها ، وارم حملك على الله ، إنـك لا

يمكن أن تكون شيئا في الحسبة الزمنية ، أنت رقم لا صفر قبله ، ولا صفر بعده ، رقم لا قيمة له دون إضافات .

* ولكنها الحياة التي نحياها الآن ، هي التي خلطت كل الحسابات، وبعثرت كل الأرقام ، وضببت كل المفاهيم .

كنا نتصور المفاهيم واضحة، بل إنها كان واضحة جدا، مفهـــوم للحياة ومفهوم للموت ، مفهوم للحب ومفهوم للحقد ، مفهوم للخـــير ومفهوم للشر .

مفاهيم شرائع يستنير بها الانسان في حياته القـــصيرة ، وأيامـــه المتشابهة ، معالم بارزة في علاقاته مع الآخرين ، لا يحيد عنـــها حـــتى لا يلحق الضرر بهؤلاء الآخرين ، تلافيا لعذاب البشر وإحـــساسهم الألـــيم بالغبن والقهر واللاعدالة .

تغيرت المفاهيم ، وأخذت أشكالا أخرى ، وتبريـــرات أخـــرى وتعليلات زادت من عذاب الانسان ، وهو مافتيء يشعر بأنه فاقد لحقوقه كإنسان في الحياة والعدل والأمن .

تغيرت المفاهيم، وأصبحت تلبس كل مرة لبوسا جديـــدا، مـــرة لباس الدين والعقيدة ، ومرة لباس السياسة ، ومرة لباسات اخرى ، تزيد كلها في إشعال نار الحقد والفتنة .

تغيرت المفاهيم وأنزل الخالق من عليائه ليوضع بجانب المخلـــوق ، ويفقد صلاحياته من طرف المخلوق ، في العقاب والثواب .

تغيرت المفاهيم فأصبح المخلوق يتحدى الخالق ، ويحكم بالموت أو بالحياة على غيره من المخلوقات ، ويصبح الشرك بوحدانية الله أمرا واقعا.

تغيرت المفاهيم وضاعت النفس الانسانية ، في ظلام الحقد وسراديب الوحشية ، وطغيان الأنانية والفردية .

كيف أتصالح مع نفسي ؟ وغيري لا يريد المصالحة مع نفسه ؟ ولا يريد الاعتراف ، أنه ساهم في تسويد حياتي وحياته وحياة الآخرين جميعا، ليس اليوم فقط ، بل ربما يمتد هذا السواد الى الغد أيضا ، إنهم يغتصبون المستقبل وينهبون حق القادم من الأجيال .

كيف أتصالح مع نفسي ، والآخرون رافضون للمصالحة ؟ بل إنهم عملوا على إلغاء مشاعر القلب ، وحكمة العقل ، وأصبحوا حيوانات في غابة تحكمها القوة والهوس والتوحش .

أية مصالحة ، دون عقل ودون قلب ، دون حكمة ، ودون أثرة... الأنانية الطاغية على كل المفاهيم الأخرى هي السائدة اليوم ...

وأنا لا أمثل إلا رقما لا صفر قبله ولا صفر بعده ، في حسبة زمنية مجحفة .

أفهمتم لماذا أهرب للماضي ، وأستحلى أحلام اليقظة ؟ إنني أهرب وأهرب وأهرب ، ومثلي الكثيرون ، إنهم فقط لا يقدرون على التعبير مثلي ، عاجزون عن البوح والاعتراف ، الخوف أذهلهم ، والمدينة

الشفافة وقد تكسرت شفافيتها ، جرحت بشظاياها قلوبهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وخنقت آهاتهم .

إن البوح والاعتراف سر بسيط بسيط ، وكرامة من كرامات الأولياء والصالحين ، لا يحظى به إلا القليل من الناس ، أولئك الذين ذابت أنانيتهم مع إنسانيتهم ، فأصبحوا أولياء صالحين ليسوا ككل البشر .

لكن لماذا لا يتحدثون ؟ الحديث أيضا يؤدي دورا، إنه سمة الحيوان الناطق، وإن سحر الحديث من سحر البيان ، وفي الكثير من الحالات ، هو الهواء النقي لصدر معلول تلفت خلاياه ، إن الحديث رسائل للمحبة من القلب الى القلب عبر جسر الكلمة ، إنني لا أريد أن أترك شوقي يحتضر في سجن بدني المعذب ...

ألم تغير شهرزاد حياة الملك شهريار؟ وتخرج نفسيته المظلمة المريضة من أغوار الحقد والانتقام الى نور المحبة والتسامح والأمل ، كل فجر الى فجر جديد ؟ حديثها كان أنجع أنواع العلاج ، وحوارها كان بلسما لروح غمر شفافيتها الشر وحب الانتقام ، وانتصار الأنا البغيضة...

إنك وأنت تتصالح مع نفسك ، وتتسامح مع الذين ظلموك تكون الأقوى ، وتكون الملاك المفضل عند الله ، ولا ملاك أعز منك حتى جبريل...

أية إنسانية هاته التي تريد أن توصف يها ، وهي خالية من حب الحياة ؟ ... أية إنسانية هاته التي لا تحركها صيحة رضيع يتألم ، وهو لا يدري أنه سوف لن يرضع أبدا ثدي أمه ؟... أية إنسانية هاته التي تسمح لك بأن لا تفكر إلا في نفسك المفردة ، وتلغي مقابل ذلك حياة أسرة ، بل مجتمع ، بل أمة كاملة ، تلغيها بشتى أشكال التعذيب والمعاناة؟ ...

ما هذا العنف المقدس في رايهم ؟

أفهمتم لماذا أهرب من الحاضر الى الماضي ؟ هل أدركتم أخيرا لماذا أنا أشعر دوما بالحنين لهذا الماضي ؟

أية إنسانية هاته التي لا تعرف إلا الحرب ، ولا تؤمن إلا بسفك الدماء ، ولا تعبد إلا القوة ؟ القوة التي تتحكم وتحدد الحصص في الحياة .

أية إنسانية هاته ، التي تريد أن تنمو وفي جنباتها عبر أصقاع الأرض بشر، لا يفكرون ولا يخططون ولا يبيعون ويشترون ، إلا الموت والقتل وعذاب البشرية ، ويدعون كل مرة أنهم رسل السلام والحرية ؟

لماذا لا نبنيها حضارة فينيقية ، لم تستعمل الحرب أبدا ، استعملت التجارة فقط ، وعمرت حوض البحر الأبيض المتوسط ؟ أليست في النهاية حضارة عربية سامية ، ويقولون اليوم أن العرب منهم خرج الإرهاب ، يحبون الدم والدمار ، ماهذه الأحكام المجحفة الكاذبة ؟ كم أصبحت ذاكرة الناس هشة ومثقوبة .

الغرب لا يزال حبيس نظرته الاستعمارية الاستبدادية ، ما جعل المقاومة ضد هذه النظرة حقا مشروعا ، إن هذه المقاومة تستمد شرعيتها من هذه النظرة المجحفة ، إنه في النهاية الفعل ورد الفعل ..

* ما الذي تريد قوله يا كمال ؟ وما الذي تريد أن تفعله أكثر من مصالحتك مع نفسك ، ومع الآخرين ، ومع زمانك ؟

هل تريد أن تصلح الكون ؟ إنك لست نبيا ... وحتى لو كنت نبيا ، فهل سبق وأصلح الأنبياء الكون ؟ وما أكثرهم نبي لكل زمان ومكان ، ربما حاولوا كل واحد بتعاليمه ، وكل واحد بوصاياه العشر أو العشرين ، لكنهم لم يغيروا من الكون وما في الكون من اعوجاج ، بل إنهم أنفسهم تعرضوا للعذاب والضرب والصلب والعنف المقدس وغير المقدس .

ثم ما هو الطيب والخبيث ، والمستقيم والمعوج ؟ إن كل واحد من الناس يرى ذلك بمنظاره الخاص ، وهواه ، وحسب ظروف الزمان والمكان .

الناس يرون أشياء واحدة ، فيعتبرها بعضهم عادلة ، ويعتبرها آخرون جائرة ، وهم دوما بسبب ذلك يختلفون ويتنازعون ، ويتسع بينهم الخلاف ، ليصبح معارك وحروبا ، فردية ضيقة ، ثم جماعية عشائرية، ثم أممية واسعة ، تبدأ قصيرة الأمد ثم طويلة ، كحرب البسوس التي أشعلت فتيلها ناقة ...

قال له صديقه مراد يوما وهو يحاول التخفيف من حيرته النظرية :

* إذن ، في رأيك أن أمورا بعينها ، تجمع في ذاتها العدل والجور ، والخير والشر ، حسب كل وجهة نظر ؟

* يبدو ذلك يا مراد ، وكم يبدو الإنسان متناقضا وغريبا ومدهشا...

* ألا تتمنى يوما أن يكون كل الناس على رأي واحد ؟

* كلا ، يا مراد ، إنك ساعتها تريد إلغاء العقل لدى الإنسان ، إن الاختلاف دليل حي على عملية العقل الفاعلة ، وحركيته الوثابة ، وولادته للأفكار الجديدة ...

أن تكون نبيا ليس شرطا أن تغير الكون ، ألا يهدى الله من يشاء؟ يكفيك جهدا أن تنير طريق البشرية ، أن تنير شمعتك بدل أن تلعن الظلام، تكلم عن نفسك فقط ، رغم أنه لا فرق بين القضايا العامة والقضايا الخاصة ، وهذا النسيج المتشابك لخيوط القضايا يغيب عن عيوننا، بداية الخيط ونهايته ومحتواه .

أأدركتم لماذا أهرب الى الماضي من الحاضر ؟

تعب كلها الحياة ، فما أعجب إلا من راغب في ازدياد ، هكذا شاء حظ كمال أن يشترك في معركة فلسفية ، لا قبل له بها ، معركة الرابح فيها هو الخاسر الأكبر .

***

اختصر كمال الزمن ، وفلسفة الزمن ، وفلسفة الحياة كلها ، وهو جالس على عتبة قبر والدته « عتيقة » ، هذه المرأة التي كان عندما يراها يجد نفسه الضائعة ، ويتاكد من حقيقة أجمل الأحاسيس ، وعندما يزور قبرها ويشم زهرة نبتة « العطرشة » وهي تزينه وتظلل عليه يجد نفسه ، بل إنه يجد حياته كلها ، بدءا من طفولته الوديعة الهادئة ، أليس الإنسان منا كتلة مشاعر وأحاسيس ؟ .

إنها امرأة استطاعت أن تكون له كل شيء الأم ، والأخت ، والصديقة ، إنه ابن عمرها ، وقد ولدته وحيدا ، ثم أصابها العقم ، فلم تلد بعده ، وشحت الرحم فلم تشأ أن تضع له مثيلا ، لا تريد أن يكون رقما مكررا بين البنات والذكور مثل رفيقه مراد .

اختلطت المشاعر وتنامت وانسجمت ، لتصبح أمه رمزا لا مثيل له بين النساء .

أمه بين النساء ، مثل قبرها بين القبور ، في هذه المقبرة الرحبة الهادئة بقبورها وشواهد وأسماء سكانها ، وتلك الآيات القرآنية ، التي يحلو لأكثر الناس أن يتذكرها فقط ساعة الموت ، إنه بين هؤلاء لا يشعر بغربة الموت ، الجميع حوله وربما يرونه ، ويرحبون به ، ويستعجلونه في الالتحاق بهم ، في عالمهم اللانهائي .

قضى ساعة كاملة من الزمن جاثما على قبر واحد ، قبر أمه ، سيدة النساء جميعا ، والآخرين اكتفى معهم بقراءة الفاتحة على الجميع ، حتى حبيبته راشيل لو كانت دفينة مقبرة المسلمين ، لكنه لا يدري أين هي وهل هي حية أم ميتة ؟

وعندما وصل الى قبر والده « عمي صالح » تذكر عمته ، هاهو قبرها جنب قبر والده ، والفاتحة لا تكفي لهذه العمة ، إنها أخت والده الوحيدة ، كانت سيدة من نوع خاص ، ذات شخصية جريئة عكس والدته « عتيقة » ذات الوداعة والرقة ، عمته كانت مختلفة عن جميع من رأى وعرف من النساء ، كانت ذات شخصية قوية ، كانت مهووسة بإعجاب زوجها الشيخ « الباش عدل » هذا المنصب الذي لم يكن ليصل إليه أي كان من المسلمين في ذلك الوقت ، إنه بالإضافة للتكوين الشرعي وإتقان اللغة الفرنسية ، والتخرج في النهاية من المدرسة الفرنسية

الإسلامية، هنالك أيضا ذلك الرضا من الإدارة الحاكمة ، هـــذا الرضـــا الذي لا يمكن أن يحصل عليه الآخرون بسهولة في ذلك الوقت .

كان موقف زوج عمته « بية » من الاستعمار يختلف عن موقـــف والده ، وكانت عمته « بية » تعتقد أن كل العالم على خطإ ، إلا زوجها ذا النظارة الذهبية والملابس التقـــــــــليدية البيضاء المطرزة بالخيوط الذهبية ، بـــدءا من العـــــمامة الى « البلغة » ومرورا بالـــصدرية و« الشملة » وهي تحيط وسطه في أبهة بايات الأتراك ، وحتى أخيها « ســـي صالح » لا يمكن أن يكون في مستوى زوجها «الباش عـــدل» خـــصوصا وهو يتبع هذه التنظيمات الإصلاحية ، وهذه الأفكار الهدامة ، التي تدعو لخروج الحكام الفرنسيين من البلاد .

ورغم ذلك كانت فاتحة الكتاب ، التي قرأها كمال على قبر عمته « بية » لا تختلف صدقا ونية عن الفاتحات الأخرى، التي قرأهـــا علـــى والدته، ووالده ، وزوجته ، وسكان القبور أجمعين ، ألا يصبح الجميع بعد الموت أسوياء ، في حاجة الى الرحمة ؟ .

هاهو يبدو كمشروع ميت ، وهو يرى كل هـــؤلاء الأمـــوات يدفنون فوق بعضهم البعض ، مكدسين مبعثرين ، وكأن أديم الأرض قد عجنت بهم ، وشكلت تضاريسها من جمـــوعهم عـــبر الأزل والأبـــد ، تزاحمت وتعاشرت ، ثم اضمحلت فلا يبقى منها إلا ذلك الرفات الأغبر ،

ليشكل كل مرة ، وبعنفوان أديم الأرض ، التي نعيش عليها سواء عبر المقابر أو بعيدا عنها عبر القصور والحدائق .

ألم يصدق القول « رهين المحبسين » وهو يرجونا أن نخفف الوطء، لأن أديم الأرض معجون بهذه الأجساد ، التي تتدافع كل مرة للفناء ، كما تتدافع المواليد نحو الحياة كمشاريع جديدة للموت .

وتذكر فجأة حبيبته الأولى راشيل ، تذكر يوم رحيلها عن المدينة، تذكرها وهو يقرأ الفاتحة على قبر زوجته ، التي أحبته واكتفت بحبها له مهرا ، ولم يلحق هو ليحبها مثل راشيل ، لأن الموت سبقه الى حبها والاستيلاء عليها .

تذكر يوم الرحيل ، وقد حزم الفرنسيون واليهود حقائبهم مغادرين المدينة ، عبر الطائرات والبواخر ، حيث أضحت موانيء البلاد تعج بهم وبأولادهم ، وبما خف حمله وغلا ثمنه ، وكان ذلك بعد أن اقترفوا أبشع الجرائم في الأهالي ، وحتى معارفهم وجيرانهم من المسلمين .

لقد وجد الجزائريون فيما بعد أكداس الجثث من النساء والرجال، في سراديب البيوت ، التي كان يسكنها المعمرون ، انتقاما من هذه الثورة، التي فتحت أعين الجزائريين الجهال على أن الجزائر بلادهم ، وأنها تختلف عرقا واصلا وحضارة عن أصول وحضارة هؤلاء الوافدين من المعمرين اليهود والنصارى وغيرهم ، رغم عشرات السنين .

تذكر كمال أيام غادر هؤلاء المدينة ، التي عطفت عليهم وآوتهم ، وربت أجيالهم بخيراتها ، ولم تبخل عليهم بمكرمة لا فرق بينهم وبين السكان الأصليين أصحاب المدينة والمدن الأخرى ، بل إنهم هم الذين أصبحوا يتمتعون بحقوق الساكن الأصلي الذي حرم من كل الحقوق بسبب طغيانهم واستبدادهم .

كمال لم يكن حاضرا ساعة الرحيل ، لأنه أشفق على نفسه من ذلك الموقف الصعب ، لقد تأكد أنه موقف صعب للغاية ، لذلك تطوع أصدقاؤه ، وذكروا له أن الجميع من المغادرين نصارى أو يهود ، كانوا وهم في انتظار ساعة الرحيل يذرفون الدمع ، في حيرة ، أين يتوجهون ، إنها مدينتهم بل الجزائر كلها بمدنها وقراها ، هي بلدهم ، بلد آبائهم الذين عمروها واستغلوا أراضيها واستثمروا خيراتها ، وعندما ماتوا دفنوا في أرضها ، إنهم ولدوا وشبوا وتزوجوا فيها وبنوا لأجيالهم القادمة مستقبلهم ، وكأنهم سيبقون فيها ويخلدون ...

وقاطع كمال يومها صديقه « سعيد » وهو يصف له المشهد باسى :

* ولكنهم يا صديقي هم الذين اختاروا لأنفسهم هذه النهاية المأساوية ، إنهم لم يفكروا جيدا في الاختيار ، إن الثورة خيرتهم بين البقاء كمواطنين لهم نفس الحقوق والواجبات ، وبين اختيار معسكر

الاستعمار، الذي دمر كل شيء ، وأفنى البشر ، وهدم القرى والمـــدن ، وقطع كل أمل في التواصل والتعاون بينه وبيننا .

إنهم استكثروا علينا الحرية وتقرير مصيرنا بأنفـــسنا ، رغـــم أن المطالبة بالحرية حقنا كشعب ، إننا لم نصل الى هذه النتيجة كما ترى إلا بعد استنفاد كل المحاولات السلمية عبر أكثر من قرن ، هذه هي طبيعـــة الفكر الكولونيالي ، إنه لا يريد أن يعترف بحقوق الشعوب في الـــسيادة ، وهذه هي النتيجة كما ترى .

لقد كذب الاستعمار على نفسه وعلى غيره كذبـــة ، ثم صـــدق نفسه وصدقتها أجياله فيما بعد ، كذبة دامت قرنا وربع قـــرن، ورغـــم ذلك فإن الكذب لا يدوم ، والحقيقة لابد منتصرة .

كان « سعيد » يتابع كلمات كمال وهو يتأمل وجهه المتحمس، باحثا عن مشاعر يحاول كمال إخفاءها ، كان ينتظر أن يذكر له كمـــال اسما بعينه ، أو يطرح عليه سؤالا خاصا ، وهو الذي عاش المشهد كله من ميناء سكيكدة .

لكن كمال لم يزد على ذلك ، ربما كان داخل نفسه يريد مـــن صديقه سعيد معلومات وتفاصيل أكثر، تروى غليله عن امرأة أحبها ، و لم يحب غيرها ، فيما بعد ، لكن وجهه لم يفصح عن شيء ، ســـوى هـــذا الحماس المبالغ فيه ، والذي يشى بأمر آخر تماما ، غـــير هـــذه الخطبـــة العصماء عن الاستعمار والحرية والشعوب المضطهدة

غير أن سعيد حقق رغبة كمال المستترة ، وقال بأسى اكبر :

* أتذكر يا كمال جيراننا في سيدي جليس ؟ عائلة زقزيق ، لقد كانوا من بين الراحلين أمس ، وقد رأيت الأم وابنتها راشيل وزوجها وابنها ينتظرون الباخرة ، وكأنهم يودعون ميتا فارقهم للتو .

وصمت قليلا ثم استطرد :

* والله ، يا كمال عندما رأيتهم على تلك الحال دمعت عيناي ، وكأنني أفارق جيراني الى الأبد .

وأطرق كمال ، إنه يعلم جيدا ما معنى أن نفارق من أحببناهم في يوم من الأيام ، حتى لو مضى على هذه الأيام دهرا، إن شيئا ما في حناياه يتحرك، فيحرك الحنين ، يجدده ، يسقيه كما نسقي نبتة ذابلة ، تصورنا أنها جفت وماتت ، لنجدها فجأة وقد سرت الحياة في وريقاتها ، لتذبل مرة أخرى أو تموت لأننا لا نريد لها الحياة .

إن الأمر لا يعنيه حقيقة ، فما الذي بقي من تلك الأيام ، وجميع الذين أحبهم أو لم يحبهم قد رحلوا ، غادروا الحياة كلها أو غادروا البلد مرغمين الى بلد آخر ، هو بلدهم أو غير بلدهم ، المهم أنهم هم الذين اختاروا ذلك تحت مظلة الظروف المرغمة ، والحياة كلها على ما يبدو موقف واختيار، بحجة أو بأخرى ، رغم أن الوطن هو الجسد ، الذي يرتمي عليه حلم الغد ، والروح التي لا يحدها الأمس واليوم والغد ، وما

بعد الغد ، إننا عند قدمي الوطن نرى أوضح ، ونحلم أجمــل ، ونحــب أكثر.

رغم أننا في حياتنا ننتقل من محطة الى أخرى، لننسى مع المحطــة الجديدة ، المحطة السابقة ، والذكرى تسجل كل محطة بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة ، وكأنها تلتقط الصورة ، التي تبقى أبدا ، لتسترجع كل مــرة ، باهتة تارة ، وواضحة تارة أخرى ، باعثة للحنين والشجن كل مرة .

***

تتحرك قدما كمال مرة أخرى بمشقة وهو يغادر المقبرة ، إنها قطعة الأرض الوحيدة التي تحوي في أحشائها أسرته وأحبابه ، في الحقيقة هذا هو بيته الحقيقي ، أين تكون العائلة يكون بيتك ، وبيت بدون عائلة غير بيت ، إنه متحف اثري يقتصر على حارس كسول نائم أغلب النهار، متحف غباره يخنق الأنفاس ، ويثير في النفس الشعور بالعدم وعبثية هذه الحياة التي نحبها ونحبها ، رغم ما تخفيه لنا من مفاجآت .

* لكن أية مفاجآت سأنتظر بعد كل هذا العناء ؟ وبعد هذا العدد من السنين التي تثقل كاهلي ؟ لا مفاجأة بعد اليوم ، إن ما سيحصل لي بعد اليوم هو متوقع ومحتمل ، إن التجارب عندما تتكرر تفقد طعم المفاجأة .

* لا تقلق إنك عابر سبيل لا أكثر في هذه المدينة المحطــة، لقــد كانت في الماضي هي محطتك الأولى والأخيرة، أما الآن فهي محطة من بين المحطات الأخرى ، ستفارقها قريبا ، لتنتقل الى محطة أخرى ، ربما فيها من الأمور السارة ما ينسيك من ذكريات غير سارة .

ويجيب نفسه :

* ومن قال أنها ذكريات غير سارة هاته التي تهز كيــاني كلمــا دخلت مدينتي الشفافة ؟

إنها ذكريات وكفى ، بل إنها أجمل مرحلة من حيــاتي ، طفولــة عذبة مدللة ، وعائلة رائعة ، وجيران وأصدقاء ، وعذاب حب ملك علي حياتي ، وأشعرني أنني قد ملكت العالم وأنا أعــاني عذابــه وعذوبتــه ، وشوارع وأزقة ، وناس أشعر معهم دائما بالدفء والحنان والانتمــاء ، وقضية رائعة أثبتت فيها وطنيتي وحبي لبلادي وتاريخ وهوية بــلادي ، وتضحية من أجل كل ذلك ، وأجمل من كل ذلك هذه الأمنيــة الــتي تحققت لي من دون رفاقي ورفيقاتي في أنني عــشت وحــضرت لحظــة الانتصار لحظة انتصار القضية ، وقد لا يدرك المجتمع الذي أعيش فيه أنني حققت تقدما أم لا ؟ أو هل أنني عملت لصالحه أم لا ؟ لكن أليس التقدم في النهاية هو الرضا ؟

ها أنا أعيش وأرى كل ذلك بعيني وقلبي ، في الوقــت الــذي لا يتحقق ذلك لأعز رفاقي ، مراد حبيب قلبي، ومريم، ومعمر، وفــضيلة،

ومحمد، وحملاوي ، وغيرهم من الشباب ، وقد كنا نــصول ونجــول في ميدان توضحت معالمه لنا ، كفجر عنيد يبزغ بعد ليل طويل ، غمــضت أهدافه ومراميه على الاستعمار ، فكانت النتيجة كما نرى النصر والحرية.

هاهم يموتون وأبقى على وجه الحياة ، الله أراد ذلك ، وليس ذلك حرصا مني أو حذرا ، إنه القدر ، يفعل ما يريد ، وهاهم رفاقي لا اختيار لهم بين الموت والحياة ، وكلاهما أمر مقدر ، لكنهم في الحقيقــة ليــسوا أمواتا ، إنهن أحياء في قلوبنا وعقولنا ، وفي تلك الذاكرة التي تحفظ الوفاء أكثر مما تحفظه الحياة .

لماذا إذن الشكوى ، وقد فعلنا ما نريد ، وفعل الله ما يريد ؟

ما كان يفكر فيه كمال لم يكن تعبيرا ، بل كان احتواء ، ليجــد نفسه خارج البوابة الكبرى للمقبرة ، فيلتفت الى الوراء ويمسح داخلــها بناظريه مودعا ، وكأنه متيقن أنه لن يزورها على الأقل قريبا ، بل إنه لا يدري هل سيزورها نهائيا ، أو أنه سيرجع إليها مقاما وســكنا ، فــوق الأكتاف مثل غيره من الناس .

لم تفعل الفكرة الأخيرة في نفسه أي أثر ، ولم يكن متألمــا علــى نفسه ، بل كان وكأنه يحاول أن يدفع أكبر قدر من الــضريبة الفكريــة لهؤلاء الذين فقدهم وبقي هو على قيد الحياة دون رغبة منه أوحــرص، وكأنه يخونهم ، يهجرهم يغادرهم ، في الوقت الذي هم الذين غــادروه وهجروه دون رغبة منهم أوحرص كذلك .

وصل كمال الى بيته ، ذي الغرفتين ، والكثير من الكتب والاسطوانات والغبار ، وصل بعد ساعتين كاملتين قضاهما بين المقبرة والبيت ... المسافة في حقيقة الأمر لم تكن طويلة ، لكنه أرادها أن تكون طويلة ، وابتسم راضيا عندما تذكر أنه وهو يقصد المقبرة كان يحمل باقة من أزهار النرجس ، ليضع على كل قبر يزوره زهرة أو زهرتين .

تعجب بعض زوار المقبرة الذين قابلهم من هذا التصرف ، تذكر ذلك وهو ينزع سترته ويعلقها دون أدنى اهتمام ، في حركة غير واعية لأكداس الغبار وهي تغطي كل شيء في البيت .

الناس تعودوا أن يروا الأزهار فقط على قبور النصارى ، أما قبور المسلمين فبعض أغصان من الريحان تكفي ، عادة سخيفة في نظرهم ، وهم لا يدركون أنهم يحرمون موتاهم حتى من عبق الزهور العطرة ، والتمتع بجمالها ، ما المانع أن نضع زهورا على القبور، ولا نكتفي بنبتة « العطرشة » وغصينات الريحان الخضراء ؟ ما المانع أن نقلد الآخرين ، في الأمور الجميلة والعادات الطيبة ؟

إننا نجد مقابر المسلمين لا تحوى سوى الموت ، ومقابر النصارى واليهود حدائق وجنائن ، وكأن سكانها يدخلون الجنة في الأرض قبل أن يسكنوها في السماء ، رغم أنهم موعودون بدخول النار .

تمدد على كرسي ، كان قد انتبه ونظفه من الغبار ، ارتاح قليلا ، لكن نفسه كانت ترغب في عمل أي شيء ، أراد أن يشغل يديه وبدأ يبحث بعينيه عن أي شيء ، ليرى صفا من الكتب رصت على رف صغير توجه إليها ، عناوينها غطاها الغبار ، وصفحاتها التصقت ببعضها بفعل عدم الاستعمال .

أوراق الورد ، وفلسفة الجمال ، ورسائل الأحزان للرافعي ، ديوان المتنبي ، البخيل لموليير .. عناوين كثيرة ، كان والده قد اشتراها له في مرحلة الدراسة بالثانوي ، وقد خاف عليه من أن تطغى عليه الثقافة الفرنسية ، فيجهل الثقافة العربية ، وكم كانت فرحة والده كبيرة ، عندما وجده يوما يقرأ ديوان المتنبي ليساله بفرح :

* هل أعجبك الديوان يا بني ؟

* نعم يا أبي ، لقد أحببت الشعر ، و لم أحب صاحب الشعر .

* كيف ذلك ؟ تحب شعر الرجل ولا تحب الرجل ؟

* نعم يا أبي ، الشعر كلام جميل ، لكن صاحب الشعر وجدته رجلا مغرورا بما يقول ، وربما بين ما يقوله وما يفعله بون شاسع ...

* لا حول ولا قوة إلا بالله .

قطع بها « عمي صالح » حواره الغامض مع ولده الوحيد ، وحتى لا يغضبه ، إن هذا النوع من الحوار دليل على الضياع والغموض ، أكثر مما هو دليل على الفهم ، إنها الفلسفة التي تفسد العقول ، لذلك حرمها الكثير من الشيوخ والعلماء ، كان عمي صالح يدافع في نفسه عن المتنبي ، وكأنه يدافع عن أمر له قداسة ..

باندهاش فسر« عمي صالح » وقتها ملاحظة ولده كمال ، رغم أن ملاحظة كمال كانت تبشر بعقل واع ، يقرأ ، ويفكر ، ويغربل ، ولا يأخذ أي شيء على علاته ، آلة العقل عنده تعمل أكثر من آلة التلقي والحفظ .

وتذكر كمال ، وهو يتصفح الكتب ، أول كتاب قرأه بالمدرسة الابتدائية ، وكان بعنوان « الملك لير»

يومها أعجب كثيرا بالقصة وحكاها لأمه لتحكيها هي بدورها لجاراتها بفخر ودهشة في آن :

* كيف يمكن أن يمسخ الناس الى ذهب ... وهل ذلك خـــير أم شر؟

وتحاول أن تقنع جاراتها المندهشات :

* إنه شر طبعا ... إننا لا يمكن أن نستغنى عن الأكـــل والمـــاء ، وأحبابنا وأبنائنا ... حتى لو كانوا ذهبا ...

تصوروا أن كل ما نلمسه يصبح ذهبا ... كل شيء يصبح ذهبا ، لكن دون فائدة ...

كان ينظر لأمه بسعادة وهي تحكي القصة وكأنها حقيقة حدثت ، ويتعجب :

* كيف لا تفرق أمه بين الحقيقة والخيال ؟

وضحك ، وهو يمسح الغبار عن صفحات هذا الكتر من الكتـــب الزاخرة بالعلوم والمعارف والخبرات الانسانية ، إن مثل هذه الكتـــب ، لا نجدها اليوم بسهولة ، فلا المتنبي ، ولا على محمود طه ، ولا موليير ، ولا الرافعي ، من الأدباء الذين يقرأ لهم جيل هذا الزمان .

الزمان تغير ، ومحتواه تغير ، ومفاهيمه وأدواته تغيرت ، إننا اليوم قليلا ما نجد الطالب في مكتبة ورقية ، نجده ربما أمام كومبيوتر ، محركـــا فأرته الصغيرة ذات اليمين وذات الشمال ، لتأتيه كل كتب الدنيا بـــين يديه في لحظات ، وكل المعلومات في ضربة زر من أصابعه ، فهل هذا مما يغني عن الكتاب القديم شكلا ومضمونا .

لقد اعتقد كمال دائما أن هذا لا يغني عن ذاك ، والعلم تكامل وليس قطيعة معرفية ، إن ما كتبه الأولون هو ركن تأسيسي لما يكتبه من جاء بعدهم ، ربما عالجوه بفهم جديد ، وطرحوه من زوايا جديدة ، للوصول الى نتائج أكثر إيجابية ، لكنه يبقى أساسا لليوم تماما مثلما اليوم هو أساس للغد ، ثم إن المعلومات التي نتلقاها من هذه التكنولوجيات الحديثة ، هي مفروضة علينا من الماسكين بخيوط المحتويات ، والتي لا تخلو من رسائل مغرضة ...

* لماذا إذن يلومني الناس ، عندما أحن للماضي واهفو إليه ، ألست أنا الماضي وأنا الحاضر وأنا المستقبل ؟

أتم كمال قراءة بعض صفحات الكتاب الذي بين يديه ، ثم وضعه جانبا ، وبدأ يتصفح جرائد اليوم ، عناوينها المختلفة السوداء منها والبيضاء، كان كمن يبحث عن موضوع معين ، يروي من خلاله عقله المتعطش دوما للتحليل والفكر المعمق، لكنه فشل إنه لم يجد سوى هذه العناوين الضخمة السوداء المتربعة على بياض الصفحات ، كبضاعة تتزين وتعرض نفسها للبيع ، منافسة البضائع الأخرى ومزايدة عليها، عناوين تطغى عليها المبالغة والتعميم والاستهتار بذكاء القاريء وغباوته في آن .

وتذكر عندما كان مساهما في التأسيس لكل أمر جميل في هذا الوطن ، يومها كان بناء الإنسان هو أهم الأهداف ، الرقي به والرفع من مستواه ، عقل الإنسان وقلبه هو المردود الأساسي ، وليس ملايين

الدينارات كمردود على تدمير عقل الإنسان ، ومسح الأمل من قلبه ، والاستهتار بذكائه ورأيه .

وأعاد ترتيب هيئته على الأريكة ، وبدأ يقرأ ويقرأ ويقرأ ، وقرر وهو يفعل ذلك أن لا يترك المدينة قبل أن ينظف بيته هذا ، تنظيفا يليق بوفائه له ، ويا حبذا لو استطاع أن يبدأ بتنظيف ذهنه من حالات اليأس والإحباط ، التي تكاد تتمكن منه ، وهو يرى ما حوله ، ومن حوله من ظواهر ومظاهر بئيسة .

ونام وهو يقرر ذلك ليراها في حلمه ، مدينة شفافة من بلور ، لها جسد إمرأة تبدو تارة في شكل راشيل ، وتارة في شكل نفيسة ، وتارة في وجه أمه الطيبة ، وحولها مجموعة من الجارات يقلن كلاما كثيرا بين الدمعة والبسمة والتنهيدة .

* آه كم أنت دافئة كليلة حب ، بعد هجر أيتها الليلة ...



أيقظه طرق خفيف على الباب ، انتفض بفزع ، وكأنه ينتشل نفسه من بئر عميقة ، نومه بدأ خفيفا على أريكة مع كتاب غطي الغبار عنوانه ومحتواه ، وصحف مستهترة يغلب على شكلها ومحتواها السواد ، وأحلام يقظة ، لا هي بالحقيقة ولا هي بالخيال ، اختلط فيها الحاضر بالماضي ، ثم بلا شيء البتة ، وقد غاب في سبات عميق نتيجة تعب ارتضاه لنفسه ، عندما اختار أن يصل الى المقبرة سيرا على قدميه .

طرق خفيف ، فمن يكون هذا الطارق ، في مثل هذا الوقت المتأخر من المساء ؟ الساعة التاسعة ليلا ، والليل لا يأتي بصديق كما كانت تردد أمه عتيقة ..

الساعة التاسعة والناس في هذه الأيام الصعبة ينامون على السادسة، يدخلون أعشاشهم كالدجاج خوفا وحيطة ، لا سهر ، ولا نـور ، ولا سمر ، ولا متعة ..

إن أحدا من هؤلاء الجيران ، والذي لا يسكن معهم ، إلا أياما قليلة في كل عام أو عامين ، لا يكادون يعرفونه ، ثم من يعرف أنه هنا ؟

وتفطن الى الأضواء وهي تنير كل جوانب البيت ، فنهض متثقلا ليفتح للطارق ، دون أن يعيد السؤال عن من يكون ؟

* مساء الخير يا سيدي ...

* مساء الخير ... سيدتي ... من أنت ؟ وماذا تريـدين ... أية خدمة ؟

كان سؤالا عاديا وبتحفظ كبير ، لكن السيدة ابتـسمت وردت عليه بأدب ودماثة :

* إنني جارتك ، بيتي هذا المقابل لبيتك ، كلانا في الطابق الرابع من العمارة ... لقد رأيت الأنوار مضاءة ، فارتبت في الأمـر ... إن عمليات السرقة كثرت هذه الأيام ، وأولاد الحرام أصبحوا أكثر من أولاد الحلال ...

وسكتت ... وهي توجه نظرها الى وجهه مستغربة الدهشة التي أكلت كل وجهه .

كانت امرأة في حدود الستين ، ذات وجه طيب وملامح نبيلـــة ، إنه لا يعرفها لكنها بدت له كذلك ، هاهي تريد أن تفعل خـــيرا وهـــي تطرق الباب لتطمئن على البيت ، أليس الجار مسؤولا من جيرانه ، وحتى لو لم تكن تعرفه هكذا مباشرة ، ولم يسبق وكلمته ، فإنه يبقى جارها ، والجار قبل الدار كما يقولون .

وانتبه لنفسه ، إنه لم يقل شيئا ، ولم يرد على حيرتها أو اهتمامها، وكأنه لا يبالي ... فقال معتذرا شاكرا لها لطفها واهتمامها بمصلحة الغير:

* شكرا سيدتي ؟ مرحبا بك ، أنت إذن جارتي في الشقة المقابلة ، أهلا وسهلا ، تفضلي نتكلم داخل البيت ... عذرا عذرا مرحبا بك ...

وانتحى جانبا لتدخل الجارة بدون تردد ... فيلحقهـــا طفـــل في حدود الخامسة من العمر ، مفزوعا ينادي في شبه خوف :

* جدتي ... جدتي .. أين أنت ؟ لماذا تركتني وحدي ؟

لعل الطفل كان نائما ، وعندما سمع هذا الهرج أمام الباب استيقظ مفزوعا وخرج يبحث عن جدته ...

أخذت الجارة الجدة طفلها بين أحضانها ، وهي تتهيأ للجلـــوس على كرسي قريب من الباب ، لتكمل حديثها مع هذا الجار ، الـــذي لم تره عن قرب قبل اليوم ، رغم أنها تعرف اسمه من صندوق بريده ، وتعلم أنه لا يأتي بيته إلا مرة كل عام أو عامين .

كان كمال العطار ينظر الى جارته ويتأملها ، وقد جلس قبالتها ، مداعبا شعر حفيدها النصف نائم ... وقد راودته فكرة الاهتمام بالحديث مع هذه الجارة ، التي يدرك أنها فعلا جارة مع جيران كثيرين له ، يسكنون هذه العمارة منذ استقلال البلاد ، عمارة جميلة كان يسكنها المحتلون ، وعندما رحلوا احتلها المواطنون ، إنها حق من حقوقهم ، وقد استرجعوها بكفاح طويل مع ما استرجعوا من حرية وأرض ومقدرات ، إن من حقهم أن يسكنوا الدور العالية الجميلة ، وقد قضوا عشرات السنين في الأكواخ والبيوت المظلمة ، التي لا تدخلها الشمس ، وهم أهل و أصحاب البلاد .

جلس كمال محتشما متواضعا مبتسما ، وفي لسانه كلام كثير، هاهو فجأة يريد أن يتكلم بصوت ودون صوت .

هنالك نوع من الفضول ، لا يمكن أن نتحاشاه ، لأننا به نتصور أننا نحقق شيئا إما لنا أو للآخرين ، وفضول كمال اليوم ، هو في أن يعرف كل شيء عن العمارة والجيران ، ثم أن هنالك أسئلة كثيرة ، لا يمكن إهمالها ، ولن نجد لها أجوبة إلا بطرحها ، وإلا فإننا نتعب عند كتمانها .

وهاهي الفرصة تأتيه ماشية على قدميها في شخص جارته هذه ، في وقت لم يكن يتصور أنه سيستقبل فيه أحدا ، وقد اختلط في تعبه الليل بالنهار .

إنه من المفروض أن يكون قد تعشى ونام ، لكنه وطول اليـــوم لم يأكل شيئا ، لأنه كان قد غاب في رحلة قصيرة بين حلم وحلم ، ويقظة ويقظة .

ولم يقل شيئا ، لم يبدأ لا بالسؤال ولا بـــالكلام ، لأن الجـــارة اللطيفة كفته مؤونة ذلك ، فبدأت تتكلم وحدها ، وتـــسأل وحـــدها ، وتحكي وتقدم تقارير مسهبة دون كبير عناء ، لا منه ولا منها ، أعفتـــه عناء البداية ، وحرج الاستمرار في الكلام .

* إنني أسكن الشقة رقم ثمانية منذ الاستقلال ، سلمت لي مـــن طرف مسؤول الثورة ، الذي كنت أعمل معه ، بولايتنا التاريخية الثانية ,

زوجي مجاهد مثلي ، لكنه توفي متأثرا بجراحه التي تورمت ، بـــين زنزانات السجون ، من سجن « الكدية » بقسنطينة الى سجن « لامبيز » بالأوراس ، فلم يعش من الاستقلال إلا بعض الشهور ، والحمد لله أنـــني أنجبت منه طفلا كبر ، وفرحت به ، وزوجته ، ولم يبق لي منـــه اليـــوم سوى ابنه هذا الذي ترى « محمد » .

وسكتت ... احتار كمال ، وهي تسكت فجأة ، وقـــد بـــدأت تحكي قصة حياتها دون إلحاح منه ، لم يكن مهيئا لسماعها أو الدخول في تفاصيلها وأسرارها هكذا بسرعة ، فوجد نفسه يقبل علـــى الاســـتزادة قائلا:

* ثم ماذا يا سيدتي ، قلت أنك مجاهدة ، مات زوجك وترك لك طفلا أصبح رجلا وزوجته وأنجب لك بدوره هذا الطفل « محمـــد » ثم ماذا؟ هل مات ابنك أيضا ؟

* لقد فهمت يا سيدي نصف الحقيقة ، لكـــن ابـــني لم يمـــت حقيقة...

* أنا لا أفهم ، وأين ابنك إذن ؟ أين أبو هذا الطفل الصغير ؟

وتنهدت المرأة بعمق ، وهي تنغلق من جديد ، وكأنها لم تنفـــتح قبل دقائق وتقدم له تقريرها مجانا ، لتقوم حاملة صغيرها بعناء ، لأنه كان قد غرق في النوم من جديد ، وتغادر غرفة جارها المهتمـــة بمـــصلحته ، وكأنها تندم فجأة على تسرعها في البوح .

كانت وهي تخرج كمحارة تنغلق على نفسها من جديد، خوفـــا من بوح قد يصاحبه ألم، ألم كبير، لا تريد أن تعاني منه مرة أخرى، وقد بدأ الجرح يندمل ...

هكذا كانت تبدو ، لكن كمال لم يفهم شيئا ، بل زادت دهشته وزاد فضوله ، وتأكد فجأة ، أنه لم يعد يصلح للحوار مع الناس ، أو أنه فقد سياسة الكلام مع من هم أقل منه مستوى أو علما ، أو ربمـــا فقـــد القدرة على الحديث مع النساء جميعا .

خرجت الجارة اللطيفة وفي صدرها كلام كـــثير ، ربمـــا رأت أن الظرف غير ملائم للبوح به ، كلام يحتاج الى وقت أطول وظرف أكثر

ملاءمة ، وهي لا تريد أن تبدو ضعيفة أكثر من ذلك ، وهذا الجار الذي تراه لأول مرة ، كادت أن تحكي له القصة كلها ثم أحجمت ، لعله مثل غيره لن يعبأ بما ستقول، أو حتى يفهم ما ستقول، فلماذا تفتح الجرح من جديد ، لتخرج معتذرة للرجل ، ومتمنية له ليلة سعيدة .

* الصباح رباح ، لعلها فعلت خيرا ، فلست في حاجة لهموم أخرى.

قال كمال العطار الجملة في صدره ، وأغلق وراءها الباب ، بعد أن تأكد أنها دخلت شقتها وأغلقت عليها وعلى حفيدها « محمد » بابها الحديدي .

كل شقق العمارة لها أبواب حديدية ، إلا شقته ، لا يدري لماذا ؟ هل لأنه لا يسكنها طول الوقت ؟ أم لأنه غير خائف قبل غيره ؟ وعلى ماذا يخاف ؟ على أثاث ترابه أصبح أثقل منه ، أم إن هنالك شعورا لديه ، أن كل الناس أصبحت تسكن سجنا كبيرا من الحديد ، ولا يريد لنفسه ذلك ، كل العمارات بل كل المدينة مسيجة بالحديد ، سجن كبير هذا الذي ارتضاه الناس لأنفسهم .

فهل ارتضوه أم هو الذي فرض عليهم ؟

وأجاب نفسه بألم :

* لقد فرض عليهم ، عندما حرموا الشعور بالأمن والطمأنينة .

***

في صباح تلك الليلة الغريبة ، قادته الظروف ليعرف كل شـــيء عن جارته اللطيفة المجاهدة ، وكذلك عن جيرانه الآخرين .

قالوا له :

* أن الجارة اللطيفة اسمها « زليخا » وهي مجاهدة أرملة مجاهـــد ، وأخوها شهيد ، وأقاربها كانوا من سكان حي « السيدة » قريبا مـــن « الطريق الجديدة » والكل كان يعرف أقاربها ، وربما أقارب كمال أيضا ، كانوا يعرفونهم في هذه المدينة العائلة الكبيرة .

ويحرك كمال العطار رأسه ، ويمط شفتيه محاولا أن يتذكر ، لكن الذاكرة لا تسعفه وهو القوي الذاكرة .

ليواصل الذين قالوا :

* أنها بعد زواجها من رفيقها المجاهد ، توفي عنها بعد شهور قليلة من الاستقلال ، لتبقى أرملة وفية له ، تربي ابنها منه ، وتعلمه ، لكنه بعد تخرجه لا يجد عملا ، ويبقى بطالا ، ولمدة طويلة ، الى أن تحوم حوله جماعة تسمى نفسها « الجماعات » لتتغير عادات الشاب ، بعد معرفته لهؤلاء الناس ، من شاب عادي مؤمن مسلم بالوراثة والتقاليد ، الى مسلم غير عادي ، إن في الشكل أو في المضمون ، أصبح يصلي كثيرا ويصوم أكثر ويدعو الناس ، وكأنه نبي ، ولا يلبس ما يلبس الناس ، ولا يسلك سلوكات الناس ، ولا يفكر كما يفكر الناس ، إنما يفكر كما تملي عليه « الجماعات » .

ولم يدهش كل ذلك والدته ، بل إنها أيقنت أن الله قد هدى وحيدها الى سواء السبيل ، ولم تتعب نفسها أيضا وتسأل أو تتساءل :

من أين يأتي ولدها بهذه الخيرات والأموال ، التي حلت محل الضيق والكفاف ، وهو البطال رغم مستوى تعليمه ، أو لماذا تغيرت علاقة ولدها مع زوجته ، وأصبح الخلاف والشجار هو السمة الغالبة على هذه العلاقة ، الى أن لفظ عليها يوما يمين الطلاق بالثلاث ، فقط لأنها في رأيه لا تليق برجل تقي مثله، ولا تريد أن تتوقف عن العمل وهي المعلمة ، ولا تريد أن ترتدي الحجاب عند الخروج من البيت ، بل وحتى بالبيت عند وجود أحد المحارم .

لم تطرح « زليخا » كل هذه الأسئلة ، الى أن أجابتها الأيـــام ، عندما جاءت الشرطة لتفتش البيت ، وتقبض عليه بعد أن عثرت علـــى كمية من الأسلحة والأموال ، وقائمة بأسماء المحكوم عليهم بالإعدام ، من طرف الجماعة التي تسمى نفسها «الجماعات» قائمة تحتوى أسماء بعض أصحابه وجيرانه .

من يومها، والجارة المجاهدة « زليخا » تكتم أوجاعها ، وتعـــزي نفسها بحفيدها صاحب الخمس سنوات ، بعد زواج أمه ، وتعيش بمنحة مالية من وزارة المجاهدين لا تكاد تفي بحاجاها وحاجاته .



ها أنت أينما تدير عينيك تـــرى الأوجـــاع والآلام والأخبـــار السوداء، ها أنت أينما تدير عينيك سواء في مدينتك التي تحب ، أو تلك التي عشت فيها دون أن تحبها ، ترى الدماء والأشلاء والدموع يتـــساوى فيها جميع الناس ، وكأنهم يعيشون ثورة التحرير في ذلك الزمن المجيد .

إنه تشبيه ليس في محله ، ومقارنة غير سليمة ، في ذلـــك الـــزمن المجيد، كانت دماء الناس عزيزة غالية ، كل قطرة منها تحقق نصرا وهدفا على العدو المحتل ، لأن شرعية الجهاد كانت متوفرة ، وهذا المحتل يريد أن يفرض عليك قناعاته وعقائده ، التي تختلف عن قناعاتك وعقائدك ، وكل عملية فدائية كانت تزرع الفخر والاعتزاز ، في قلوب أبناء وطنك ، أما

اليوم فلا قيمة للدماء تراق ، ولا للأرواح تزهق ، لأن ذلك يحدث هكذا عبثا ، وتشويها ومتاجرة بكل مقدس ممجد ، دون أية قضية صحيحة .

فهل يحاسبنا الله بعد ذلك بالورق والقلم ، إنه لو فعل ذلك ، لما رحم أحدا ، ورحمته وسعت الذنوب جميعا ؟

عندما رجع كمال الى البيت ، تعمد طرق باب جارته اللطيفة ، بل أخته المجاهدة ، التي لم تتركها الأيام تنعم بأمجاد الحرية على الأقل المعنوية منها ، وقد أنجبت من شوه جهادها وجهاد الآخرين ، فهل هي المجرمة لأنها والدته ؟

طرق باب الشقة رقم ثمانية ، انفتح الباب بسرعة ، وأطل منه وجه « محمد » أولا ثم وجه جارته اللطيفة ، كان وجهها باسما رغم شحوبه ، وقالت صاحبته مرحبة :

* أنت يا سيدي ، ظننت أنك سافرت ، وفي جعبتي كلام أريد أن أقوله لك ... أنت بالذات ، إنني أعلم من أنت الآن ، ومن هي أسرتك ، لقد كان أقاربنا أحبابا وجيرانا ، ولكن يبدو أن الاستقلال فرق الناس ووزعهم وألهتهم الحياة عن بعضهم البعض ...

قال مقاطعا :

* بل قولي ألهتهم الفتنة الجديدة، إنهم لم يتركونا نرتاح، إن ما كنا فيه جهاد أصغر، وهو عبارة عن بداية لبناء وطن وترميم أمة ، بعد أن

قبرت الأمة أكثر من قرن وربع قرن ، وألغيت من حركة الزمان ، لكن الفتنة ، لم تتركنا نكمل المشوار .

ثم متنهدا ، جلس دون أدنى إلحاح من المرأة المفجوعة في مبادئها وماضيها وآمالها الضائعة ، في عالم لم تكن لتدرك بداية له ولا نهاية ، وقد كانت تتصور أن الاستقلال هو نقطة نهاية عذاباتها وعذاب شعبها كله .

هاهي تعيش عذابا من نوع جديد ، زواحف مجنحة استيقظت وعمرها مليون سنة ، رجعت لتحط في شعب قضى بالأمس القريب على كل زواحف الظلم والعبودية ، لتحذو حذوه شعوب وأمم أخرى مقتدية به ، كنموذج حي نظيف واعد لحياة عادلة كريمة .. زواحف جديدة قديمة لم تشفق على شعب عانى الكثير من أجل سلم قصيرة ، زواحف استعملت معه أجمل قيمه ، وتاجرت بمقدساته ، زواحف قررت فجأة أن ما حققه هذا الشعب ، إنما هو ضلال في ضلال ، واستغلت النفوس الضعيفة ، والقلوب الراجفة ، والشباب المتأرجح بين المراهقة والمشاكل ، لتختار لأسئلته الكثيرة في هذه السن الحرجة ، الأجوبة الأكثر تعقيدا وظلامية لنفسه وحياته وعلاقاته .

وقالت الجارة اللطيفة :

* لقد علمت كل شيء يا سيدي أليس كذلك ؟ لكن ما خفي هو أعظم .

لقد أصبح ولدي كبدي ، يمنع علي أنا أمه ، حتى الصلاة في نفس المكان الذي يصلي فيه هو ، سيج المكان بحدود وهمية ، حتى لا يطأه أحد من العائلة ، وكأننا كفار أو شياطين أو مناجيس .

إنه هدد زوجته ، التي كان يكاد يعبدها بالذبح ، لأن أميره في الجماعات ، فعل ذلك مع زوجته ، ويأمرهم أن يفعلوا ذلك مع زوجاتهم، حتى هربت المسكينة الى بيت أهلها، وظل يلاحقها لولا أن قبض عليه ...

وهاهو اليوم في السجن، السجن الذي سكنه والده يوما ، من أجل قضية الحرية ، يسكنه هو اليوم من أجل قضية لم تخطر ببال أحد قبل اليوم ، حتى إمامنا ابن باديس سيد العلماء والأتقياء لم يأمرنا بذلك ، بل كان يعلمنا دائما أن تقوى الله تكمن في محبة الناس وحسن المعاملة وزرع الخير والرحمة بين بني البشر ، حتى مع اليهود والنصارى ، إن للجميع رب يحاسبهم ويثيبهم ويعاقبهم ، وله الحق وحده في ذلك ، وليس لبشر أن يدعى غير ذلك ، إنهم وضعوا أنفسهم شركاء مع الله، ويتهمون غيرهم بالشرك والكفر .

شرب كمال قهوته ذات العبير الزهري المعتق ، واعتدل في جلسته، دون أن يفوه بكلمة ، كان يريد لجارته أن تقول أكثر وتفتح صدرها ، وتنفس عن أوجاعها ، كان يريد للجارة أن تفرغ الجوهرة المخفية ، أن تقول كل شيء ، أن ترتاح ، أما وجعه فكان مخفيا ، وكان

يعظم كل مرة ، لكنه لا يريد لمخلوق أن يرى وجعه ، إنه حـــين ذلـــك يصبح وجعه وجعين أو أوجاعا عديدة .

***

وتذكر مسيرته بعد الاستقلال، مسيرة طويلة عريضة، ساهم بها في عمليات التأسيس الأولى ، في جميع مجالات حياة الـوطن المسترد ، أكمل تعليمه أولا ، تحمل عدة مسؤوليات ، فكان وهو يساهم في البناء الوطني ، وكأنه يبني بيته الصغير الخاص لبنة لبنة ، بيته الذي سيقضى فيه أجمل أيام عمره ، بيتا جميلا رائعا مريحا ، شامخا قويا متينا تسيجه أسوار من الورد والياسمين والقرنفل ، يعبق عبيرها خارج الأسوار... أسوار لا تحد من تغلغل نور الشمس ، وألق القمر... أسوار لا تحجب الرؤية للفضاء العريض ، والأفق اللامحدود ... أسوار من نور وزهور ، وليست من حديد واسمنت ... أسوار تسمح بالهواء النقي ، ولا تترك أثرا

لأوكسيد الكربون ، نسائم تسرى في الجسم عنفوانا ، وفي العقـــل نمــوا ونضجا وحضارة .

كان يعتقد أن كل ذلك سيتحقق بفضل أمثاله مـــن المناضـــلين المخلصين ، والوطنيين الشرفاء ، لكن الأيام برهنت أنه وأمثاله قلة قليلة ، بجانب نوعية أخرى من البشر ، لا همها إلا نفسها ، تتسلق كل شـــيء لتصل الى غاياتها الفردية الصغيرة ، أنا وبعدي الطوفان ، كانـــت شـــرا كبيرا، لا جدوى من صراع الخير الصغير له .

وأدرك مع الأيام كل شيء ، اتضحت له أمور كـــثيرة كانـــت غامضة ، أيقظته من عالم المثاليات والمباديء والنظريات، فتحت عينيـــه على العالم الحقيقي، الواقع المعيش، الذي لم يكن يتصور أن شعبه قد يصل إليه ؟ وفكر ودبر مع المخلصين أمثاله ، لكنهم لم يـــصلوا الى نتيجـــة ، سوى أن العالم كله قد تغير ، وتغير بشكل سريع وعنيف ، ووطنه داخل هذا التغير المفاجيء والوحشي ، يجد نفسه دون أساس أو أرضية يعتمـــد عليها ، جسوره هشة متداعية ، لأنه سبق ورفض واستهان بالكثير مـــن الأسس والثوابت ، وتألمت نفسه كثيرا من شماتة الأصدقاء قبل الأعداء ، حتى أولئك الذين كانوا يبدأون يومهم بالحمد والتمجيد لوطنه ، كانـــت شماتتهم أكبر وأكثر إيلاما ، إنها شماتة من كنت تتصور أنهـــم أحبابـــك وأصدقاؤك في السراء والضراء ، يشاركونك همومك وأتعابك ، مثلمـــا

غرفوا بالأمس من مسراتك وخيراتك ، وكنت سببا حـــق في انعتـــاقهم وتخلصهم من العبودية ، بفضل تضحياتك التي لا تعرف الحدود .

* هل هذا هو القدر ، يوم لك ويوم عليك ، هل استكثر القـــدر على بلادي عنفواها وانتصاراها ومواقفها ، وتألق شعبها ؟

كل شيء ممكن ، لكن الذي لا يمكن السماح بحدوثه ، هو اليأس والاستسلام والإحباط ، إن ذلك سيكون الخطأ الأكبر ، وكم صـــلحت بلاده من أخطاء عبر التاريخ ، بعزيمة وثبات ويقـــين في إرادة شـــعبها ، وعلى هذا الشعب اليوم أن يقاوم هذه الجحافل مـــن الـــسوس والنمـــل الأحمر، الذي ينخر في جسم البلد ويمص شراايينها .

وهاهو وطني الرابح فيه اليوم هو الخاسر الأكبر ...

* الى أين نهرب يا سيدتي ؟ نهرب من أنفسنا لأنفسنا ؟ من روحنا لروحنا ؟ من فكرنا لفكرنا ؟ لا مفر سيدتي ، لا مفر ، لا بد من الصمود والوصول الى نتيجة.. لنحرق أنفسنا بخورا لأنفاس وأجواء الوطن ، علها تكون قربانا جديدا مختلفا عن القرابين الأخرى .

وخاطب نفسه ، وهو في غرفته :

* إنه وباء ملعون ، لا هو بالطاعون ولا بالسل ، ولا ببشاعة مـــا يتركه داء الجدري من أخاديد وحفر ، وباء ينهش الجسم والروح معـــا ، النزيف فيه لا يتوقف بأي دواء مهما تقدم ، كلما نزفت الدماء ، كلما

نشطت رغبة الشرايين للتريف أكثر ، وباء يلغي كل ما اكتسبته الروح من مناعة الإيمان بالله والإنسانية .

الجسد مثخن بالجراح ، والعلاج لا يملكه أحد ، والتريف ما انفك يستورد التريف ، وكلمة السر « موت » وقاموس لغتنا الثرية العريقة أصبح مقتصرا على الموت ومشتقاته .

الأصابع تضغط على الزناد .. ولا تتعب من الضغط ، والأمخاخ تتطاير منفجرة ، تحفر نعيها على الجدران والسقوف ، والعبقريات تنعى نفسها بخطوط حمراء ناتئة ، وعيون الطفلة في الخامسة تحرم من ذرف الدمعة المتمردة على الأب العبقري ، وهو يذبح بالبيت أمامها ، والعيون الحيارى توءد في أغوار العقل الباطن ، والعبقريات تتناثر شظايا ، كمرآة تطارد ملامح القبح والدمامة ، ويبقى الوجه البريء لطفلة الخامسة بصفرته المفجوعة ، يطرح بعد ذلك ألف سؤال وسؤال .

خضاب العرائس خطوط باهتة من بقايا الذل والاغتصاب ، والثوب الأبيض عاف البياض أصبح كفنا ، وأحلام ليلة العمر سقطت بين مخالب ذئاب ضالة ، والعريس الموعود شد الرحال على درب الحقد الأكثر سوادا ، والأم ثكلى مفجوعة في كل الحالات .

وماذا عن ظفائر الصبايا الكحلية والذهبية ؟ إنها قيود تحز في المعصم والجيد ، وثاق يكمم الأنفاس ، ويحد من التفكير، في خوض

معركة الرفض ، قاطعا الطريق نحو أية كلمة تعني لا ، وتعني لماذا ، وتعني سؤال التاريخ :

« وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ... »

الوحوش تدخل القلعة المحصنة بالحديد والنار ، وهل ينفع الحديد والنار ؟ الحديد يصدأ هو أيضا من الرطوبة الدائمة ، قليل من نور الشمس، ودفئها لا يقتل أحدا ، بل إنه يحي الإنسان ، ينمي الأرض ، يقتل مواكب الحشرات الجرثومية ، والنمل الأحمر المعشش في أركان القلعة وزواياها ، السوس تمكن لأنه كان محتميا بالظلام والرطوبة ، ونقص الهواء النقي ، وركود المياه ، وقد نمت الطحالب حولها برؤوس كالأفاعي .

***

الماضي كائن حي داخلنا ، يمرح ويرتع دون خشية من الحاضر ، أو حتى من المستقبل ، بل وحتى في بعض الأحيان نجده هو الذي يتحكم في هذا الحاضر ، وذاك المستقبل .

إن كان هذا الماضي هو أس من الأسس فلا بأس ، إذا كان هـــذا الماضي وسيلة عملية لاختراق للمستقبل فلا بأس ، إذا كان هذا الماضـــي ضوءا منيرا لنا في دربنا الطويل المظلم فلا بأس ، أما إذا كان هذا الماضي ملجأ للهروب والاسترخاء وانتظارا للموت البطيء ، كما تفعل الفيلـــة العملاقة عندما تريد أن تفارق ، فلا ، ثم لا ، ثم لا ...

* اجعل أنوارك تسلط على روح الحداثة ، حتى تسلطها بفائـــدة على فكرك القديم العقيم ...

* وهل كل فكرك القديم عقيما ؟ لا تعتقد ذلك ، وإلا قطعت جذورك عن الأرض ، فماتت فروعك ، لتموت بعد ذلك موتة خائبة ، فتصبح لا أنت بالقديم ، ولا أنت بالحديث ، ولا أنت بالموجود أصلا .

تحركت قدما كمال فوق أوسع طريق بالمدينة « الطريق الجديدة » إنها سميت كذلك لأن المحتل هو الذي بناها ، واصطلح الناس على أن كل أمر يعبر عن الدخيل هو جديد ، وكل أمر يعبر عن السكان أهل البلاد هو قديم ... الشوارع والطرق والأحياء والمساكن واللباس ، وكل مظاهر الحياة ... وبهذا الشكل أصبح كل ما يعبر عن الماضي ، عن الركود ، عن الموت ، هو شأن عربي شأن الأهالي ، وكل ما يعبر عن الحداثة ، والجديد، والحياة ، هو شأن المحتل الذي جاء بالعصرنة والتقدم وبكل جديد .

الطريق الجديدة امتلأت بالناس ، بالمارة ، كانوا يتحركون وكأنهم شخص واحد ، ازدحام كبير ، حجب عنه رؤية موطيء قدميه، وحرمه رؤية معالم المدينة ، الحمد لله ، أنها بقيت على ما هي عليه ، الجامع الذي ساعد في ترميمه «نابليون» في بداية القرن التاسع عشر ، والمدرسة الفرنسية الإسلامية ، والتي وضع مخطط بنائها مهندس يهودي .

هذه المدرسة خرجت أبرز الأساتذة والمربين ، من الذين استطاعوا أن يتحكموا في حضارتين ولغتين ... مدخل « الرصيف » وقد سد بأفواج من الباعة والمتسوقين ... وأكداس مكدسة من السلع المستوردة ،

ولهفة الناس على الشراء والسؤال عن الثمن والمقاس ... سلع وبضائع من كل نوع ، كل ما يمكن أن تنتجه مصانع الخارج ... والخارج ليس من فرنسا فحسب ، بل حتى من آسيا وأوروبا كلها ، لينكمش تجار الإنتاج الوطني ، منتظرين زبونا أو زبونين في اليوم ، غالبا ما يكونون من السياح، وليس من أهل المدينة ، وبعضهم متذمر من هذا الهياج ، واللهفة على كل ما هو أجنبي وغربي ...

* ما هذا اللهاث على الغرب؟ والإعراض عن الشرق؟ أليس من الشرق تشرق الشمس، وتطل بنورها على البسيطة؟

كان يا ما كان ... في قديم الزمان ...

ضحك كمال في نفسه مستهزئا بسؤاله الصبياني ، عشق المغلوب للغالب .

ما هذا الإقبال على بلد مستعمر ، سبق ورفضنا منه كل شيء ؟ تاريخه ، نظامه ، لغته ، وكل أمر يتعلق به ، من قريب أوبعيد ، عدو لم يترك لشعبنا أية فسحة منطقية أو موضوعية أو إنسانية ، يعيد من خلالها تصوراته وقناعاته ، عدو احتل الأرض واستعبد الإنسان ، وشوه التاريخ ، وشكك في الهوية ، وحاول تغيير المجتمع واستبداله بمجتمع آخر ، في خطة استيطانية ، لا يدرك مداها إلا استعمار له خبرة وباع طويل ، عبر الأحقاب في امتلاك واستغلال مايريد لمصلحته ومصلحة شعبه ، دفعنا دفعا بتطرفه الى القطيعة ، إنه لم يترك لنا خيارا آخر غير القطيعة .

هجر البشر والمرتزقة من عنده ، ومن عند غيره لهذه الأرض ، للتعمير والاستغلال والتملك ، وهجر البشر والأهالي من وطنهم الى هناك عنده ، ليستغلهم ويستغل أولا دهم وأحفادهم ، في بناء أمجاد بلاده ، بعد أن أفقدهم كل شيء في وطنهم ... لتختلط الأمور بعدها ، وتمتزج الأنسال ، وتنتج أجيال وأجيال ، لا هي من هنا ، ولا هي من هناك .

فأي جريمة تاريخية أكبر من هذه ؟

ما هذا الإقبال على هذا البديل ، الذي رفض قبل اليوم بكل امتيازاته ، ليقبل اليوم ، بل ليطلب اليوم بتوسل ، ودون امتيازات ولا مصالح ؟ بل بمشقة ومزية وتشهير ، طوابير من الناس تقف أمام مصالح التأشيرة ، وغربال دقيق يغربل الأسماء ، ويهب لمن يشاء الرضا والقبول ، ويرفض من يشاء ، من الذين كانت أسماؤهم تؤرقهم وتؤرق إدارتهم وجمهوريتهم ، في ذلك الزمن البهيج ، وتثير بتضحياتها حفيظة القارة السمراء كلها ، فتهب مقتدية رافضة للاستعمار والعبودية.

ما الذي حدث ، حتى يحصل كل ذلك في أقل من خمسين سنة ؟ حتى تتغير المفاهيم والمقاييس والنظم ، وتصبح التبعية للاستعمار، القديم والجديد ، هي أحسن الاحتمالات وأفضل الاختيارات ؟

ها هي الهجرة الجديدة نحو الاستعمار ، نحو ثقافته ، ولغته ، وحضارته ، تشكل التساؤل الحارق لجيلنا من المجاهدين :

* هل يعني ذلك أن الإنسان لا يمكنه الاستغناء عـــن مـــستعمره بالأمس ؟ أم هي العشرة الطويلة ، والتأقلم والتقارب الجغرافي ؟ هل هي الثقافة التي طغت على كل الثقافات الأخرى ، حتى ثقافة البلد الـــرافض قبل اليوم ؟ هل هي رواسب الاستعمار التي تطفو بعد انحساره ؟ هـــل أن الشعوب الضعيفة مهيأة دوما للاستعمار كل مرة بشكل ؟

* أبحث يا كمال دائما عن الحقيقة ، إن الحل مع الحقيقة ، كـــل الحلول لا توجد إلا مع الحقيقة ...

وترحم على فيلسوف مدينته ، الذي أحبه كثيرا ، وأسس ثقافتـــه من فكره وتحاليله « مالك بن نبي ».

***

دخل كمال العطار من بوابة « الرصيف » الكبرى ، وهو يزاحم الناس ويزاحمونه ، ولا أحد منهم يدري أن هذا الرجل يحمل من الهموم ما يحملون جميعا مجتمعين .. بل ربما يحمل أكثر منهم جميعا ، إنهم يبدون وقد تبلدت نظراتهم، لا يحملون شيئا ، لا هما ولا سعادة ، سوى هذا الإقبال المنقطع النظير ، على سلعة معلقة ، هنا وهناك ، سلعة تحمل بصمة البلد المتقدم ، بل إنها تحمل بصمة البلد الذي كان يقطع رقاب آبائهم ، ويعذب شبابهم ، وييتم أطفالهم ، ويحرق مزارعهم وحقولهم ، ويسخر صحراءهم وسكانها لتجاربه النووية ، هذه النوويات التي أصبحت اليوم ذريعة لاحتلال شعوب أخرى ، ليس بينها شعب غير

عربي أو إسلامي ، ذريعة للغزو والتدخل وفرض السيطرة وانتهاك مختلف الدساتير الدولية ، احتلال مرة باسم السلام ، ومرة باسم الديمقراطية ، وحرية وحقوق الإنسان ، ومرة باسم فلسفة القوة ...

أين أنت يا « نيتشه » لتفرح بانتصار نظريتك ؟

هل هو سلام أم استسلا م ؟ أي مفهوم للسلام يريده لنا الآخرون، الغالبون بذكائهم وعبقريتهم ودهائهم تجاه غبائنا وجهلنا وسذاجة حكامنا ؟

يبدو أنه سلام الانبطاح والاختراق ، والتبعية المطلقة باسم العولمة والانسانية ، التي أصبح فيه العالم قرية صغيرة يحكمها بطل خيالي اسمه « رامبو » .

إن هذه البصمات التجارية توحي للمتلهفين عليها بأنهم أصبحوا متقدمين ، وهم يتهافتون على اقتنائها ، تاركين سلعة الوطن مكدسة بائرة حتى لو كانت غير متقنة الصنع ، لا أحد يقصدها سوى بعض السياح ممن لهم هواية جمع التحف من كل أصقاع الأرض ، عشاق التاريخ وطرائفه .

كان كمال يمشي وكأنه على سلة من البيض ، والناس لا تعرف أن بين كل هذا الزحام فيلسوف يحاول أن يحمل هموم الوطن كلها على كاهله ، يريد أن يطهر بنهر من الدموع الواقع الذي يعيشه وطنه ومدينته هذه بالخصوص ، والتي تمثل بالنسبة له روح الوطن كله .

وفي جانب من زقاق منعطف انتبه الى محل معين ، كان صاحبه صديقا لوالده ، طباخ « الحمص » هذه الوجبة المفضلة عند أهل المدينة ، وقد صنع مرقها بكبد الأرنب ، لتتخثر ويكون لها طعم خاص جدا .

كان صغيرا وقتها ، وقد جلس والده مع عمي الصادق ، والمنشة في يده يطرد بها حرارة صيفية خانقة وذبابا طفيليا يكثر أين تنتشر المطاعم الشعبية ، فيسأله والد كمال مبتسما :

* الحمص بكبيدة أم بدونها ؟

* بكبيدة وجديدة دائما يا صالح خويا ...

ليضحك كمال من سماع هذه الاسطوانة كل مرة .

أشاح كمال بوجهه عن مطعم الحمص بالكبيدة ، لأن صاحبه غير موجود ، سافر حيث سافر والده ، ليلتقيا هناك صديقين إن في النار أم في الجنة لا يهم ، لتلتهمه الأزقة الصغيرة الضيقة ، وابتسامة حزينة تزين وجهه الشاحب ، كان يقصد بسيره حيا بعينه ، حيا شهد أجمل سنوات عمره ، وعمر رفاقه ورفيقاته .

دخـــــل من « رحبة الصوف » ثم الى « زنقة حلموشة » ليصل الى ساحة « سيدي جليس » حيه القديم ، مكان مولده ومربع طفولته ومرتع صباه .

وجال ببصره في أرجاء الساحة ، وقد أصبحت كلها خرابا ، هدمتها الزلازل بتواطؤ مع الزمن ، البيت الذي شهد وجوده ، غير

موجود ، لأنه مع بيوت أخرى ، قد شكل جبلا من الأحجار، والركام ، والردوم ، والنفايات ...

عين ماء بالساحة هي الوحيدة ، التي مازالت تسيل بمياه لا يدري من أين تأتي ، وما هو منبعها ، ومعظم البيوت بالمدينة تعاني العطش .

هل يمكن أن تكون هذه هي نهاية مدينة ، نهاية حياة ، نهاية إنسان؟

* مدينتي .. إنهم ينسون دائما ، أنك تختلفين عن المدن الأخرى ، وأنك قصيدة فكر ولون ونغم ، رغم الخراب الذي احتواك ..

قطع كمال الساحة ، وتاقت نفسه أن يشرب من العين ، وهي تسيل دون توقف ، هل ذلك ممكن ؟ إنه يشعر بعطش شديد ، عطش الأيام البعيدة .

وخجل من نفسه .. تصور أن الأنظار ترقبه ، وهو بهيئته الجديدة، سيد مهذب حسن الهندام ..

ولم يحرك رأسه ليتأكد من الأنظار ، هل هي حقا تراقبه وتحصى عليه حركاته ؟ بل سار بتؤدة الى العين ، وتقدم منها وسط الوحل المحيط بها ، وجمع حفنة من الماء بمشقة محاولا أن يوصلها الى فمه ليسيل نصفها قطرات على قميصه وربطة عنقه ، لم يشرب لكن يكفيه أنه بلل شفتيه ، وتمكن من تحقيق رغبته في إطفاء عطش الأيام ، لقد فعل ، وكم حلم بذلك وهو بعيد .

القطرات التي وصلت الى جوفه عبارة عن ماء عادي لم يجد له أي طعم ، ربما هو ماء ملوث ، من يدري ؟ وهو لا يذكر أنه شرب إلا من المياه المعدنية منذ مدة طويلة .

ورغم ذلك ، كانت القطرات لها طعم خاص في نفسه ، هل تهيأ له ذلك ؟ ربما إنه لو لم يشربها لشعر بخسارة كبيرة، وندم طول ما تبقى له من الحياة ، إننا لا نرجع الى مرابع الصبا دائما ، وربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يرجع فيها الى حياة لا وجود لها إلا في ذكرياته البعيدة ، وماضيه المغفور لأيامه دائما

انحدر من الساحة الى طريق أخرى ضيقة ستخرجه حتما الى باب القنطرة ، حيث تنشق المدينة الى نصفين ، وسيمر على حومة اليهود بقاع الشارع ، أين كانت حبيبته تسكن مع قومها من اليهود ، ولعل دارها سيجد فيها سكانا آخرين ..

وعندما وصل الى البيت رفع رأسه الى النافذة ، أين كانت تطل عليه بطلعتها البهية ، لينتظرها فيخرجا معا للنزهة كل مساء ، رفع رأسه عله يرى شيئا حبيبا الى قلب حبيبته ، أو يشم رائحة ما لها ، أو يصادف من يعرفها .

لكن ذلك لم يحصل ، ولم يظهر من النافذة مطل ولا ساكن ، كان كمجنون ليلى ، وهو يقبل هذا الجدار وذاك ، والذي ضم يوما ما أول حب في حياته .

هاهي الجدران لا تحمل أي رائحة للماضي ، تبدو باردة جاهلة غبية ، بل إنها تتعمق في الحاضر أكثر ، وتخطو من خلال مستقبل يبدو أكثر غموضا ، وفي هذه اللحظة كم أراد أن يملك الوقت ، إنه سمح له بالنظر حوله ، النظر مليا ، نظرات ثاقبة ، ليصبح كالإسفنج يمتص كل ما حوله من سوائل دون تعب.

ورأى صورا لوجوه كثيرة زينت الجدران ، جدران كل المدينة ، وما هو غير جدار استعمل كجدار ، وجه جميل ووجه قبيح ، وجه باسم وآخر مكشر .

يبدو أنها حملة انتخابية ، وما أكثر الطمع في صورة الطموح ، دون توفر أدنى شروط الطموح ، كلها وجوه تريد أن تختطف الإعجاب والرضا والقبول ، من مواطن يكون حقيرا ، ويصبح أيام الانتخابات أميرا، وجوه تقول له :

* أنا الأحسن ، وأنا الأجمل ، وأنا الأصلح ، وأنا الذي سيحقق كل الأماني ، ويقضى على كل المشاكل والهموم ، ويمهد كل العقبات ، ويحيل الألوان السوداء ، الى ألوان خضراء وبيضاء في نور الفجر وألق النجوم ..

* سأشغل العاطل ، وأشفى الأبرص ، وأنصف المظلوم ، وأوزع الأرزاق بالعدل والقسطاس ، ومعي سيصبح كل الناس سواسية كأسنان المشط ، بل سيصبح كل حقير أميرا ، وكل فقير غنيا ..

* ساعطي للمرأة كل حقوقها ، أجعلها متساوية مع الرجل الظلوم ، أنصف الهجالة وأزوج العانس ، ومعي لا يمكن أن يظلم أحد أبدا .. سأطبق كل القوانين المجمدة ، حتى لو كان في تطبيقها تحديا للأعراف والطابوات وكل الذهنيات المريضة ...

* سأقضى على كل الأوساخ المبعثرة أو المكدسة هنا وهناك ، في الفضاءات المختلفة ، بل لو أنكم انتخبتموني لطهرت العقول والنفوس من كل الدنس المعشش داخلها عبر السنين والعقود .

* سأستمطر السماء ... وأستشرق الشمس ...

* سأمنع الزلازل ، وأحول دون الكوارث الطبيعية .

* إنني سأقضى على روح التسيب واللامبالاة والفوضى الأخلاقية والاجتماعية .

* انتخبوني فقط ، فأنا الذي سأحرر الفكر والكلمة والتصور والمبادرة و... و ... و ....

كلام ... كلام ... كلام ...

تقوله الوجوه المعلقة على الجدران ، وما استعمل كالجدران ، بعدما قالته الألسنة في التجمعات والمهرجانات .

وكلما يتم صاحب وجه خطابه العنتري ، إلا وينفجر الناس بالتصفيق والهتاف ، ورفع الشعارات واللافتات والاستعداد للشجار مع من يخالف ذلك ...

تصفيق وهتاف لكل الكلام ، وكل الخطب ، وكل الوجوه ، حتى لو كان الكلام يختلف ، والأفكار تتعارض والمشاريع تتضارب ...

* ما هـــــذا ؟ هل هو النفاق ؟ هل هو الجهل ؟ هل هو العادة ؟ وهتف له نفسه :

* كمال لا أريد أن أرى ذلك ، ولا أن أسمع ، إن كل ذلك يؤكد فكرة في رأسي أريد كل مرة أن أطردها هاربا مندهشا الى غيرها .

لا أريد أن ألمس ذلك ، لأن ذلك يدفعني للاقتناع أكثر أن بعض الناس أصبحوا قطيعا من الغنم ، يتحركون بعصا راع ما نحو الوجهة التي يريد لهم ، ومهما كان نوع هذا الراعي وشكله ومضمونه ، حتى لو كان قبيح الشكل فارغ المضمون ، عاريا من كل قيمة ...

ما الخلل الذي أصاب الانسان والشعب ؟ هذا الشعب الذي قالوا عنه بعد الاستقلال مباشرة أنه الوحيد البطل ...

ولا توجد هناك زعامات فردية أبدا ، الشعب كله بنسائه ورجاله وشبابه وشيوخه وأطفاله ، هو وحده البطل والزعيم ؟

ألم يزرعوا بهذه المقولة بذور النرجسية والفوضى والغرور والتساوى بين المفاهيم والكفاءات والمجهودات ؟

وإلا لماذا نجد هذا الشعب اليوم ، يخلق الزعامات ، ويوزع الأوسمة، الفردية هنا وهناك وهنالك ...؟

هاهو اليوم يبدو قطيعا من الغنم ، يدفع ضريبة كل المراحل الموجعة .

عهدي بالشعب وعبر مختلف المراحل غير قطيع ، ولم يكن في يوم من الأيام قطيعا أو شبيها بالقطيع ...

عهدي به صاحب القرارات التاريخية الهامة ، إنه لا يمكن أن يكون كذلك ، وهو الذي صنع أنصع صفحات التاريخ بنفسه ، إنه لا يمكن أن يكون كذلك ، بل هو القائد التاريخي ، حتى لو توهم الآخرون غير ذلك، واستغلوا ضعفه وظروفه ومآسيه ، إنهم هم القطيع في الحقيقة .

ما الخلل الذي أصاب آلة الحياة في المدينة ؟ وما الغبار الذي علق في دواليبها ؟ وما هذه الحشرات السامة التي مافتئت تبيض وتفرخ في أركانها وزواياها ؟ وهذه الطحالب والأشواك والصبار والعليق ، الذي ارتوى بماء كان يجدر أن ترتوى به الورود والزهور والرياحين ؟ أين الذي يقدر اليوم على إزالة هذه السموم والأوحال والنفايات من آلة الحياة ودواليبها ؟

ما هذا البحر المتلاطم بالانتهازية والوصولية ، يدعو العقلاء كل مرة الى التساؤل الجاد عن حقيقة واجب التحفظ في هذه المدينة ، هذه المدينة التي سبقت المدن الأخرى ، في اللعب مع أوراق السياسة ، والمباديء من طاولة شطرنج يقف فيها المستعمر بالجانب الآخر خصما عنيدا ومقتدرا ... ؟

ما هذا الجو المجنون ، الذي ألغي فيه العقل والجد والصواب ، وكرس فيه الصياح والهيجان والثرثرة ؟

ما هذا الجو الذي ضاع فيه المضمون وروعي فيه الشكل مع أمور أخرى أدنى من الشكل ...

أنت الذي تحسن الكلام، إذن أنت الذي تحسن كل شيء، أنت الذي تجيد التهريج والسباب ، إذن أنت الأحسن والأفضل من ذلك الذي صمت بعلم وتحفظ بعقل ، وتعفف بإشفاق على نفسه وغيره من الناس .

هكذا تراءت لكمال العطار صورة الوجوه مكبرة تحتل الجدران والأسوار وزجاج الحافلات والسيارات ، وما يمكن أن تلصق به صورة ، تراءت له وكأنها تضحك منه ، من أفكاره ، إن أفكاره تبدو قديمة عقيمة، لا زالت تريد توظيف العلم بدل الجهل ، والفكر والمنطق بلد الصياح والتهريج .

حاصرته صور الوجوه المكبرة ، والأبواق النافخة ، والمهرجانات بالخطب الرنانة ، والأصوات المستعدة لقول أي شيء من أجل بعض الأوراق البالية ، من أجل امتيازات ومزايا وهبات ووعود أكثرها أوهام .

إنها الهراوات تضرب كل مرة النوايا الطيبة للشعب البسيط ، وتوجهها نحو الخطإ ، نحو الأوهام ، مستغلة الوضع الرديء والحياة المتعبة، والمشاكل التي لا تنتهى ، إنها كل مرة تتكدس على بعضها ، وتتعقد لأنها لم تجد الحلول من البداية .

* كمال إنك حتما متعب ، حاول أن تفلت من ربقة المفاهيم المحددة ، تطور بفكرك ، إنه عالم جديد هذا الذي تراه ، اصعد عبر الزمن الماضي ، ثم انزل مرة أخرى من برج تيه لم تستطع الخروج منه أبدا ، إنه لم يتهدم كل شيء بعد ، ليس بوسعك أن تجد المخرج من حصار تصوراتك إلا وأنت لا تفكر ، أنك في مدينة ستنهار ، مدينة ينخر حناياها مرض خفي ، هاجسك مستمر ، وقد أخذ مداه في راهنك ، إنك لا تفتأ تبحث عن اللحظة الجميلة ، لحظة الحقيقة .

عالمك غير عالم هؤلاء ، عالمك فيه أبعاد محسوسة ، أطلقت فجأة من أسر تكويناهما المألوفة ، وتحولت الى مشاعر وأحاسيس جمعت بينك وبين الزمن الذي تحبه ماضيا أكثر منه حاضرا ، أصبحتما واحدا ، توءما يتبع احدهما الآخر ، للخير أو للشر ، توأما في النية والكلمة والحركة .

* أيها الرب ، هناك من يؤمن بوجودك ، ويعبدك ، ويبتهل إليك، وهناك من لا يؤمن بوجودك ، ويستهزيء بمن يحبك ويعبدك .. وهناك من لا يهمه من الأمر شيء ، لا همه سوى نفسه واللحظة والمكان ، وما يمكن أن يتحقق له من كل تلك الظروف ، هو من باب الصدفة والشطارة والدهاء ، ليس إلا .

لكني من الذين يؤمنون ويعتقدون ويتيقنون ويبتهلون :

* يا رب ، أرفع هذا الضر عن مدينتي ، بيدك الأمر كله ، وأنت على كل شيء قدير .

ويحمر الشفق ليصبح جمرة كالتي تحرق قلبه على مدينته ، وكمال وسط جسر « باب القنطرة » معلقا على هاوية بين شطري صخرة « فيروزة » يقف على جسر ويشاهد جسورا ، ما هذه المدينة العجيبة التي لا ترضى بالعيش إلا في الفضاء هائمة محلقة ؟

إنه اليوم مثل هذه المدينة وجسورها معلق بين زمنين ، ممزق بين مرحلتين ، ممسك بجمر اللحظة الحارقة، وهي تثرى ذاته بأوجاع لا قبل له بها .

الجسر قوة من قوى المستقبل ، ربط لعلاقة واستمرار لحياة ، وتنمية لتواصل ، تواصل للرؤية والفكر والحلم ، الجسر لا يقبل بالقطيعة

الجذرية أو الاستئصالية ، هو طريق موصل بين نقطتين وأرضين وفكرين وزمنين ، الحياة بدون جسور قطيعة وبتر وتشوه ، إنها تمسك في حلقاتها بذاته ، والذوات الأخرى، وما تحوي هذه الذوات من ثراء ، وتنوع في الأحلام غير الجاهزة .

طال به المقام على الجسر واقفا مستندا على شرفة البانوراما العجيبة ، بانوراما الزمان قبل المكان ، كان يتملى كل شيء ولا شيء في آن ، ورطوبة الأصيل والوادي الهادرأبدا ، تلسع وجهه فتورده ، وتترك الرشح يحرك أنفه فيقرصه .

لقد نسي نفسه هناك ...

* رجاء ، ما الذي تريد أن تفعله ؟ إنني أراقبك منذ فترة ، يبدو أنك قد أطلت الوقوف .. عفوا أريد أن أقول أن الجو بارد والجسر يزيده برودة ...

جاءه الصوت بجمل كثيرة، وفكرة غير تامة ، استدار ، إنها سيدة مسنة ، ملاءتها السوداء تبدو رمادية من كثرة الاستعمال ، ووجهها فيه بقايا وسامة وملاحة ، برقعها كان يتدلى على صدرها دون أن تستعمله ، إنها من قواعد النساء لا حرج عليها ، وفي يدها سلة تبدو خفيفة ، وقد حوت شيئا قليلا مما لا يعرف .

ابتسم كمال وهو يجيبها بشفقة :

* تريدين أن تقولي يا سيدتي ، أن من عادة الذين يريدون الانتحار وحدهم الذين يطيلون الوقوف على الجسر ؟ أنت محقة فعلا ، إنني أعلم ذلك ، إن الجسر صنع للعبور وليس للوقوف عليه .

لا تخشي شيئا ، وشكرا على اهتمامك ، مساؤك سعيد .

أجابها كمال وكأنه يتخلص من فضولها .

وذهبت المرأة وهي تبتسم بشك واضح ، نادمة لأنها تدخلت فيما لا يعنيها ، والحدث لا بد أنه سيكون موضوعا شيقا لسهرة اليوم ، وهي بين أفراد عائلتها .

أما كمال فلم يتحرك من وقفته الجامدة ، لكن نفسه تحركت وهمست :

* إنني لست شجاعا حتى أفعل ذلك ، إن الانتحار في الحقيقة لا يقدر عليه سوى الشجعان ، رغم أنهم يتهمون المنتحرين بالجبن ، لأنهم ضعاف في مجابهة الحياة .

وتذكر طفولته وقد كان صبيا ، عندما تأتي الأخبار على أن هنالك من انتحر عبر أحد الجسور ، لتبدأ التعليقات من طرف الجيران نساء ورجالا ، كل واحد يفسر الحادثة حسب هواه ، ويعطي أسبابا حسب اجتهاده ، معيدين النظر في أمورهم وحياتهم الأسرية ، متفقين على أن كل ذلك قدر مكتوب ، لكن الضغط يصبح أكثر على البنات منه على الأولاد ، إن أهم سبب يدفع البنات للانتحارهو الانحراف ،

وتبعات انتحار البنات ثقيلة على العائلة ، وعلى الجيران والمجتمع كله ، تبعات تنعكس على حياة أفراد العائلة كلها ، خصوصا البنات منهن ، إن من تنتحر لها أخت بسبب خطيئة أو فقدان للبكارة ، حتى لو كانت نتيجة اغتصاب ، لا يمكنها أن تحظي بخطيب أو عريس ، لا في القريب العاجل ولا في البعيد من الزمن ، إن خطيئة أختها يمكن في رأي الناس أن تفعلها هي حتما ، أليستا أختين من أم واحدة ؟ وكأن الانحراف يورث ، والأخطاء تنتقل كالعدوى من واحدة لأخرى ، والظروف نفسها تفعل مع هذه ما تفعله مع تلك ، لتصبح العائلة كلها عائلة خطايا ، من الأفضل قطع العلاقة معها ، لتنبذ ويعيش أفرادها المهانة والذل طول الحياة.

كانت عتيقة أم كمال كلما سمعت خبرا من هذا النوع تحمد الله أنها لم تنجب البنات .

وكان هو يقول بحيرة :

* ولكن الرجال أيضا ينتحرون ، يا أمي ، فلماذا لا يلصقون هم أيضا العار بأهاليهم ، إنهم في رأي الشرع كفار ، وقد وضعوا حدا لحياتهم ، ووراءهم ربما أسباب أكثر خطورة من أسباب البنات .

فترد عليه قائلة :

* إن الأولاد لا يقبلون على الانتحار إلا بسبب المرض أو البطالة أو شقاء الحياة ، وليس خوفا من الرذيلة والفضيحة.

منطق غريب ، هكذا الرجل عندهم ، كل ما يقوم به لا يمكن أن يدخل في خانة الرذيلة ، حتى وهو يعتدي على فتاة ، وكأن ذلك حق من حقوقه الذكورية ، فقط ، لأن دليل الخطيئة لا يبدو في النهاية إلا على الفتاة .

كان يسكت وأمه تفلسف له الحادثة رفقا بها ، لأنه يدرك أنه سوف لن يغير من أفكارها ولا من أفكار جاراتها وقريباتها .

ويرجع لواقعه ليضع المقارنة المرعبة ، وقد أصبحت الفتيات يحملن في حقائبهن موانع الحمل ، إنه الغش ، والمجتمع يريد ذلك ، يريد أن يغش نفسه في السر ، فقط اتقاء للفضيحة وكلام الناس .

كمال يحاول أن يلملم بعض شظايا الذاكرة المتناثرة على عتبة واقعه ، مثل بقايا مرآة نرى فيها وجوهنا حتى من خلال شظية واحدة .

خرج من جسر باب القنطرة ، ليتلقفه جسر سيدي راشد، فيطل من جديد على دنيا طفولته الضائعة .

وتطفو في ذهنه فجأة ، أجمل لحظات طفولته ، عندما صام أول يوم في حياته ، كان شهر رمضان قد حل ، والفصل صيف ، والحرارة لا تطاق ...

قـــررت أمه يومها ، أن ينهض ليتسحر ، فأبقت نافذة غرفته مفتوحة حتى يسمع « بوطبيلة » المسحراتي ، كما يقولون بالمشرق العربي، وهو ينادي في دروب حيهم بطبلته الناس للسحور ، وبصوته

الشجي ، مناديا على الأطفال كل واحد باسمه ووصفه ، لتخرج أمه ، وهى تحمل للرجل ألذ الأطباق ، وأربعة « دورو » إكراما لصوم ابنها الوحيد ، أول مرة .

ويقضى هو يومه صائما ، لتفرح به الجارات أيضا مع أمه ، وتخصه كل واحدة منهن بهدية ، أكثرها حلويات ومأكولات ، بينما تحظي البنات بهدية ذهبية ، إنه كان حدثا كبيرا وسعيدا أن يصوم الطفل لأول مرة في الأسرة بمدينته .

***

الحياة سباق طويل وصعب ، والوجوه الكثيرة تزحم ناظريه ، وهو يبحث فيها عن سمات معينة ، مع أن الزمن قد تغير ، وربما لن يعرفه أحد في قلب مدينته ، وعلى جسرها الأكثر شهرة من كل الجسور ، ألا يقوم الجسر على المدينة القديمة، وسلطانها « سيدي راشد » بمقامه ومئذنته الخضراء، حارسا للمدينة ومن بالمدينة من مريديه ومريداته ؟ ولا نذر إلا له صباح مساء ، ومن جميع الشرائح الاجتماعية ، بل حتى من طرف اليهود والنصارى ؟ .

كثيرون هم الناس ، لكنه لا يتذكر أنه كان يعرفهم ، ربما أحدهم كان جارا لأبيه أو صديقا أو رفيقا في درب من الدروب والأزقة ؟ كل ذلك ممكن ...

* ألا تؤمن بتناسخ الأرواح ، ربما نكون قد تقابلنا في صورة أخرى ، أو في زمن آخر ، أو ربما حتى في الحلم أو في كوكب آخر ؟ .

هاهي قطرات الندم على فراقك تغرق كل لحظات الراحة ، لا تخسر زمنك ، إن ذلك يعتبر أفدح الخسائر، إنك عندما تخسر زمنك ، ستخسر كل محتواه ، ذلك المحتوى الذي نسميه الشباب ونسميه الحياة .

لقد مات الكثير من الأسماء التي نحبها ، نتمثل بها ، نفخر ، نعتز ، نشعر بعدها باليتم والضياع .

ماتت على مراحل ، والمرحلة الأولى هي الوحيدة التي تحمل في حناياها جوهر الصدق والوضوح ، عندما تحركت تلك النخبة ، جاءوا خفافا من رحم الزمن المقهور، جاءوا حالمين بها مدينة شفافة قوتها النور ، وماؤها الألحان ، وهواؤها الحرية .

أما المراحل الأخرى فكانت تختلف ، كانت مراحل لا مصداقية لها، تصور الجميع أن أصحابها هم أصحاب قضية ، وأنهم جاءوا لنصرة المستضعفين والمذلولين بفعل الطغيان والجبروت الذي عشش في النفوس المريضة ، التي استعملت سلطاتها في إذلال الشرفاء وا لنبلاء وصناع تاريخ الوطن المجيد .

* هل المرحلة الأخيرة ، هي مدرسة قائمة بذاتها ، أم هي مرحلة لا أكثر ولا أقل ؟

ونظل ننتظر الآتي دون أن نغفل أولئك الذين يحاولون الاستمرار رغم كل شيء ، وأثناء ذلك يمسكون بجمر اللحظة الحارقة ، وقد أثرت الذات ، وأثرت الآخر ، بخطوط اللهب الذي يترك كل مرة كتابة للحياة القادمة ، وفكرا للجيل القادم ، وأسئلة ضخمة لتاريخ حديث لا يبدو أنه واضح بما فيه الكفاية ، لنعرف نحن ويعرف العالم فيما بعد ، ما الذي كان يحصل في مدينتي وبأي سبب ولأي هدف .

فجأة يقف أمامه رجل في مثل سنه ، حائلا بصدره دونه ودون مواصلة السير :

* الى أين يا كمال يا حبيبي ، أنتظر يا رجل ...

* آه ، لعلني عرفتك ... وجهك ليس غريبا على ذهني ، اسمك لا، إنني لا أذكر اسمك .. لكن وجهك حبيب قطعا ..

وتعانق الرجلان بحرارة ، رغم الذاكرة الضعيفة عند كمال ، إنه واجب القريب للقريب ، أليست زمالة الثانوية قربى ؟ بلى ، إنها والله أكثر من القربى ، ولكنه لم ير الرجل منذ خروجهم من الدراسة الثانوية ، إن الوقت يشفع لذاكرته في النسيان .

* ولكن لماذا أنا لم أنس اسمك يا كمال ؟

قالها الرجل بلهجة لوم محببة ، يبتسم كمال بخجل وهو يردد :

* أسمح لي يا أخي .. إنها الغربة ، وتقدم السن ، وأشياء أخرى .

وتكرم الرجل الصديق :

* الرشيد يا كمال ، وكنت لحد هذا الشهر، أعمل مدرسا ، لأنني تقاعدت بعد ذلك .

* قـــلت لحـــد هذا الشهر ... إنك بدون عمل إذن ، مرتاح... التعـــليم عمل شاق ومضن ، ولكنه نبيل ... أليس المعلم كالرسول ؟

وضحك « الرشيد » باستخفاف لملاحظة كمال الأخيرة قائلا :

* إنني أكتب ، وأنا عضو في اتحاد الكتاب ، وعندي مجموعة من الابداعات ، لكنها لم تر بعد المطبعة ...

* ما أجـــمل هذا يا أخي ، كم كنت أتمنى أن أصبح كذلك ...

* أنت تعرف أن قناعتي كانت دائما بأن الرغبة والفكر توأمان ، ودون رغبة في شيء ما ، لا يمكن أن تكون عملية التفكير متحركة وثابة وهادفة .

* أشكرك يا عزيزي ... لقد جعلت الماضي يتحدث ، سمحت له بالكلام وحرية التعبير ، إنه له حق في ذلك مثل الحاضر والمستقبل ، هنيئا لك مهمة الكتابة ، أما أنا فلا أقدر على ذلك ، رغم أن التفكير وحتى الأفكار تكاد تفجر رأسي .

* أنت فيلسوف يا كمال ، لقد كنت دائما كذلك ...

وسار الصديقان القديمان معا في مودة يستنطقان الماضي ويتحسران عليه دون تحفظ .

الدنيا لا تزال بخير ، وها هي مدينته المحروسة ، ومن حديد تكتب المجد بجراحها ، وتنسج خيوط الحب والحياة من أوجاعها ، حيث ستظلله السماء من جديد بالصفاء والألحان الزرقاء ، وحلمه هو أن يظل في مدينته ، إن صوتها فيه شيء مثل الدمع الدافيء ، واللمسة الوديعة الحنون.

وعندما قرأ مرة أخرى ، وهو في هذه السن إلياذة ألف ليلة وليلة ، أدرك أن هويته رغم الهشاشة والارتجاج ، بقيت هوية حضارية ، تربة صالحة للقاح ، وموسما دائما للنماء ,

***

وتضيع من قدميه الطريق منسابة ، كأنها الجدول دون حجارة تربكه أو تعرقل انسيابه ، لتأخذه الى « قصر الباي » ثم «رحبة الجمال »، ثم الحديقة ، وقد هندست حديقتين ، كل حديقة لفئة خاصة من الناس ، حديقة للأغنياء ، للأغنياء من العرب والمعمرين من الأجانب ، وحديقة للفقراء والعامة من الناس ، ومعهم الكلاب والقطط ، وا لمحيط الملائم لهذه الفئة من الكائنات المتقاربة في المرتبة عند الحاكم المحتل .

محتوى الحديقة واحد ، مقاعد ومشاتل وأشجار وأزهار وخمائل ، ومحبون وعشاق تساووا في طبيعة الحب وفلسفة الجمال وسحر الطبيعة .

تساوى الحب والزهر والحنين والعذاب في الطبيعة عند الأغنياء وعند الفقراء ، عند الأمراء وعند الرعاع والسوقة ، عند المعمرين وعند الأهالي ، تماما مثلما يتساوى الناس في حالة الموت والقبر ...

ومــــن حديقة الفقــراء تذكر كمال عندما كان يقضى أجمل ساعات شبابه مع « راشيل » يتحدثان ، هو عن المستقبل وبناء بيت ، وإنجاب أطفال ، وهي عن لحظات جميلة يجب أن يعيشاها ، دون التفكير في المستقبل ، ورضا العائلتين ، ومباركة هذا الزواج بين مسلم ويهودية ، كل منهما يريد أن يتزوج وفي نفس الوقت يحافظ على هويته وعقيدته ، رغم الحب الكبير الذي جمعهما ، والذي لا يمكن أن تكون له هوية أو عقيدة ، لا في ذلك الزمان ، ولا اليوم ، ولا غدا ...

ألم تسبق أيديولوجية الحب إيديولوجية العولمة ؟

وتأخذه الطريق مرة أخرى ، تسرق قدميه الى تلك الأزقة ، التي يحس بها دائما كأنها أحضان أمه عتيقة ، صادفه كلبان ، كلب أبيض وآخر أسود ، يداعب أحدهما الآخر ، ويشم أحدهما مؤخرة الآخر ، يكتشفان بعضهما من الأنثى من الذكر، في حرية دون عين الرقيب النائمة، حاول أن يبتعد قليلا عنهما ، لعلهما مريضان بجرب أو كلب من يدري ؟ اشمأزت نفسه ، كيف يحصل ذلك اليوم ، وفي مدينة متحضرة كهذه ؟

ورجعت به الذاكرة المتعبة ، الى طفولة عذبة ... كانت الحادثة قد وقعت له في حيهم « سيدي جليس » بالقصبة ، عندما ساءت حالة والده الصحية ، فخرج ليلا ليأتي له بطبيب العائلة والجيران جميعا ، بل ربما كان طبيب الحي كله ، « الحكيم عبد الكريم » ، أحد أبناء الأسر النبيلة ، طبيب عربي مسلم ، وصل الى هذه المرتبة التي كان لا يصل إليها إلا الفرنسيون أو اليهود ، ورغم ذلك وصل ، ربما كان ذلك بجاه أو نسب ، لكنه وصل ، وأصبح حكيما ، كانوا يطلقون على الطبيب صفة الحكمة ، مثلما كان يوصف الأطباء في التاريخ الإسلامي .

جاء الحكيم بنظارته الذهبية ، وقد تربعت على وجهه الأبيض ، وصلعته تحاكي مرآة ملمعة ، وبدلة ناصعة البياض خاصة بفصل الصيف ، كان الجميع يحبونه ويحترمونه ويستقبلونه بما يليق بحكيم عربي يعتزون به ، إنه في النهاية برهن للجميع أن العقل والعلم ليسا حكرا على المستعمرين واليهود وحدهم .

لكنه هذه المرة وهو يرافق كمال العطار لفحص والده المريض ، لم يستقبل كالعادة ، ليس من طرف الجيران ، ولكن من طرف كلبة صاحبتها ، مالكة البيت الكبير المشترك ، الكلبة « بيزا » هكذا كان اسمها ، إنه لا ينساه أبدا ، كانت قد استقبلت الحكيم ذلك المساء بنباحها وجريها هنا وهناك بين قدميه ، حتى كاد يتعثر في خطواته ، اندهش

الحكيم وهو يرى كلبة في بيت مشترك كهذا البيت ، الذي سبق وعاد المرضى من سكانه قبل اليوم ، كلبة في مدينة كمدينته ، ليعلق في غضب:

* هل نحن في البادية ؟ ما هذا العبث ؟

كان متأففا مترعجا ، الأمر الذي أحرج كمال ، إن الحكيم يأتي لهذا البيت بسبب حالة والده ، وهو مستعـــد لذلك دائما ، لكنه لم يكن يتصور أنه سيصادف كلبة ، هكذا غير أليفة تعيش في بيت سكانه مسلمون يتوضأون ويصلون خمس مرات في اليوم ، وفي عتبة كل غرفة نبتة من الياسمين أو الحبق أو الفل .

كان مشمئزا ومترعجا وموبخا ومستهزئا بصاحب االكلبة أو صاحبتها ، والكل يحرك رأسه مؤيدا ، ثم يخرج بعد أن يقوم بمهمته الطبية.

لكن صاحبة الكلبة « بيزا » تبقى تذكره دائما بالكثير من النقمة والغضب ، وهي تردد أمام جاراتها :

* أوصيكم ، عندما يمرض أحدكم أن لا يذهب الى هذا الطبيب .

من يتصور نفسه ؟ هل هو الحكيم الوحيد في المدينة ؟ ما الذي فعلت له كلبة مسكينة ؟ إنها فقط كانت تعبر له عن فرحها ، إنها حيوان مسكين لا يتكلم ، وإلا كانت ردت عليه بما يجب ؟

ولا تمر مناسبة بعد ذلك إلا وتكيل صاحبة « بيزا » الكثير من القذف في شخص الحكيم المربي ، لدرجة إنها تتهمه بعدم الكفاءة المهنية...

ويبتسم كمال في نفسه لأنه يومها كان يقول :

* جميل أنها لم ترحب به بعضة ، تمزق بدلته البيضاء الأنيقة ، ولحمه الأبيض الطري داخلها .

وجميل جدا لممثلة فرنسا النجمة « بريجيت باردو » أن تعرف أن هنالك من سبقها للدفاع عن الحيوانات بعشرات السنين ، وفي غير أوروبا.



ورجع كمال العطار بذهنه لصديقه القديم ، صديق الصبا ، الذي التقى به اليوم صدفة مشدودا بعبق الحارات العتيقة ، ليسعد بالتجاوب الذي تم بينهما رغم الغربة الطويلة عن بعضهما ، إنهما من جيل واحد ، ومدرسة واحدة ، ومحيط اجتماعي وا حد ...

ليبدأ ذهنه في خوض عملية مقارنة بين « الرشيد » وبين « سيد أحمد » زميله الإطار السامي الذي يعمل معه في مصلحة واحدة ، تذكر ما قال له زميله « سيد أحمد » يوما وهما يتحاوران في فترة استراحة من العمل :

* عمي كمال ، اسمح لي أن أقول لك وبكل صراحة ، أن كلانا مجاهد ، لا تعتبر نفسك وحدك الذي كافحت من أجل الوطن ، صحيح جيلكم جاء بالحرية ، لكن جيلنا جاء بالديمقراطية وحرية الفرد .

لينظر إليـــه كمال العطار وابتسامة حنون هادئة تملأ وجهه ، لكن « سيد أحمد » يستفزه بنظرة حادة مستغربا من عدم تفاعله معه ثم يقول :

* مالك لا ترد ؟ ألست متفقا معي على ذلك ؟ اعترف أننا نحن أيضا مناضلون ، وغايتنا كغايتكم مهمة ونبيلة .

ويجيب كمال ، محاولا نفي تهمة عدم التجاوب معه قائلا :

* أنت على حق يا أخي ، وكل واحد فينا كافح ويكافح من أجل قضية ، لكن الذي خفي عن بالك ، أن جيلنا نحن عندما دفع ثمن الحرية واسترجاع السيادة الوطنية ، كان يدفع كذلك ثمن الديمقراطية بما فيها الحرية الفردية ، وغير ذلك من القيم النبيلة ، التي كان الشعب محروما منها .

* لا تقل ذلك عمي كمال ، إنكم أبناء التوجه الايديولوجي الواحد ، ولم تعتمدوا التعددية بعد الاستقلال ، وبقيتم في سياسة الحزب الواحد، الذي كان هو حزب الثورة ، ثم حزب الاستقلال ، ثم كان سبب مشاكلنا وتخلفنا مع الأسف الشديد ...

وينظر إليه كمال بشفقة قائلا ، والابتسامة الهادئة لا تفارق محياه :

* لقد كان ذلك أكثر من ضروري في ذلك الوقت وتلك المرحلة بالذات ، وكان اعتماد منظور سياسي واقتصادي معين أكثر من حتمية ، في وقت كانت الرأسمالية والامبريالية هي الاستعمار والتبعية ، والاشتراكية والعدالة الاجتماعية هي الحرية وتقرير مصير الشعوب ، يجب أن تضع كل أمر في إطاره الزمني وفي ظروفه التي تميزه ، وفي وعي جيل هذا الزمن، ومستواه العلمي وتحصيله المعرفي ، وتجربته السياسية ، قبل أن تقيم وتطلق أحكامك جزافا .

إن الانسان في كل مكان لا يعيش منفصلا عن محيطه الاجتماعي والسياسي وحتى الاقتصادي ، وحتى نوع الثقافة التي تميزه كهوية حضارية .

إنني معك ، ودفاعي اليوم عن الديمقراطية لا يقل قناعة ولا حماسا عن دفاعك أنت ولكن ...

* ولكن ماذا ؟ إنكم دائما تضعون (لكن) هذه كلما فشلتم في الاقناع ، مثل الحصاة في النعل ، لكن ماذا ؟ أفهمني بربك ...

ويرد كمال العطار والبسمة المشفقة لا تبرح وجهه :

* كلمة (لكن) هذه يا بني ، يجب أن تكون دائما موجودة ، إنها ليست رمز عرقلة لتفكيرنا أو حوارنا ، بقدر ما هي رمز لتفكير سليم ، متأن ، هاديء ، وغير متهور ، إنها تدفعنا للتأمل أكثر في جميع جوانب الموضوع المطروح ، تدفعنا لإعمال الفكر ، أكثر حتى لا نغفل شيئا من

الموضوع ، تفسح لنا مجال الاختلاف في وجهات النظر وتنوعها ، إن الديمقراطية لا تتحقق دون حرية ، إن جيلنا ورغم كل شيء ، هو الذي زرع لكم بذورها ، عندما حقق حرية الوطن والانسان .

* لا بأس عمي كمال ، إنك دائما تعرف كيف تتملص من المآزق ، وتجيب عن كل الأسئلة العويصة ، وكأنك خريج السوربون ، مع العلم أن معارفك لم تتعد مرحلة التعليم الثانوي .

ويجيبه كمال مقدرا هدوءه :

* ربما معارفي الدراسية لم تتعد الثانوي ، لكنني أشعر أنني ملكت كل علوم الدنيا ، بما رأيت وعملت وعشت ، إن الثقافة سلوك وعصامية واجتهاد ، وليست بأي حال من الأحوال شهادات مهما كانت عالية .

ويحاول سيد أحمد مقاطعته ؟ لكن كمال يوقفه بيده :

* دعني أكمل فكرتي ، إن الديمقراطية في أي بلد ، يجب أن تؤسس ولا تستورد هكذا - ستاندار - إن المستورد من الفكر ، أو أي أمر آخر هو سلاح ذو حدين ، إن الديمقراطية أو غيرها من النظريات ، مهما تليق بشعوب حققتها بنفسها عبر الأجيال ، تأسيسا وتكوينا في مد وجزر ، يمكن أن لا تليق بإنسان معين ووضعية معينة ، وما هو لائق بالآخرين ليس بالضرورة لائقا بنا .

ويقاطعه سيد أحمد بتأفف :

* الديمقراطية واحدة في كل مكان ...

* مبادؤها نعم ، في حرية التعبير ، في التعددية الفكرية والسياسية، في الحقوق الفردية والجماعية ، لكن الممارسات والوسائل والأساليب يمكن أن تختلف من بلد الى آخر ، ومن وضع اجتماعي وثقافي الى آخر .

الديمقراطية قيمة نظرية رائعة، لكنها لا تستورد هكذا ، بين يوم وليلة ، أو محمولة على دبابات الاحتلال والتبعية ، ولكنها تؤسس وتنمو مع الانسان عبر التربية والتعليم ، والحوار والاحترام المتبادل والحس الحضاري بين الأفراد والجماعات .

كم عمر ديمقراطية الغرب ؟ قل لي ؟ إن عمرها مئات السنين ، ويطلبون منا نحن المجتمعات الخارجة حديثا من ربقة الاحتلال أن نحققها في سنوات ، ومعظمنا لا يزال يسير على جمر العنف البدني والفكري ، وظلام الأمية ، وهي بعض رواسبهم في الحقيقة .

إنهم يريدون أن يصدروا لنا قيمهم عبر منظور احتلال جديد ، أو عن طريق تقزيمنا والتشكيك في قوتنا الذاتية ، آية ديمقراطية هاته التي تفرض على شعب رغما عنه ، على أنها الاختيار الأفضل من كل الاختيارات السابقة واللاحقة ؟ إن ذلك ينافي المفهوم الحقيقي للديمقراطية، في بعدها الأساسي التحرري ، وبعدها في الاختلاف الفكري بين البشر .

يتأفف « سيد أحمد » ثم يقول بأقل حماسا :

* لعلها تجربتكم ، عمي كمال ، مع القضايا وأسلوب طرحكم لها، لكني شخصيا لا أقتنع إلا بتجربتي الخاصة ، وكل منا يجب أن يكون

له اختياره ، وأن يعيش تجربته مهما كانت ، ويشكل من كل ذلك خبرته ، وليس لأحد إملاء تجربته على الآخر ، إننا نختلف وتجاربنا كذلك بالضرورة تختلف ، إننا لسنا أبناء نفس الزمن .

* نعم ، هي خصوصيات ، وليس لجيل فرض تجربته على جيل آخر ، لكنك لا تنكر أن تواصل الجسور والعلامات المضيئة على طريق الحياة لها دورها ، لأن الحياة وهموم الانسان واحدة ، والخبرة تأتي نتيجة حياة وعمر وأقدمية ، ومحتوى هذا العمر وهذه الأقدمية .

ثم يضيف مبتسما ، محاولا تلطيف الجو مع زميله في العمل :

* ألا ترى أن هنالك في الإدارة ترقية خاصة بالأقدمية في العمل ؟

أفاق كمال العطار من تداعياته في جولته الحوارية مع سيد أحمد ، ومقارنته بين صديقيه القديم والجديد ، والطريق تتزلق بين قدميه هاربة من إلحاح حركته الدؤوب ، وقال مخاطبا نفسه :

* ها أنت أصبحت تعرف كيف تغير عجلة سيارة ، مثلما عرفت يوما كيف تساهم في صنع النصر ، وأصبحت تعرف من النظرة الأولى ، هل هذا الكلب وديع أم متوحش ؟ ولكنك لم تعرف الكثير عن حقيقة الرجال ، وروح الانتهازية التي تقودهم بسرعة الصاروخ ، الى عالم خال من المباديء والكرامة ، حقيقة الرجال وما يخفون وراء سحناتهم ولطفهم الفائق .

***

* **مالك** تبكي على روح مدينتك ، وما ضيك ، بهذه الجدية ، والعالم كله أصبح قرية صغيرة ، متشابكة الأصول والأنسجة ، عالم يخضع لقوة واحدة ، تتحكم في تحديد حصص الآخرين في الهواء والماء والغذاء ، في نمط حياتهم من أكل وشرب ولبس وغاية ، وبحر وبر وفضاء وما يحمل من كواكب وأجرام .

إنك لا تتوقف عن البكاء على قريتك المدينة ، والعالم كله أصبح قرية تخضع لهيمنة واحدة ، تريد أن تنزع الملك من صاحب الملك ، لتسير كل رقعة من الأرض كما تريد ، وتخضع هويتها وتاريخها وإنسانها ، لما تحـــبه هي وترضاه .

قالوا أن الملك لله وحده ، لكن هذه القوة هي التي أصبحت تعز من تشاء وتذل من تشاء ، فلا قوميات ، ولا لغات ولا حدودا ، ولا تميزا ولا تاريخا ، إلا من حيث يبدأ تاريخ هذه القوة ، إله جديد ، ومعبود جديد ، يحرك مخلوقاته حيثما يريد ، يحزنهم بهم واحد ، ويسعدهم بفرح واحد ، ويطعمهم بنموذج واحد ، ويرقصهم باختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم على نغم واحد .

لماذا تحزن بجدية على وضع مدينتك المتريفة ، ووضع العالم كله أصبح شبيها بمدينتك ، وربما أكثر هلامية منها .

* دعوني أحزن ، إنها هي التي أنجبتني ، ورعتني ، وعلمتني ووسعت أحلامي وآمالي ، وأسست ثوابت روحي ، فما بال أبناء مدينتي عواطفهم وانفعالاتهم هي التي أصبحت تحركهم نحو الحقد واللامبالاة ؟ وتناسوا أولئك الذين وضعوا بصماتهم على أحداث التاريخ والزمن ، ولا مفر من الوقوف بإجلال عندهم ، إنهم يشكلون مراحل من حياة المدينة الحلم ، والمدينة الحقيقة ...

***

لقاء كمال العطار مع صديق صباه « الرشيد » ، ذكره بذلك الحوار السفسطائي ، مع زميله الحالي « سيد أحمد » ، والذي اعتبره ومنذ أن تعرف عليه ابنا عزيزا ، ولم يتوقف عن اعتباره كذلك ، رغم شعور الآخر المقرف بهذا الفكر الأبوي ، الذي يسلط عليهم هم الشباب ، من قبل الجيل الماضي ، خصوصا هؤلاء الذين صنعوا مجد الوطن وافتكوا حريته من براثن الاحتلال ، إن عذرهم معهم فهم يريدون أن يحافظوا على هذا الإرث العظيم من الانتصارات ، التي صنعوها بالدم وا لنار ، لكن الإفراط في ذلك أيضا من شأنه أن يخلق التنافر بين الجيلين ، تنافرا كثيرا ما أصبح يأخذ شكل صراع بين الأجيال ، وليس التواصل والتكامل المطلوبين دوما في التواصل بين الأجيال خدمة للحضارة .

تذكر جمال كل ذلك ، وقدماه تتزلقان به نحو عوالم من الأحياء عاشها في صغره ، ثم أصبحت أحلاما ليس إلا ، تأخذ كل مرة شكلا من الأشكال الجميلة أو القبيحة ، حسب نفسيته وحسب عذاب غربته عنها، إنه يحن إليها كما تحن التربة الى غيث السماء ، إنها نبع من منابع حزنه وفرحه ، كم اهتزت جراحه في ربيعها ، وهاهو بقبلات قدميه على أديمها يهديها كل مرة وردة مسقية بعبراته أو بتزيف من ذاكرته المتعبة .

وتعب من السير ومقهى « ميتة » أمام ناظريه ، المدينة غنية بالمقاهي الميتة ، وكذلك المدن العربية الأخرى ، هكذا سماها المستدمر بالأمس القريب « les cafes morts » ربما لأنها لا تقدم لزبائنها كحولا ، وإلا سميت حانة أو بارا ، وربما لأن روادها لا يعملون شيئا ، سوى أن يقتلوا فيها الوقت ، ولا يعد ذلك جريمة ولو أنه أكبر الجرائم ...

ها هي إحدى هذه المقاهي أمامه الآن ، والنادل لا يفتأ يصيح على فناجين مياه ملوثة ، سميت مجازا قهوة ، وصاحب المقهى ينفخ أوداجه زاعما أنه يساهم في إنعاش الاقتصاد الوطني ، بقتل الزمان والانسان ، في بوتقة الكسل والملل والاتكال ، والذبابات اللحوح سعيدة حتى الانتشاء بقطرات القهوة المسكرة المزروعة هنا وهناك على الموائد الخشبية ، ما أكثر ما يستهلك الناس السكر في مدينته ، دون علم أن ذلك

يتسبب في أبشع الأمراض وأكثرها تعقيدا ، كما يتلف الذوق الحقيقي لمادة البن الشهيرة .

أقـــدمية الرداء الأبيض للنادل في عالم الأوساخ تتحدى الأنظار وتؤذيها ، المقاهي ســـابقا ، لم تكن بهذه القــــــــذارة واللامبالاة ، ثم أن اســـم المقـــاهي لم يتغـــــــــير« المقاهي الميتة les cafes morts » بالأمس كان روادها لا حول لهم ولا قوة ، كان الزمن هو الذي يقتلهم بالبطالة الحقيقية ، وعصا الشرطة تؤدبهم ، وعينها تراقب تحركاتهم، لذلك كانت بعض هذه المقاهي منتدى لأفكار الحركة الوطنية وطموحاتها ، ومكانا لميلاد مختلف الجمعيات الثقافية والرياضية ، وحتى الجمعيات ذات الطابع الثوري والسياسي .

إن هذه المقاهي لم تكن كذلك في ذلك الزمن ، عندما كان صبيا يافعا يذهب إليها مع والده ، ثم بعد ذلك مع رفاقه ، واليوم يبدو أن الانتصار على هذا النوع من الذباب اللحوح يحتاج هو أيضا الى كفاح...

قال كمال العطار ذلك في نفسه ، وقد أصابته عدوى هياج وحزن غير مفهومة الأسباب ، لينكمش على نفسه هاربا من التعب والذباب ، وقد أصبحت الراحة في إحدى المقاهي عن اختيار أمرا لا جدوى منه ، ككل الأشياء الأخرى حوله ، وها هو يصبح ميتا مع أموات آخرين ، يقتل الزمن أو يرتاح منه ، وقد قتله الزمن أكثر من مرة.

الشمس تنحدر مكسورة الخاطر ، بعد أن شن الغروب عليها حملته ، والسحب البيضاء والرمادية في رقة عجين الفلاحة في أحضان وسفوح المدينة ، تعوم فوق الأفق القريب والبعيد تتأرجح صورة المدينة في عينيه بين الريف والمدينة ، وبين البداوة والحضارة .

الهدوء بدأ يلبس كل شيء الانسان والحيوان والجماد ، وروائح حميمية تعطر الأجواء ، يتهيأ لك وأنت تشمها أنها قريبة الى قلبك مثل أنفك ، لكنها تبدو حزينة من غربة غير مرئية ، روائح بقيت حواسنا تقبل عليها الى اليوم ، ونعرف كيف نفسرها ، لأنها عاشت معنا منذ الطفولة المبكرة ... كسرة في لون الذهب ، وقهوة في ساعة العصر ، يطغى عليها عبير الزهر والورد ، وفتون من الجمال والأسرار والروعة يختفي وراء الأستار والأبواب ، واستعداد لتوديع يوم واستقبال يوم آخر ، نتمنى دائما أن يكون أحسن ، لأننا لم نتأكد بعد من رداءته ، حيث لا يزال في عالم الغيب والتنبؤ .

الغروب أصبح ليلا شديد الظلمة ، والتيه شاسع داخل نفس الغريب العائد ، يفتح فمه كمن يبحث عن فريسة ، كل لحظة بالليل والنهار دون أن يشبع ...

طال السفر ، وامتدت المسافة الزمنية ، وثبت عجز الزمان ، إنه لم يعد ينجب النجباء والمروءات والبطولات ، إلا في غير موقعها الصحيح...

الظلمة تنفث دخانا ، والفجر يتنفس دما بدل الألوان البهيجة ، اختلطت كل الألوان ، ورست الغلبة في النهاية للأحمر ، المرجان الأكثر شفافية .. ملمس الأرض أصبح بعيد المنال ، وكأن القدمين أصبحتا فجأة جناحين ، والسماء سبع سماوات طباقا ، والجفن يتفنن بتعذيب العين ، مجاهدا الغفوة الحلوة ، هربا من الوجع المرتقب ، إغفاءة واحدة ، هروبا من واقع أكثر من واحد .

زمن الموت رهيب ، ومشاريع أموات كل لحظة ، تحفر أسماءها وأسماء مدنها في رمل وجليد ، ودخان ودم ، فلماذا تنام أنت ؟ ليس من حقك أن تنام، النوم للمرتاحين بالا ، للسعداء ، لأولئك الذين يملكون يومهم وغدهم دون خوف ، يسطرون ساعات حياتهم على مراحل ، يقسمون يومهم بين الليل والنهار ، نوما ويقظة ، عملا وراحة ، ويملكون الحق في الحلم والأمل ، أو التفاؤل على الأقل .

أنت لا تملك شيئا من ذلك ، ويبدو إنك لم تمتلكه في يوم من الأيام ، واليوم عندما أردت أن تفعل ذلك ، منعوك حتى من الإغفاءة ، التي تهرب بها نحو الكابوس ، وليس نحو الحلم الجميل ، تهرب بها من جرح ، يتفتت كل مرة عن جرح .

مشاريع الأموات أصبحت أمواتا ، وإغفاءة التعب أصبحت إغفاءة للهرب من الجرح المتفتق كل مرة عن جرح.

الحرائق التي أشعلت لتدمير الأرض وإحراق الغابة الخضراء ، وإعدام الخير والانسان والحضارة ، تقول أنها تعمل على تطهير الأرض وإحياء الخير والانسان ، وتذكر بالحضارة ، الحرائق تبدو كمنارات قائمة تثير شجن الغابة ، تضيء التيه الشاسع ، الحرائق كانت لا تنقصها سوى حلقة رقص سحرية ، أين الراقصون حتى يدوروا رقصا في حلقة عريضة قربانا للموت ...؟

الرقص عبادة ، والعبادة إنسانية ، والإنسانية تحتضر في زمن عار ، إلا من ورقة توت ذابلة ، الغابة اليوم يسكنها وحش له مخالب وأنياب قانونية ، والقانون أصبح نسيجا أبيض يكفن به الباطل الحق .

الأشباح تمر رائحة آتية ، تبدو متعملقة ، صعبة الامتلاك ، على العين اللاهثة ، بعيدة عن الطاعة ، متمردة ، الطاعة خذلان ، انكسار ، لا وقت للطاعة الآن ، الزمن زمن الهياج والتمرد والانتحار ، الغابة استبدلت العقل بالجنون ، الغابة مجنونة ، والكلام سيد المواقف ، والفلسفة ملكة متوجة أبدا ، وكل شيء في الغابة جاهز لتهديم بيت الحكمة والعقل والمنطق .

أنا حزين ، حزين حتى الثمالة ، ربما وجدت الكلمات للفرح القليل ، الذي صادفني يوما ، لكن حزني اليوم لا يليق له إلا الصمت ، الصمت أصدق وأبعد دلالة ، إنه في بعض الحالات يساوى راحة أبدية .

يبدو أنني عابر سبيل على ظهر سفينة لا تتوقف أبدا ، والشيطان هنالك على الرصيف الآخر لا يفتأ يقيم وليمته الأبدية .

لم يبق أمامي سوى أن أركب جملا ، يسير في الصحراء بتؤدة ، لعلني عن طريق صبره وتحمله لجحيم الرمال وعطشها الدائم ، أستطيع أن أفهم شيئا عن سر الحياة المتسرب في ثنايا كثبانها، تحت خبب لخطوات جمل صبور ، كل مرة عبر صحراء الزمن .



استيقظ كمال العطار من نومه ذلك الصباح ، وكله نشاط وحيوية ، لقد نام جيدا ، بعد تلك الجولة الماراطونية ، التي قامت بها قدماه دون تخطيط لطريق أو هدف ، جولة جعلته يملي عينيه من كل شيء في حنايا مدينته ، ليتذكر الكثير من الأمور في عملية ارتباط شرطي بينه وبينها ، بل بينه وبين ماض قريب بعيد ، ألقى بنفسه في هدير أمواج ذكرياته ، وخرج وقد شعر براحة نفسية لم يشعر بها منذ مدة طويلة ، وقد تصور أن صباحه هذا سيكون أسعد الصباحات ، التي مرت به أثناء زيارته هذه ، كان صباحا لنهاية رحلة أرادها أن تكون نتيجة جميلة وهادئة لعملية فكرية وجسدية ، استولت عليه منذ وطئت قدماه أرض مدينته الساحرة ، أراده صباحا ليوم جديد ، ومرحلة جديدة لحياة

حديدة، لقد حاول تفسير وتبرير كل ذلك ، وما عليه الأن سوى أن يهدأ من طوفان الأسئلة المحمومة ، التي تكاد تحرق ما بقي من شرايين سليمة في دماغه ، يريد الهدوء وأخذ ما بقي من الأمور براحة وتسامح ومصالحة مع نفسه ومع الآخرين ، يريد أن يعفو عن نفسه التي لم تذنب في حق أحد ، وعلى الآخرين الذين كثيرا ما أ ذنبوا في حقه وفي الآخرين ، وحتى في حق أنفسهم .

خرج ينط على سلم العمارة ، وكأنه ابن العشرين ، إن النزول أهون كثيرا من الصعود ، رغم أن هنالك صعودا كالنزول ، بل كالانحدار نحو الهاوية .

هاهو لم يشبع من التفلسف ، الذي أخذ معظم ساعات حياته ، وصل الى الباب ، باب العمارة ، كانت الشمس تمرح وتقبل كل شيء بكرم كبير ، بشائر صيف سيكون حارا جدا .

إنه يعرف مدينته ، باردة شتاء حارة صيفا ، إنها لا تعرف الوسطية في الأمور، ولا في الألوان، ولا في الحوار ، ما جعلها لا تحسن الاختيار دائما ، إنها تتجاهل الأمور الوسطى ، والألوان المنبثقة عن الألوان الرئيسية ، مع أنها ألوان أيضا ، ولها أسماء ، وجمال ورونق وخصوصية ، إنه ثبات وإصرار لا مرونة فيهما ، وكأن هذه المرونة ستؤدي بها الى خطر ما .

الصيف يأخذ من ربيعها القسط الأكبر ، والربيع يأخذ من شتائها القسط الآخر ، ليبقى عمر الربيع فيها قصيرا جدا ، مثله مثل الشباب والسعادة ، وكل شيء حلو وجميل .

إنه ليس بهذا الشكل المتحجر ، تؤخذ الأمور ، أو تمارس الحياة ، الحياة أروع من أن نضعها في قالب واحد ، نحبسها فيه ، دون هواء أو ريح يختلط بعناصرها ، لنبدع منها أشكالا وألوانا أخرى أكثر روعة ، الحياة جميلة ليس كما نراها نحن فقط ، إنها ربما تصبح أجمل كما يراها آخرون غيرنا ، فلماذا لا نأبه برؤاهم ؟

ها هي الفلسفة لا تريد أن ترحل عنه ، والأسئلة عنده باستمرار تولد أسئلة ، والإجابات عنها تساوي العمر كله ، تساوي الستين ربيعا، والستين ذكرى، والستين ألف حنين ...

في مثل هذا الجو من ربيع مدينته ، كان يخرج هو وأفراد عائلته والعائلات الأخرى ، الى أعالي جبال المدينة « جبل الوحش » بالخصوص ليستقبلوا بشائر الربيع على طريقتهم الخاصة ، يتمتعون بالشمس الدافئة ، والمروج الخضراء ، وشرب اللبن ، وأكل حلوى « البراج » تلك الخبيزات المسمنة المعجونة بلباب التمر معجونا مع ماء الزهر والورد ، ومسحوق القرنفل ، وما أكثر ما كان ينتظر مثل هذه المناسبات ، إنها الموعد الأجمل مع اللهو واللعب واللقاءات ، حيث جمال الشباب والفتيات وهن يلبسن

أجمل الألوان ، ويسرحن شعورهن على طريقة ظفائر الموضة الانكليزية الشهيرة ، في ذلك الوقت .

كان كل ما يصدر عن الجميع من سلوكات ونظرات وابتسامات وإعجاب يصدر باستحياء وخجل ، والجريء وحده هو الذي يترع ملابسه الخارجية ويلقى بنفسه في مياه إحدى البحيرات المتواجدة في الجبل ، مستعرضا عضلاته وجماله وشجاعته أمام الآخرين ، وكانت النظرة الى هذا الجريء تختلط دوما بين الاستياء الظاهر والإعجاب الباطن، حيث تعود الجميع على كبت المشاعر وقهر الأحاسيس ، نتيجة قهر اجتماعي ، لا ينفك ينمو ويتزايد ، ويعقد الحياة البسيطة الحلوة.

كان المتنزهون لا يكتفون بمتعة الجمال حولهم ، بل يضيفون لها متعة الموسيقى ، وهي تملأ الأجواء ألحانا من طرف الفرق الموسيقية الكثيرة ، أو عشاق الموسيقى من الشباب ، هوايتهم الموسيقى المحلية ، طابع « المالوف » الذي تنفرد بريادته المدينة ، وكل ما هو أصيل من أنواع الطرب الأندلسي .

أين كل ذلك منه اليوم ؟ إنه اليوم يبحث عن بائع ورود فقط ، ولا يبحث عن حدائق الورود والزهور ، وقد كانت تغطي فضاء المدينة بأريجها الفواح .

يبحث عن بائع ورود ... بحث كثيرا وسأل الكثير عن محل يبيع الورد ، لكنه لم يعثر على ضالته ، واندهش كيف يمكن لمدينة كهذه كانت تنتج الورود في كل البيوت ، أن تخلو من محلات بيع الورود ؟

إن الورد المزيف لا يعوض أبدا الورد الحقيقي ... وما أكثر ما انتشر الورد المزيف ... لقد طال الزيف كل شيء بدءا بالورد الى الإنسان.

ما هذا الجفاف ؟ لماذا لا يستثمر أصحاب رؤوس الأموال أموالهم، في مشتلات للورود ؟ ما الذي يمنعهم من ذلك ؟ هل هو الربح والخسارة، أم هو الجهل بالجمال ؟ وفقدان الإحساس به ؟ ثم ألا يمكن أن يقنع الناس بربح مادي قليل مقابل ربح جمالي أكبر ؟

ثم ما هذه المحلات الكثيرة المنتشرة هنا وهناك ؟ وكلها مطاعم وأشباه مطاعم ، أكل وسندويشات وبزيريا ؟ هل أصبح الناس يأكلون أكثر من السابق ؟ هل أصبح همهم الأكل والأكل وحده ؟ أم أنهم بذلك يحاولون الهروب من الواقع بالأكل ؟ الذي معه المال والذي ليس معه ، كلهم يأكلون ويتزاحمون ويقفون طوابير من أجل لقمة مشبوهة النظافة .

ما الذي أصاب الناس ؟ المطاعم مكدسة بالناس ، والمكتبات وقاعات المسارح فارغة ... أما محلات الورود فلا وجود لها بعد أن كانت المدينة روضة من رياض الجنة ، الماء والخضرة والوجه الحسن .

سابقا كان هناك طباخ واحد في الحي ، لا يقصده إلا الزوار الغرباء عن المدينة ، وأكلة واحدة تكفي سد رمق الغرباء الذين لا أهل لهم بالمدينة المضيافة ، وإلا لا داعي لمطبخ الحمص مع قطعة كسرة دافئة .

إنه لا يريد أن يرجع للبيت دون ورود ، سيبحث عنها حتى يجدها، ولو في آخر المدينة ، أو باطن الأرض ، يريد شراء باقة من الورد ، إنه يحب الورود وعلاقته بها علاقة حميمة ، إنه لا يفضل عليها شيئا آخر سوى إكسيرها ، عطرها الذي يستهلكه كثيرا ، وفي كل المناسبات ، تجده يشتري زجاجة العطر، خصوصا وهو على متن طائرة ما كل مرة ، إن العطر والورود هما الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينفق عليه بسخاء

قالت له حبيبته « راشيل » ذات مرة :

* إنني أحب العطور كثيرا ، وأحبها أكثر من الجواهر والحلي ، ووافقها على رأيها ، وهو يسر لها أنه يحب الورد أكثر من أي شيء ، ويتمنى أن يعيش دائما في مكان مليء بالورد والزهر ، وعندما يموت يوصى أن يغطي نعشه بالورد والزهر ، وأن يغرسوا على قبره وردة ، وكلما زاروا قبره سقوها حتى لا تموت .

إنه من القلائل الذين يفهمون لغة الورد ، ولا يتأثرون بأشواكه ، لأن الذي يحب الورد يتحمل شوكه ...

وكم تمنى أن يكون له رأسمال صغير ، ليستثمره في قطعة أرض يزرعها وردا من كل لون ، يقطفه كل مرة ، ويبيعه بثمن قليل ، حتى

يحبب الناس في الورد ، ويعودهم على الاهتمام بالجمال ، تماما مثل اهتمامهم بالخبز والأمور التافهة الأخرى .

وأخيرا يعثر كمال على بائع للورود في آخر المدينة ، فيشترى باقة، يختار الأبيض والوردي منها ، لينسقها له البائع بكثير من الاهتمام ، وكأنه تفطن لاهتمامه من كثرة لهفته ، ثم يطلب منه مبلغا ، ولا يساومه كمال العطار على المبلغ ؟ بل إنه يترك له بقية الورقة المالية بكثير من الامتنان والشكر ...

* لله في خلقه شؤون ..

يقولها بائع الورد ، وهو يتمنى أن يرزق كل يوم بزبون مثل هذا ، إنه لم يره من قبل ، لعله ضيف على المدينة أو عابر سبيل ، لن يلتقى به مرة أخرى .

* آه .. لو تعرف يا بائع الورد ، من هذا بين أهل المدينة ؟ إنه ابنها ، من صلبها ، ومن صانعي حضارتها ، والحزين على تشوه هذه الحضارة ، ألا ترى أن الكثير من أمثال هذا الرجل قد غادروا مدينتهم وأصبحوا كما تقول عابري سبيل ؟ أخذتهم الظروف الى مدن أخرى ، لكنهم تركوا قلوبهم وزمانهم في مدينتهم ، غادروا فكانوا كأن أرواحهم تسحب منهم .

ولا تسأل عن قرارات الناس ، أسأل عن الظروف التي اتخذوا فيها هذه القرارات ...

أوقف كمال سيارة أجرة ، إنه تعب من البحث عن الورود ، وعندما وجد ضالته كان قد فقد ذلك النشاط الذي خرج به هذا الصباح، وارتفعت حرارة الجو فأرهقته ، ففضل الرجوع راكبا ، إن السيارة على الأقل ، تحمل عنه وروده الجميلة ، التي وجدها بعد مشقة ، إنه لا يرتاح وهو سائر يحمل وردا ، ونظرات الفضوليين تعرقل خطواته ، وتبعثر أفكاره ، فتكاد تصرخ من حناياه خجلا وارتباكا .

* حتى في هذه السن تفكر فيما يقوله الناس ؟ ما الذي استفدت من عمرك كله ، إذا أنت لم تضرب عرض الحائط بأقوال الناس ، وتفكير الناس وفضول الناس ؟ إنك لن تعيش الحياة أكثر من مرة ...

وتصور نفسه من جديد صبيا يافعا جميلا ، كلما خاطبه أحدهم أو نظر إليه ، أو حتى شكره ، أحمر وجهه كالفتاة ...

* يبدو أننا لا نكبر في عقولنا وقلوبنا ، فقط نكبر في أجسامنا ، فيبيض شعرنا ، وتتجعد جلودنا ...

وصل الى العمارة التي بها بيته ، وقدم باقة الورد لجارته المجاهدة ، وهي تذرف دموعا حارة للفرح ، ورد الاعتبار ، هاهي أخيرا تجد قلبا مشفقا حنونا ... وتذرف دموعا أخرى أكثر حرارة ، شفقة على حالها وغربتها ، وقد ضاع منها ابن عمرها كله، في غياهب سجن ليس كسجنها بالأمس، سجن دون قضية تستحق كل ذلك ... سجن لم تكن تعرف عنه شيئا ، السجن الذي عرفته هي بالأمس القريب ، كان

للأبطال الذين كان عدوهم واحدا ، هو المحتل ، وله وجه متميز ظاهر للعيان .

واليوم كثر الأعداء ، واختلفت سحناتهم ، وهي المسكينة وأمثالها لا يدرون اليوم من هو العدو الحقيقي من الصديق الحقيقي، اختلطت عليهم الأمور وتشابكت المفاهيم ، فضاع معها الأمان والسكينة والراحة، وكم ننشد الراحة في مثل هذه السن ...

عندما قدم لها كمال باقة الورد ، قال لها مشفقا :

* إنك جارتي ، وعندما لقيتك ، كأنني لقيت أمي من جديد ، أمي التي فارقت الحياة مبكرا ، أو أختي التي لم أسعد بأن ولدتها لي أمي ، لقد وجدت فيك أختا ، كنت التقيت بها يوما في دروب الكفاح ، عبر أزقة وسراديب قصبة المدينة الوفية الكتوم ، حيث يهرب الأحرار بقضاياهم من قوى الشر في العالم ، إنك مريم أو فضيلة ، لا تزالين على قيد الحياة ، لتستشهدي ببطء موجع، إنك تلك الذاكرة العزيزة لزمن عزيز، إنك تلك المرأة الحياة التي ما فتيء الشعر ينظمها قصيدة أزلية .

لقد وجدت نفسي اليوم أبحث عن الورد ، لأنه الوحيد الذي يمكن أن ينوب عن اللسان ، وهو يعبر عن التعاطف معك ، في محنة تمر عليك وعلى مثيلاتك في زمن غير رؤوف بك وبنا ...

إنك أمي ، ومدينتي ، وروحا حيا من شبابي الضائع ، وحلمي الذي لا أجد له حقيقة ، في واقع لا يعترف بالأحلام الجميلة ، واقع

تحركه الكوابيس ، وتنهشه أنياب ذئاب ضلت طريقها من عالم الذئاب الى حيث قطيع الحملان الوديعة .

اقبليها مني هدية بسيطة ، كل ورقة من ورداتها تكتب لك اعترافا وتقديرا وصك غفران ، وكل نفحة أريج منها تعلق لك وسام استحقاق...

أيتها المرأة التي بدونها الكون غير كون ، والشمس غير دفء ، والفجر غير نور ، والأرض والفضاء لا يتعانقان.

رفيقة دربي في مدينة الأوجاع ، رفيقتي ، لقد تغير كل شيء وتضببت المفاهيم ، ولم يبق إلا الإعلان رسميا عن اتهامنا بالجريمة ، فقط لأننا حررنا هذا الوطن ، وربما في يوم ما نحاكم على هذه الجريمة أبشع محاكمة عبر المحاكم الدولية .

إنها الجريمة والعقاب ، تتكرر بألوان أخرى ، هل قرأت قصة الجريمة والعقاب ؟

رفيقة درب الحرية ، عذرا عن هذا الوجع ، وهذا الانتظار الطويل، سأرحل غدا ، خذي مفتاح الشقة ، زوريها مرة بعد مرة ، وحاولي أن تروي نبتاتها العجوز ، إنني لا أحب أن تموت أبدا ، افتحي نوافذ البيت ، تماما كما فتحت في نفسي بماضيك المشرف وحاضرك الموجع نوافذ نور الشمس بعد طول ظلام ، ودفء الصدق بعد طول نفاق .

حاولي معي ومع أمثالنا أن ندافع عن مبادئنا ، إنني خائف من يوم نتهم فيه أنا وأنت والآخرين ، ألأموات منهم والقلة القليلة من الأحياء ، خائف أن نتهم يوما على جريمة تحرير الوطن ، إنها الحقيقة وهي مرة ، تضايق وتؤلم ، لذلك نهرب منها .

***

وعندما استيقظ كمال من آخر ليلة قضاها بمدينته ، التي اختارها أسلافه وأحبوها ، ثم ورثها هو وأحبها ، عندما استيقظ مستعدا للسفر الى مدينة أخرى، لم يخترها و لم يحبها ، وكذلك لم يكرهها ، كان مثقلا بحلم شديد الغرابة ، كان حلم يقظة أكثر منه حلم نوم .

حلما رأى فيه أمورا كثيرة ، لم يكن ليتصور أن الحلم يمكن أن يكون بمثل هذه الشفافية وهذا الوضوح .

قديما وصف الناس مثل هذه الأحلام بالرؤيا ، لذلك اعتقد كمال أن حلمه كان رؤيا ، رؤيا تمخضت عن فكره وروحه ، من أحداث عمره المتعب ، ومن أحداث تاريخ مدينته الحبلى بالأحلام والرؤي .

راهم في الحلم ، أولئك الذين قرأهم وأحبهم في التاريخ الشفوي والمكتوب ، رآهم رجالا ونساء مجتمعين في حلقة ، لا هي حلقة ذكر ولا هي حلقة صوفية ، ولا هي حلقة حول محفل أو مأتم ، لم تكن كذلك... كانت حلقة تشبه اجتماعا كبيرا عظيم الشأن ، اجتماعا غريبا جمعهم من مختلف المراحل والأزمنة التاريخية ، ومن مختلف الأفكار والقناعات المذهبية.

رأى ماسينيسا، والكاهنة، وعقبة بن نافع، وعبد القادر بن محي الدين، وأحمد باي، وبوعمامة، ولالا فاطمة .

رأى بن باديس ، وبن بولعيد ، وبن مهيدي ، وزيغـــود ، وعميروش ، ولطفي ، وحملاوي ، ومريم ، وفضيلة ، ورأى حمدان خوجة كان يكتب محضرالاجتماع ، وقد عنونه بخط عريض « المرآة ».

رأى رجالا آخرين ونساء أخريات ، لا يعرف لهم أسماء ، سوى أنهم كانوا على أهبة الاستعداد ، والنساء لا براقع تغطي وجوههن ولا ملاءات ولا أقنعة ، لم يكن يخفين فضل الله عليهن بالوسامة والجمال أو القبح والدمامة أو الشباب والشيخوخة ، وكأن الزمن لا جناح عليه .

رآهم جميعا، تعلو محياهم مسحة من الغضب الهادىء ، والأسى المستكين، كانوا كأن شيئا عزيزا غاليا قد سرق منهم، نهب ، استحل ، شوه ، تمزق ، أهين.. شيء من هذا القبيل .. ربما كان ماسة كريمة ،

وربما كان وردة نضرة ، وربما كان مدينة زهرة ، أو ربما كان زهرة المدائن كلها .

لم يكونوا يتكلمون ، كانوا صامتين ، مخيطة شفاههم دون خيوط، كان الجو ثقيلا ومثقلا ، كانوا وكأنهم على أهبة الاستعداد والتأهب لأمر ما غير واضح ، لكنه يبدو أمرا خطيرا ، كذلك اتفقت نظراتهم الساهمة جميعا على تفسيره .

كان كل واحد منهم بلباس يختلف عن الآخر ، وعمامة تختلف عن الأخرى ، فرقهم الزمن شكلا ، وجمعهم مضمونا حيا ، وغضبا متوقدا ، وهدفا موحدا .

ما الذي حدث حتى يكونوا كذلك ؟ الأمر خطير يبدو ، وكمال خائف منهم يرتجف ، إنهم لم يروه أو حتى يحسوا بوجوده ، كانوا في عالم آخر غير عالمه ، ورغم ذلك كان يرتجف من نظراتهم، لقد كان فعلا يتأرجح بين النوم واليقظة، والحلم والرؤيا ، الى أن سمع أذان الفجر من بعض مآذن المدينة الشامخة .

***

* **ها** أنت تمشى كل المسافات حافيا غير عابيء بالأشواك ، ولا الحصى المزروع في طريقك ، وعندما يختصرك الزمان ويلفظك المكان في حكاية مرئية ، تكفكف دموعك وتتجرعها جراحا ...

من تكون أنت بالنسبة لكل هؤلاء ؟ إن اسمك هو اسمهم جميعا ، وصورتك لا تعني لهم شيئا ، ومكانك ضيق محدد الأركان في براح من الفضاء اللامحدود ، أنت لا تملك منه شيئا ، حتى مكانك الضيق الذي أنت فيه .

وزمانك لم يكن يوما صديقا ودودا ، إنه غول يكشر لك كل مرة عن أنيابه في حكاية ملحمة ، من شدة واقعيتها ، تكاد تذوب في الأساطير ، وتوسس للأساطير الأكثر عراقة من ألف ليلة وليلة ، أو

الأوديسة اليونانية ، أسطورة هي في الزمان والمكان ، وواقع هي من حيث أنك تدعى الوجود ...

ها أنت تولد من سجن التاريخ المغلق والمفتوح ، المتعدد الألوان والطرقات ، تولد في زنزانة يقف على بابها أكثر من عزرائيل ، مكانك في التاريخ الحديث أغرب من حكايتك في التاريخ القديم .

فلماذا لا تضع يدك في يدها ، وتغسلان بالدموع المشتركة ، الأحزان المعششة ؟

* أيتها المدينة اللاهية ، أتدرين أنني أحبك ، رغم لا مبالاتك ، ورغم إهمالك ، أحب ليلك ونهارك ، وعمرك المغسول بأمواج الزمن السعيد .

إنني مقيد بحبال ذكريات حكايتك المرئية ، ذكريات عشتها وعاشها غيري ، أسطورة في خيال الوهم والحلم ، وواقعا في الجراح الدفينة .

ورغم ذلك ، أراك لا مبالية لاهية ، تضحكين لي كل مرة ، وأشعر و أنا أعود إليك كل مرة ، أنك تبادليني نفس الشعور ، وتشاركيني نفس الأحزان والأفراح ، عندما كانت مواكب السعد ومواسم الفرح موعودة لك ولكل أبنائك ، حينها عقدت كل تمائمي على حبك ، والوفاء لك ... أتذكرين ؟

مشى دل المسافات حافيا مرة على الشوك ، وربع مرة على الورد، وعندما اختصره الزمان والمكان ، في ذكريات عاشها هو وغيره ، كفكف دموعه وتجرعها جراحا وتساءل :

* كم مرة ستعيد الأحزان ولادتي من جديد ؟ وكم مرة سأشهد عليها ، وهي تلتهم أعياد ميلادي ؟

***

سحب كمال جسمه النحيل من تحت وطأة ذكرياته ، ليخرج من جديد الى أعلى المدينة ، حيث النظرة الشاملة ، وحيث تمثال الحرية ، هذه الشابة ذات الجناحين ، لقد كان لها وجه « مريم » رفيقته الشهيدة ، بجناحين تنطلق الى الفضاء وتحت قدميها تسكن كل المدينة ، ومن بالمدينة، بل وتحت قدميها تسكن كل البشرية على كوكب الأرض .

خرج الى أعلى المدينة ، حيث أرخت الجدران بالتماثيل الحجرية انتصارات رجال جاءوا من بعيد ، ودخلوا المدينة عنوة ، وهتكوا أعراض أهلها ، قتلوا شبابها ، وسبوا نساءها أطفالها ، فسجلهم التاريخ أبطالا .

* فهل تفهم أنت اليوم معنى البطولة ؟ لا شيء مفهوما أبدا ، المفاهيم بال عليها السكارى والصعاليك ، في مدينة صعاليكها أصبحوا هم الأبطال والنبلاء .

ها هي مدينتك معشوقتك ، تبدو من أعلى نقطة وديعة كطفل بريء ، لا يعرف شيئا ، وهي التي خزنت كل معارف التاريخ باسمها الكبير ، في عالم المدن القديمة والحديثة ، إنها كما عرفتها دائما يا كمال ، ذلك الوجه المتعدد الهويات ، المبعثرة قسماته ، في حنايا الزمن ابتسامات ودموعا .

يرتعش جسمه من نسمات أصيلية باردة ، فتكتمل يقظته، ليدخل من جديد في عالمه المعتاد ، عالم الواقع الأكثر صلابة ، يمر على الكثيرين ، وهو ينحدر من القمة بعد نزهته البانورامية ، حاثا الخطى ، صلبا بجسم أرعشته النسمات الباردة ، وعقل هادىء يتمرد ، ويكاد ينفجر خارجا من جسمه النحيل ، يحث الخطى نحو بيت معين، كان الجميع من الذين مر بهم يردون التحية دون أن يتلقوها منه ، كان سلامهم معجونا بكثير من ود وألفة ، لعلهم عرفوه اليوم أو في أي يوم آخر ، لكن الأكيد أنهم يعرفونه ، إنه منهم ، واحد منهم ، حتى لو لم يتذكروا له اسما أو لقبا أو عائلة .

البيت لا يزال بعيدا ، وعملية الإنحدار من الأعلى تبدو أسرع وأسهل ، لكنه كان كلما خطا خطوة ، إلا وشعر براحة كبيرة ، ودفء أكبر ، وكان يردد مع كل خطوة نحو المدينة مناجيا نفسه الشاردة :

* زرعناك عطرا ووردا ، وحصدناك شوكا وصبارا ، زرعناك خيرا وحبا وتسامحا ، وحصدناك شرا وحقدا وضغينة ، كيف حدث

ذلك؟ هل أخطأنا في نوعية البذور ؟ هل هو طريق برجوع أو طريق بلا رجوع ؟

رفاقي دعوني أخيرا أذوب في حنايا نفسي ، ودواليب روحي ، فلا أفيض على الآخرين ، إلا بتلك الدهشة والحيرة ، التي أتركها في نفوسهم، وأنا أضمحل وأفني وأصبح لا شيء البتة ، إنه عندما يكون وجه الحبيب آخر ما نرى ، قبل الرحيل ، حتما سيكون الرحيل أكثر جمالا وروعة وراحة .

رفاقي ها أنا أتذكر أنني كنت ميتا معكم يوم رحبتم بالموت على أنها شهادة وسكن بالجنة مع الأنبياء والصديقين.

ها أنا أتذكر أنني خسرت الرحيل معكم ، وقد كان أجمل الرحيل، تركتموني لغربة لا هي بالجنة ولا هي بالنار ، في قلعة تدعى وطن ، لا هو بالسكن ولا هو بالشجن ، فمن يرثى للآخر ؟ وبيننا هذا الميثاق الكبير ، والستون عاما ملفوفة بغبار الحياة ، وخطوة صغيرة للبداية، ورحلة شاقة نحو نهاية ، لا ينتهى فيها الحنين .

انتهت الرواية

صدر لها :

1. الرصيف النائم	مجموعة قصصية
2. على الشاطئ الآخر	مجموعة قصصية
3. من يوميات مدرسة	رواية
4. الظلال الممتدة	مجموعة قصصية
5. لونجة و الغول	رواية
6. عجائز القمر	مجموعة قصصية
7. روسيكادا	مجموعة قصصية
8. نقاط مضيئة	دراسات و مقالات
9. دعاء الحمام	مسرحية

تم الطبع في
الطباعة العصرية
فيفري 2007
9 شارع سعيدي أحمد برج الكيفان الجزائر
الهاتف : 16 52 49 070

إنها رواية جاءت بمثابة الحلم الذي طالما انتظره القارئ عميقا ناضجا، يعج بالذاكرة، و مخضبا بوعي اللحظة، بجنونها و كبريائها، لحظة أزلية للألم أو الحلم، لتتكاثف الأحداث برصانة، وتتحقق الذكريات عند بوابة الجسر، برمزية و سهولة، و لغة قوية، تعج برائحة القهوة و الزهر، و أجواء التصوف، و تتعالى من ضفافها صدى موسيقى المالوف، في جنبات القصبات العتيقة.

رواية جسر للبوح و آخر للحنين، بمثابة العمل الأرشيفي، دفع الكاتبة إلى البحث الدقيق، و حتى يكون عملها الإبداعي مؤسسا و مؤثثا بالحقائق، لتحقق هي ذلك التقاطع الممتع الواعي و الذكي، بين الواقع و الخيال، في توليفة متناغمة، و هنا تكمن قوة المبدع وبحثه عن أفق آخر للكتابة، بأدوات جديدة أوسع، بإعتبار أن الرواية أضحت اليوم ديوانا للإنسانية، تروي الألم و المعاناة، وأيضا التفاؤل و الحب، لتختار الكاتبة أن تكون لروايتها نهاية مفتوحة، لأن العالم في النهاية نافذة مفتوحة، دون أن تغفل الكاتبة في متن الرواية، إثارة العواطف و العواصف الإنسانية، و ثنائيات التضاد : الحب و الحرب، و المقدس و المدنس، و الحق و الباطل، و العدل و الإجحاف.

إنها رحلة إلى أغوار تاريخ مدينة، رمز لكل الوطن، برقمها المقدس (سبعة) : في جسورها، و قصباتها، و أوليائها، و ما يحمله كل ذلك و غيره، من زخم تراثي، و موروث شعبي، وظفته الكاتبة بإبداع ثوري، لتضيء به محطات كثيرة في حياتنا القادمة.

إنها رواية يجب أن تقرأ، لكي لا نحرم أحدا من المتعة و الفائدة ...

الناشر



